المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سورةُ الحَجِّ، سورةُ المُؤْمنونَ

(المجلَّدُ الثامنَ عَشَرَ)

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الحَجِّ

سُورةُ الحَجِّ

سورةُ الحَجِّ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (الحَجِّ).[1]

فعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((في سُورةِ الحَجِّ سَجدتانِ)).[2]

وعن عبدِ الله بنِ ثعلبةَ: (أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضي اللَّه عنه صلَّى بهم بالجابيةِ،[3] فقرأ سورةَ الحجِّ، فسجَد فيها سَجْدتينِ).[4]

---

(1) سُمِّيَت سورةَ الحَجِّ؛ لاشتِمالِها على مناسكِ الحَجِّ، وتَعظيمِ الشَّعائِرِ، وتأذينِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ للنَّاسِ بالحَجِّ، وقد نزلَتْ قبلَ أن يُفْرضَ الحجُّ على المسلمينَ بالاتِّفاقِ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/323)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/179).

(2) أخرجه الحاكم (3472)، والبيهقي (3893) موقوفًا.

صحَّحه الحاكم في ((المستدرك)) (2/423)، وابن حزم في ((المحلى)) (5/107).

(3) الجابِيةُ: مدينةٌ بالشَّامِ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (7/2769).

(4) أخرجه الشافعي في ((الأم)) (8/694)، والحاكم (3471)، والبيهقي (3887).

صحَّحه الحاكم في ((المستدرك)) (2/423)، وابن الملقن في ((شرح البخاري)) (8/387).

فضائل السورة وخصائصها:

فُضِّلَت هذه السُّورةُ على سائرِ السُّوَرِ بسَجدَتينِ:

كما دلَّ على ذلك قولُ ابنِ عباسٍ، وفعلُ عُمرَ -فيما تقدَّم- رضي الله عنهم أجمعينَ.(5)

اختلف العُلَماءُ في هذه السُّورةِ على أقوال:

الأوَّل: أنَّها مَدَنيَّةٌ.(6)

---

(5) أمَّا السجدةُ الأُولَى ففي قولِه: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ [الحج: 18].

وقد أجمَع العلماءُ على السجودِ فيها، وممن نقَل الإجماعَ: ابنُ حزمٍ، وابنُ قُدامةَ، وابنُ حَجرٍ.

يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: 31)، ((الكافي)) لابن قدامة (1/272)، ((فتح الباري)) لابن حجر (2/551).

أمَّا السجدةُ الثانيةُ ففي قولِه تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [الحج: 77]، وفيها خلاف، والسجودُ فيها مذهبُ الشافعيَّةِ والحنابلةِ وبعضِ المالكيَّةِ، وهو اختيارُ ابنِ المُنذِرِ، وابنِ تيميَّةَ، والشَّوكانيِّ، وابنِ عُثيمينَ.

يُنظر: ((المجموع)) للنووي (4/62)، ((الإقناع)) للحَجَّاوي (1/155)، ((المنتقى)) للباجي (1/351)، ((الأوسط)) لابن المنذر (5/272)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (3/355)، ((تفسير الشوكاني)) (3/470)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (4/96).

(6) ممن اختار أنَّ السُّورةَ مَدَنيَّةٌ كلُّها: عبد الرزاق، والماوَرْدي، والواحدي.

يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (2/396)، ((تفسير الماوردي)) (4/5)، ((الوسيط)) للواحدي (3/257).

وقيل: مدنية إلَّا أربعَ آياتٍ منها نزَلت بمكَّة، وهي قولُه تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى [الحج: 52] إلى قولِه تعالى: أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ [الحج: 55].

وممن قال اختار هذا القولَ: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين، وابن جزي، وأبو السعود.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (1/353)، ((تفسير القرآن العزيز)) لابن أبي زمنين (3/166)، ((تفسير ابن جزي)) (2/32)، ((تفسير أبي السعود)) (6/91).

الثاني: أنَّها مكِّيَّةٌ.[7]

الثَّالث: أنَّها مختلِطةٌ.[8]

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ الحَجِّ:

بَيانُ التَّوحيدِ، وإقامةُ الأدلةِ عليه، وإثباتُ البَعثِ.

---

(7) ومن اختار أنَّ السورةَ مكِّيَّةٌ: عبدُ القاهر الجرجاني، وابن كثير، والنسفي.

يُنظر: ((درج الدرر في تفسير الآي والسور)) لعبد القاهر الجرجاني (1245/3)، ((تفسير ابن كثير)) (389/5)، ((تفسير النسفي)) (426/2).

وقيل: مكيَّةٌ غيرَ ستِّ آياتٍ، وهي قَولُه تعالى: هَذَانِ خَصْمَانِ ...

إلى قَولِه تعالى: إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ [الحج: 19– 24]، ونقل الاتفاقَ على ذلك: الفيروزابادي.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (323/1).

وممن اختار هذا القولَ: البغويُّ، والزمخشري، والبيضاوي.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (322/3)، ((تفسير الزمخشري)) (141/3)، ((تفسير البيضاوي)) (64/4).

وقيل: مكيَّةٌ سوى ثلاثِ آياتٍ، هي قوله تعالى: هَذَانِ خَصْمَانِ [الحج: 19] إلى تمامِ ثلاثِ آياتٍ.

وممن قال بهذا القولِ: السمرقنديُّ، ومكي، والرازي.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (447/2)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (4833/7)، ((تفسير الرازي)) (199/23).

(8) وممن اختار أنَّ السورةَ مختلطةٌ؛ منها المكِّيُّ، ومنها المدنيُّ: ابنُ عطية، والقرطبي –ونسباه للجمهورِ–، ومحمد رشيد رضا.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (105/4)، ((تفسير القرطبي)) (1/12)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (240/7).

قال ابنُ عاشور: (أرادوا أنَّ كثيرًا منها مكيٌّ، وأنَّ مثلَه أو يقاربُه مدنيٌّ، وأنَّه لا يتعيَّنُ ما هو مكيٌّ منها، وما هو مدنيٌّ؛ ولذلك عبَّروا بقولِهم: هي مختلطةٌ).

((تفسير ابن عاشور)) (180/17).

ذكر ابنُ عطية (٦/ ٢١٠ بتصرف) أنّ القول بأن السورة مختلطة منها ما هو مكي ومنها ما هو مدني هو قول الجمهور، ورجَّحه مستندًا إلى ظاهر آيات السورة، فقال: «وهذا هو الأصح؛ لأن الآيات تقتضي ذلك».

وبنحوه ابنُ القيم (٢/ ٢١٧).

مِن أهَمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلت عليها السُّورةُ:

1- افتُتِحَت السُّورةُ بالأمرِ بتقوى اللهِ، والحَديثِ عن أهوالِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه.

2- بيانُ الأدِلَّةِ على أنَّ البَعثَ حَقٌّ.

3- ذِكرُ جِدالِ المُشرِكينَ، وعِبادةِ المُنافِقينَ.

4- بَيانُ حُكمِ اللهِ بين العِبادِ، والفَصلِ بينهم، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ في الكَونِ يَسجُدُ لله، وأنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ حَقَّ عليه العَذابُ.

5- عَقْدُ مُقارَنةٍ بين خَصمَينِ اختَصَموا في رَبِّهم مِنَ المُؤمنينَ والكافِرينَ، مع بيانِ عاقِبةِ كُلٍّ منهما.

6- الحَديثُ عن فريضةِ الحَجِّ وما جعَل اللهُ فيه من المنافِعِ، وصَدِّ المُشرِكينَ عن المسجدِ الحَرامِ.

7- التَّحذيرُ مِنَ الشِّركِ.

8- الإذْنُ للمُسلِمينَ بالقِتالِ، وضَمانُ النَّصرِ والتَّمكينِ في الأرضِ لهم.

9- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن تكذيبٍ.

10- عَرضُ نماذِجَ مِن تكذيبِ المكَذِّبينَ مِن قَبلُ، ومِن مَصارِعِ المكَذِّبينَ ومَشاهِدِ القُرى المُدَمَّرةِ على الظَّالِمينَ.

11- عَرضُ طَرَفٍ مِن كَيدِ الشَّيطانِ للرُّسُلِ والنبيِّينَ في دَعوتِهم، وتثبيتِ اللهِ لِدَعوتِه، وإحكامِه لآياتِه.

12- التَّذكيرُ بألوانٍ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى على الخَلقِ، وأنَّ اللهَ اصـطفى خَلْقًا مِنَ الملائِكةِ جعَلَهم رُسُـلًا إلى النَّاسِ.

13- تَوجيهُ بَعضِ الإرشاداتِ إلى المؤمنينَ بعِبادتِه سُبحانَه، وفِعلِ الخَيراتِ، والجِهادِ، وإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والاعتِصامِ باللهِ.

سورةُ الحَجِّ

الآيتان (1–2)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)

غريب الكلمات:

زَلْزَلَةَ: الزَّلْزَلةُ: الحَرَكةُ الشَّديدةُ، واضْطِرابُ الأرْضِ، وأصلُها مِن: زَلَّ عن الموضِعِ، أي: زال عنه وتحرَّكَ.

تَذْهَلُ: أي: تَنسَى وتَترُكُ، والذُّهولُ: نِسيانُ ما مِن شَأنِه ألَّا يُنسَى؛ لوجودِ مُقتَضى تذَكُّرِه، وأصلُ (ذهل): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بذُعرٍ أو غَيرِه.

تفسير الآيتين:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ.

أي: يا أيُّها النَّاسُ، اتَّقُوا رَبَّكم الذي خلَقَكم، والذي يرزُقُكم ويدَبِّرُ أمورَكم، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه.

إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ.

أي: اتَّقُوا اللهَ؛ لأنَّ أمامَكم أهوالًا عَظيمةً، يَحصُلُ منها رُعبٌ هائِلٌ، وفَزَعٌ كَبيرٌ يومَ القيامةِ، ولا نجاةَ مِن ذلك إلَّا بتَقواهُ سُبحانَه.[9]

---

(9) ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ أي: شدَّتَها وهَوْلَها، ومَا يَحْصُلُ لِلنُّفوسِ مِنَ الْفَزَعِ وَالرُّعْبِ: ابنُ كثير، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (5/393)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/261).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (12/3).

قال الشـــنقيطي عن هذه الزلزلةِ: (معناها: شِـــدَّةُ الخوفِ والهولِ والفزعِ؛ لأنَّ ذلك يُســـمَّى زِلْزالًا، بدليلِ قوله تعالَى فيما وَقَع بالمسـلمينَ يومَ الأحزابِ مِن الخوفِ: إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْـفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَـارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَـدِيدًا [الأحزاب: 10– 11] ؛ أي: وهو زلزالُ فزعٍ وخوفٍ، لا زلزالُ حركةِ الأرضِ).

((أضواء البيان)) (4/261).

وممن اختار أنَّها زلزلةٌ حقيقة وهي شدةُ الحركةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والعليمي، وابن عاشور.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (3/257)، ((تفسير السمعاني)) (3/416)، ((تفسير البغوي)) (3/322)، ((تفسير الرازي)) (23/199)، ((تفسير العليمي)) (4/399)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/187).

ونسَب ابنُ عطيةَ للجمهورِ أنَّ زلزلةَ السَّاعةِ هي كالمعهودةِ في الدنيا، إلَّا أنَّها في غايةِ الشدَّة.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (105/4).

قال الشنقيطي: (اختَلَف العلماءُ في وقتِ هذه الزَّلْزَلةِ المذكورة هنا، هل هي بعدَ قيام النَّاسِ مِن قُبورِهم يومَ نشورِهم إلى عَرَصاتِ القيامةِ، أو هي عِبارَةٌ عن زلزلةِ الأرضِ قبلَ قِيامِ النَّاسِ مِن القُبورِ؟ فقالَتْ جماعَةٌ مِن أهلِ العلمِ: هذه الزَّلزلةُ كائِنةٌ في آخرِ عُمْرِ الدُّنيا، وأوَّلِ أحوالِ السَّاعةِ.

وممَّنْ قالَ بهذا القولِ: عَلْقَمةُ، والشَّعبيُّ، وإبراهيمُ، وعُبَيدُ بنُ عُمَيرٍ، وابنُ جُريجٍ.

وهذا القولُ مِن حيثُ المعنَى له وجهٌ مِن النَّظَرِ، ولكِنَّه لم يَثْبُتْ ما يُؤَيِّدُه مِن النَّقلِ، بل الثَّابتُ مِن النَّقلِ يُؤَيِّدُ خلافَه، وهو القولُ الآخَرُ.

وحُجَّةُ مَن قالَ بهذا القولِ حديثٌ مرفوعٌ جاءَ بذلك، إلَّا أنَّه ضعيفٌ لا يجوزُ الاحتجاجُ به.

وأمَّا حُجَّةُ أهلِ القولِ الآخَرِ القائِلينَ بأنَّ الزَّلزلةَ المذكورةَ كائنةٌ يومَ القيامةِ بعدَ البعثِ مِن القبورِ، فهي ما ثَبَت في الصَّحيحِ عن النَّبِيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم مِن تصريحِه بذلك.

وبذلك تعلمُ أنَّ هذا القولَ هو الصَّوابُ كما لا يخفَى).

((أضواء البيان)) (257/4).

وممَّن اختار أنَّها زلزلةٌ واقعةٌ في الدنيا قُبَيل يوم القيامة، وأنَّها من أشراطِه ومُقَدِّماتِه: السمعاني، وابن جزي، وابن عاشور، ونسبه القرطبيُّ إلى الجمهورِ.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (416/3)، ((تفسير ابن جزي)) (32/2)، ((تفسير ابن عاشور)) (187/17)، ((تفسير القرطبي)) (3/12).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: علقمةُ، وعامرٌ الشعبيُّ، وابنُ جريجٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (446/16)، ((تفسير ابن الجوزي)) (221/3).

قال أبو حيان: (قال الجمهورُ: في الدنيا آخرَ الزمانِ، ويتبعُها طلوعُ الشمسِ مِن مغربِها).

((تفسير أبي حيان)) (480/7).

وممن اختار أنَّ الزلزلةَ كائنةٌ بعدَ بعثِ الناس وقيامِهم مِن قبورِهم: ابنُ جريرٍ، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (446/16)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (257/4– 260).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الحسنُ، والسُّدِّي، وابنُ زيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (453/16)، ((تفسير ابن الجوزي)) (221/3).

اختُلِف في الزلزلة المذكورة؛ هل هي في الدنيا على القوم الذين تقوم عليهم القيامة، أم هي في يوم القيامة على جميع العالم؟ رجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٤٤٩) مستندًا إلى السنةِ القولَ الثاني، فقال: «والصوابُ مِن القول في ذلك ما صحَّ به الخبر ...».

وساق حديث عمران بن حصين، وما في معناه.

وذكر ابنُ عطية (٦/ ٢١٢) أنّ قائلي هذا القول احْتَجُّوا بحديث أنس؛ إذ قرأ رسول الله – ﷺ – الآية ثم قال: «إنّه اليوم الذي يقول الله تعالى فيه لآدم: أخْرِج بعث النار».

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ - ﷺ - قال: ((يقولُ اللهُ تعالى: يا آدمُ. فيقولُ: لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ،[10] والخَيرُ في يَدَيكَ! فيقولُ: أخرِجْ بَعْثَ النَّارِ.[11] قال: وما بَعْثُ النَّارِ؟ قال: مِن

وانتقد استدلالَهم بهذا الحديث -مستندًا إلى الدلالة العقلية- بقوله: «وهذا الحديثُ لا حُجَّة فيه؛ لأنه يحتمل أن النبي - ﷺ - قرأ الآية المتضمِّنة ابتداء أمر الساعة، ثم قصد في تذكيره وتخويفه إلى فصل من فصول يوم القيامة، فنصَّ ذكره، وهذا من الفصاحة».

وبيَّن أن الضمير في قوله: ﴿يرونها﴾ -على هذا القول- عائد على السّاعة، أي: يوم يرون ابتداءها في الدنيا.

ثم قال: «فيصح لهم بهذا التأويل أن لا يلزمهم وجود الرضاع والحمل في يوم القيامة، وإن أعادوه على الزلزلة فسد قولهم بما يلزمهم».

وذهب ابن عطية -مستندًا إلى الدلالة العقلية- (٦/ ٢١٢) أن الضمير في قوله: ﴿ترونها﴾ عائد على الزلزلة -وهو القول الأول الذي قاله الشعبي، وعبيد بن عمير، وعلقمة، وابن جريج-، فقال: «وقوّى قولَهم أن الرضاع والحمل إنما هو في الدنيا».

وعلق ابنُ جرير (١٦/ ٤٤٧) على هذا القول، فقال: «وقد روي عن النبي - ﷺ - بنحو ما قال هؤلاء خبر في إسناده نظر ...».

وساق حديث أبي هريرة.

وذكر ابنُ كثير (١٠/ ٦) أنّ الغرض من هذا الحديث هو دلالته على كون الزلزلة قبل يوم القيامة.

وانتقد ابنُ جرير هذا القول مستندًا لمخالفته السنة، فقال: «وهذا القول -الذي ذكرناه عن علقمة والشعبيّ ومَن ذكرنا ذلك عنه- قولٌ لولا مجيء الصحاح من الأخبار عن رسول الله - ﷺ - بخلافِه، ورسول الله - ﷺ - أعلمُ بمعاني وحي الله وتنزيله».

ذكر ابنُ عطية (٦/ ٢١١ - ٢١٢) أنّه يحتمل أن تكون الزلزلة في الآية عبارةً عن أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مَسَّتْهُمُ البَأْساءُ والضَّرّاءُ وزُلْزِلُوا﴾ [البقرة: ٢١٤]، وكما قال - ﷺ -: «اللهم، اهزمهم، وزَلْزِلْهم».

ثم قال: «والجمهور على أنّ زلزلة الساعة هي كالمعهودة في الدنيا، إلا أنها في غاية الشدة».

(10) لَبَّيْكَ: أي: أدومُ على طاعتِك دوامًا بعد دَوامٍ، وإقامةً بعد إقامةٍ؛ مِن ألَبَّ بالمكانِ: إذا أقامَ به.

وسَعْدَيْكَ: أي: ساعدتُ طاعتَك يا رَبِّ مُساعدةً بعد مُساعدةٍ، وهي الموافَقةُ والمُسارعةُ، أو أسعَدُ بإقامتي على طاعتِك وإجابتي لدَعوتِك سعادةً بعد سعادةٍ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (673/2).

(11) بَعْثَ النَّارِ: بمعنى المبعوثِ المُوَجَّهِ إليها.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (97/3).

كُلِّ ألفٍ تِسعَ مئةٍ وتسعةً وتسعينَ. فعِندَه يَشيبُ الصَّغيرُ ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، وأيُّنا ذلك الواحِدُ؟! قال: أبشِروا؛ فإنَّ منكم رجُلًا، ومِن يأجُوجَ ومَأجوجَ ألْفًا. ثمَّ قال: والَّذي نَفْسي بيَدِه، إنِّي أَرْجو أنْ تَكونوا رُبُعَ أهلِ الجَنَّةِ. فكبَّرْنا! فقال: أَرْجو أنْ تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجَنَّةِ. فكبَّرْنا! فقال: أَرْجو أنْ تكونوا نِصْفَ أهلِ الجَنَّةِ. فكبَّرْنا! فقال: ما أنتُم في النَّاسِ إلَّا كالشَّعرةِ السَّوداءِ في جِلدِ ثَورٍ أبيضَ، أو كشَعرةٍ بَيضاءَ في جِلدِ ثَورٍ أسوَدَ!)). [12]

(12) رواه البخاري (3348) واللفظ له، ومسلم (222).

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2).

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ.

أي: يومَ تَرَونَ زلزلةَ السَّاعةِ –أيُّها النَّاسُ– تَشْتغِلُ كُلُّ مُرضِعةٍ حِينَها عمَّن تُرضِعُه، وتَغفُلُ عنه حائِرةً مَدهوشةً، قد اشتدَّ بها الكَربُ؛ مِن هَولِ ما تراهُ.[13]

وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا.

أي: وتُسقِطُ كُلُّ امرأةٍ حاملٍ جَنينَها الذي في بَطنِها قَبلَ تمامِه؛ لشِدَّةِ الكَربِ والفَزَعِ والهَولِ.[14]

---

(13) قال الزمخشري: (عَمَّا أَرْضَعَتْ: عن إرضاعها.
أو: عن الذي أرْضَعته، وهو الطفلُ).
((تفسير الزمخشري)) (3/142).
وقال السعدي: (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ مع أنَّها مجبولةٌ على شدةِ محبتِها لولدِها، خصوصًا في هذه الحالِ، التي لا يعيشُ إلَّا بها).
((تفسير السعدي)) (ص: 532).
(14) قال السمعاني: (فإن قال قائلٌ: كيفَ تضَعُ المرأةُ حَمْلَها يومَ القيامةِ؟ الجوابُ: قُلْنا: أمَّا على قَولِنا: إنَّ الزَّلزلةَ قبل قيامِ السَّاعةِ، فمعنى وَضعِ الحَملِ على ظاهِرِه، وإنْ قُلْنا: إنَّ الزَّلزلةَ عند قيامِ السَّاعةِ، فالجوابُ مِن وَجهَينِ: أحدُهما: أنَّ المرادَ مِن الآيةِ النِّساءُ اللَّواتي مِتنَ وهنَّ حَبالى.
والوَجهُ الثَّاني –وهو الأصَحُّ–: أنَّ هذا على وَجهِ تعظيمِ الأمرِ، وذِكرِ شِدَّةِ الهَولِ، لا على حقيقةِ وَضعِ الحَملِ، والعرَبُ تقولُ: أصابَنا أمرٌ يَشيبُ فيه الوليدُ، وهذا على طَريقِ عِظَمِ الأمرِ وشِدَّتِه، وقد قال الله تعالى: يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا [المزمل: 17]، والمرادُ ما بَيَّنَّا).
((تفسير السمعاني)) (3/417).
ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/260).

وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى.

أي: وترى النَّاسَ تَحسَبُهم سُكارى قد دَهِشَت عقولُهم، وغابت أذهانُهم؛ مِن شِدَّةِ الفَزَعِ والكَربِ والهَولِ، ولَيسُوا بسُكارى حقيقةً مِن شُربِ الخَمرِ!

وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ.

أي: ولكِنَّ الذي أوجَبَ لهم هذه الحالةَ خَوفُهم مِن شِدَّةِ عذابِ اللهِ الذي رأَوْهُ، فأذهَبَ هَولُه عُقولَهم، وأفرَغَ قُلوبَهم، ومَلَأها فَزَعًا ورُعبًا!

ذكر ابنُ عطية (٦/ ٢١٢) أنّ النَّقّاشَ قال بأن المراد بـ ﴿كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ﴾: مَن ماتَ مِن الإناث ولدُها في جوفها.
وانتقده بقوله: «وهذا ضعيف».

سورةُ الحَجِّ

الآيتان (3–4)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (4)

غريب الكلمات:

مَرِيدٍ: أي: مُتَمَرِّدٍ خارجٍ عن الطَّاعةِ، مُتجرِّدٍ للفَسادِ، وأصلُ (مرد): يدُلُّ على تجريدِ الشَّيءِ مِن قِشرِه، أو ما يَعلوه مِن شَعرِه.

السَّعِيرِ: السعيرُ اسْمٌ مِن أسماءِ جَهَنَّمَ، يُقال: سَعرْتُ النَّارَ، إذا ألهَبْتَها، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارتِفاعِه.

تفسير الآيتين:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

أي: ومِنَ النَّاسِ صِنفٌ يجادِلُ في شأنِ اللهِ وفي دينِه بجَهلٍ، من غيرِ علمٍ صحيحٍ، جدلًا ناشئًا عن سوءِ نظرٍ، وسوءِ تفكيرٍ لإحقاقِ الباطلِ وإبطالِ الحقّ، فينكرُ وحدانيَّةَ اللهِ وقدرتَه على إحياءِ الموتَى، ويُكذِّبُ ما جاءَتْ به رسلُه.

وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ.

أي: ويتَّبعُ الجاهِلُ في جدالِه في اللهِ بلا عِلمٍ كُلَّ شَيطانٍ عاتٍ طاغٍ مِن شياطينِ الإنسِ والجِنّ، مُتجرِّدٍ مِنَ الخيرِ، مُتمَرّدٍ على اللهِ، فيَقبَلُ وَسوَسَته، وينقادُ للعَمَلِ بها بلا تَفكيرٍ ولا تَرَدُّدٍ.

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (4).

أي: قضَى اللهُ على الشَّيطانِ المتَمَرِّدِ وقدَّر أنَّ مَنِ اتَّخَذه وليًّا فأقبَلَ عليه واتَّبَعَه؛ فإنَّ الشَّيطانَ يُضِلُّه في الدُّنيا عن الحَقّ، ويَدُلُّه إلى طريقِ النَّارِ المُوقَدةِ ويَدْعوه إليها، فيَسوقُه إلى عَذابِها بما يُزَيِّنُه له مِنَ الباطِلِ.

سورةُ الحَجِّ

الآيات (5–7)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ
ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ
نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا
يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)

غريب الكلمات:

رَيْبٍ: الرَّيبُ: الشَّكُّ، أو هو الشَّكُّ معَ الخَوفِ، ومعَ تُهمةِ المشكوكِ فيه، وتوهُّمُ أمْرٍ ما بالشَّيءِ، والرَّيبُ مصدرُ رابني الشيءُ: إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وهي قلقُ النفْسِ واضطرابُها.

نُطْفَةٍ: النُّطفةُ: هي المنيُّ، وقيل: الماءُ الصَّافي، وقيل: الماءُ القليلُ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ.

عَلَقَةٍ: العَلَقةُ: الدَّمُ الجامِدُ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ.

مُضْغَةٍ: المُضْغةُ: القِطعةُ الصَّغيرةُ مِن اللَّحمِ قَدْرَ ما يُمضَغُ، وأصلُها: مِن المَضْغِ.

مُخَلَّقَةٍ: أي: مخلوقةٍ تامَّةِ الخَلقِ، وأصلُ (خلق): يدلُّ على تقديرِ الشَّيءِ.

وَنُقِرُّ: أي: نُثبِّتُ، وأصلُه يدُلُّ على التمَكُّنِ.

لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ: أي: سِنَّ الفُتُوَّةِ واستِجماعِ القُوى، وأصلُه مِنَ الشِّدَّةِ والقُوَّةِ والجَلادةِ، وقيلَ: أصلُه الارتفاعُ؛ مِن: شَدَّ النَّهارُ، إذا ارْتفَع.

أَرْذَلِ الْعُمُرِ: أي: أرْذَئِه، وهو الهَرَمُ والخَرَفُ؛ لأنَّ الهَرَمَ أسوأُ العُمُرِ وشَرُّه، والأرذَلُ مِن كُلِّ شَيءٍ: الرَّديءُ منه.

هَامِدَةً: أي: مَيْتةً يابِسةً، لا نباتَ فيها، وأصلُ (همد): يدُلُّ على خُمودِ شَيءٍ.

اهْتَزَّتْ: أي: تحرَّكت بالنَّباتِ عندَ وقوعِ الماءِ عليها، وأصلُ (هزز): يدُلُّ على اضطرابٍ في شَيءٍ وحَركةٍ.

وَرَبَتْ: أي: انتفَخت وعَلَت وزادت، وأصلُ (ربا): يدُلُّ على الزِّيادةِ والنَّماءِ والعُلُوِّ.

زَوْجٍ بَهِيجٍ: أي: جِنسٍ وصِنفٍ حَسَنٍ، والبَهيجُ بمعنى المُبهِجِ، وهو الحَسَنُ الصُّورةِ الذي تُمَتَّعُ العَينُ برُؤيتِه؛ مِن البَهجةِ: أي: حُسنِ الشَّيءِ ونَضارَتِه، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ.

أي: يا أيُّها النَّاسُ، إنْ كُنتُم في شَكٍّ واشتِباهٍ مِن قُدرَتي على بَعْثِكم بعدَ مَوتِكم، فتَذكَّروا أنَّني خلَقْتُ أباكم آدَمَ مِن ترابٍ؛ فالذي قدَرَ على خَلْقِكم أوَّلًا قادِرٌ على خَلْقِكم ثانيًا.(15)

ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ.

أي: ثمَّ خَلَقْناكم -يا بَني آدَمَ- مِن مَنِيٍّ.

---

(15) قال الشــنقيطي: (التحقيقُ في معنى خَلْقِه للنَّاسِ مِن ترابٍ: أنَّه خلق أباهم آدَمَ منه، ثمَّ خلق منه زَوجَه، ثمَّ خَلَقَهم منهما عن طريقِ التناسُلِ، كما قال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ [آل عمران: 59]، فلمَّا كان أصلُهم الأوَّلُ مِن تراب، أَطلَق عليهم أنَّه خلقَهم من ترابٍ؛ لأنَّ الفُروعَ تَبَعٌ للأصلِ).
((أضواء البيان)) (4/265).

كما قال تعالى: أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى [القيامة: 37–40].

ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ.

أي: ثمَّ خَلَقْناكم مِن قِطعةِ دَمٍ حَمراءَ جامِدةٍ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ.

ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ.

أي: ثمَّ خَلَقْناكم مِن قِطعةِ لَحمٍ صَغيرةٍ بمِقدارِ ما يُمضَغُ، مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ.(16)

---

(16) وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالمُخَلَّقةِ: المُصَوَّرةُ خَلقًا تامًّا، وأنَّ غَيرَ المُخَلَّقةِ تعني السِّقْطَ قبلَ تمامِ خَلْقِه: ابنُ جرير، والواحدي –ونسبه للأكثرينَ–، والسعديُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (463/16)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 728)، ((الوسيط)) للواحدي (259/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 533).

قال ابنُ جَرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ: قولُ مَن قال: «المُخلَّقة» المُصوَّرة خلقًا تامًّا، وغيرُ مُخلَّقة: السِّقْطُ قَبلَ تَمامِ خَلْقِه؛ لأنَّ المُخلَّقةَ وغيرَ المُخلَّقةِ مِن نعت المُضغةِ، والنُّطفةُ بعدَ مَصيرِها مُضغةً لم يَبقَ لها حالٌ –حتَّى تصيرَ خَلقًا سويًّا– إلَّا التصويرَ، وذلك هو المرادُ بقوله: مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ [الحج: 5]؛ خلقًا سويًّا، وغيرَ مُخلَّقة بأنْ تُلقيَه الأمُّ مُضغةً، ولا يُصَوَّرُ، ولا يُنفَخُ فيها الرُّوحُ).

((تفسير ابن جرير)) (463/16).

قال الواحديُّ: (ويدلُّ على صحَّة هذا التفسيرِ: ما رَوَى عَلْقمةُ، عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ: «إذا وقعتِ النُّطفةُ في الرَّحِمِ بعَث اللهُ عَزَّ وجَلَّ مَلَكًا، فقال: يا ربِّ، مُخلَّقةٌ أمْ غيرُ مُخلَّقةٍ؟ فإنْ قال: غيرُ مُخلَّقةٍ، مجَّتْها الأرحامُ، وإنْ قال: مُخلَّقةٌ، قال: يا ربِّ، ما صِفةُ هذه النُّطفةِ؟ أذَكَرٌ أمْ أُنثى؟ ما رِزقُها؟ ما أجَلُها؟ أشقيٌّ أم سعيدٌ؟»).

((البسيط)) (261/15).

قال الشِّنقيطيُّ: (هذا القولُ الذي اختارَه الإمامُ الجليلُ الطبريُّ رحمه الله تعالى، لا يَظهَر صوابُه، وفي نفْسِ الآيةِ الكريمةِ قرينةٌ تدُلُّ على ذلك، وهي قولُه جلَّ وعلا في أوَّلِ الآية: فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ [الحج: 5] ؛ لأنَّه على القولِ المذكورِ الذي اختاره الطبريُّ يصير المعنى: ثُم خلَقْناكم من مُضغةٍ مُخلَّقةٍ، وخلَقْناكم من مُضغةٍ غيرِ مُخلَّقة.

وخطابُ الناس بأنَّ الله خَلَق بعضَهم مِن مُضغةٍ غيرِ مُصوَّرةٍ، فيه مِن التناقُض كما ترَى؛ فافهَمْ.

فإنْ قيل: في نفسِ الآيةِ الكريمةِ قرينةٌ تدُلُّ على أنَّ المرادَ بغيرِ المخلَّقةِ: السِّقْطُ؛ لأنَّ قوله: وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى [الحج: 5] يُفهمُ منه أنَّ هناك قِسمًا آخرَ لا يُقِرُّه اللهُ في الأرحامِ إلى ذلك الأجلِ المسمَّى، وهو السِّقطُ؟ فالجوابُ: أنَّه لا يتعيَّنُ فَهْمُ السِّقْطِ مِن الآيةِ؛ لأنَّ اللهَ يُقِرُّ في الأرحام ما يشاءُ أنْ يُقِرَّه إلى أجلٍ مسمًّى؛ فقد يُقِرُّه سِتَّةَ أشهرٍ، وقد يُقِرُّه تِسعةً، وقد يُقِرُّه أكثرَ مِن ذلك كيفَ شاء.

أمَّا السِّقطُ: فقد دلَّتِ الآيةُ على أنَّه غيرُ مرادٍ، بدليلِ قوله: فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ؛ لأنَّ السِّقطَ الذي تُلقيه أمُّه ميِّتًا -ولو بعدَ التشكيلِ والتخطيطِ- لم يَخلُقِ اللهُ منه إنسانًا واحدًا مِن المخاطَبينَ بقوله: فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ الآيةَ؛ فظاهرُ القرآن يقتضي أنَّ كُلًّا مِن المخلَّقةِ وغيرِ المخلَّقةِ: يُخلَقُ منه بعضُ المخاطبين في قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ الآيةَ).

((أضواء البيان)) (4/267).

وقال الواحديُّ: (قال ابن الأعرابي: مُخَلَّقَةٍ قد بدَا خَلقُه، وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ بعدُ لم يُصوَّر...

وأمَّا أهلُ التفسيرِ: فإنَّ مُجاهدًا والسُّدِّيَّ اتَّفقا على أنَّ المخلَّقةَ وغيرَ المخلقةِ: يعني بهما السِّقطَ...

وذهب آخرون إلى أنَّ المخلَّقةَ في غيرِ السِّقطِ، وغيرَ المخلَّقة: هو السقطُ...

وعلى هذا القولِ معنى «المخلَّقة»: المخلوقةُ...

وفي هذا مذهبٌ ثالثٌ، وهو: أنَّ المُخلَّقةَ وغيرَ المُخلَّقة كِلاهما مِن صِفةِ الولدِ الذي يُولد، وليسَا ولا أحدُهما مِن صفةِ السِّقطِ، وهو مذهبُ قَتادةَ، واختيارُ أبي إسحاقَ وثعلبٍ).

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (15/259).

وقيل: المرادُ: يَخلُق المُضَغَ متفاوِتةً؛ منها ما هو كاملُ الخِلقةِ، أملَسُ مِن العيوبِ، ومنها ما هو على عكسِ ذلك، فيَتبعُ ذلك التفاوتَ تفاوتُ الناسِ في خَلْقِهم وصُوَرِهم، وطُولِهم وقِصَرِهم، وتَمامِهم ونُقصانِهم.

وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والشِّنقيطيُّ.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/144)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/268).

وقال الرازيُّ في بيانِ ترجيح هذا القولِ: (لأنَّه تعالى قال في أوَّلِ الآيةِ: فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ، وأشار إلى الناسِ؛ فيجبُ أنْ تُحمَلَ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ على مَن سيصيرُ إنسانًا، وذلك يَبعُدُ في السِّقطِ؛ لأنَّه قد يكون سِقطًا ولم يتكامَلْ فيه الخِلقةُ).

((تفسير الرازي)) (23/204).

واختاره محيي الدين زاده، وقال: (لأنَّه أوفَقُ لبناءِ التَّفعيلِ الدَّالِّ على تكثيرِ الخَلقِ؛ فإنَّ الإنسانَ ذو أعضاءٍ مُتباينةٍ، وقُوًى مُتفاوتةٍ، فإذا كَمَل فيه جميعُ ما يَتِمُّ به خِلقةُ النَّوعِ فقد كَثُرَ فيه الخَلقُ).

((حاشية زاده على البيضاوي)) (6/89).

وقال ابن عاشور: (فقوله تعالى: مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ صِفةُ مُضْغَةٍ، وذلك تطوُّرٌ من تطوُّرات المُضغةِ...؛ ولذلك لم يَذكر مِثلَ هذين الوصفين عند ذِكر النُّطفةِ والعَلَقةِ؛ إذ ليس لهما مِثلُ هذين الوصفين، بخلاف المُضغة.

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَدَّثنا رَسولُ اللهِ - ﷺ -، وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال: ((إنَّ أحدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك، ثم يَبعَثُ اللهُ ملَكًا فيُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقِيٌّ أو سَعيدٌ، ثم يُنفَخُ فيه الرُّوحُ)).[17]

وإذ قد جُعِلت المضغةُ مِن مبادِئ الخلقِ تعيَّن أنَّ كِلَا الوصفين لازِمان للمُضغةِ؛ فلا يستقيم تفسيرُ مَن فسَّر «غير المخلَّقة» بأنها التي لم يَكمُلْ خلقُها فسقَطتْ).

((تفسير ابن عاشور)) (17/198، 199).

اختُلِف في قوله تعالى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ على أقوال: الأول: المخلَّقة: ما خُلِق سويًّا.

وغير المخلَّقة: ما ألقته الأرحام من النُّطَف.

والثاني: تامة، وغير تامة.

والثالث: المضغة مصورة إنسانًا، وغير مصورة، فإذا صورت فهي مخلقة، وإذا لم تصور فهي غير مخلقة.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٤٦٣) مستندًا إلى الدلالة العقلية أنّ المراد بالمخلقة: المصورة خلقًا تامًّا.

وغير المخلقة: السِّقط قبل تمام خلقه.

وعلل ذلك بقوله: «لأنّ المُخَلَّقة وغير المخلقة مِن نعت المضغة، والنطفة بعد مصيرها مضغة لم يبق لها حتى تصير خلقًا سويًّا، إلا التصوير، وذلك هو المراد بقوله: ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ خلقًا سويًّا، وغير مخلقة بأن تلقيه الأم مضغة، ولا تصور، ولا ينفخ فيها الروح».

(17) رواه البخاري (3208) واللفظ له، ومسلم (2643).

لِنُبَيِّنَ لَكُمْ.

أي: لنُعَرِّفكم بابتداءِ خَلْقِكم، ونُظهِرَ لكم قُدرَتَنا.[18]

وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.

أي: ونُثبِتُ في أرحامِ الأمَّهاتِ ما نشاءُ إبقاءَه مِن الأجِنَّةِ إلى الوَقتِ الذي قدَّرْناه للوِلادةِ.[19]

---

(18) قيل: لِنُبَيِّنَ لَكُمْ متعلِّقٌ بجعلِ المضغةِ مخلَّقةً وغيرَ مخلَّقةٍ.

وذهب إليه ابنُ جريرٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/463).

وقيل: متعلِّقٌ بقولِه تعالى: خَلَقْنَاكُمْ في قولِه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ.

وممن قال بذلك: أبو حيان، وأبو السعود، والألوسي، واستَظْهره الشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (7/485)، ((تفسير أبي السعود)) (6/94)، ((تفسير الألوسي)) (9/112)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/269).

وقال ابن جزي: (لِنُبَيِّنَ لَكُمْ اللامُ تتعلَّقُ بمحذوفٍ تقديرُه: ذكَرْنا ذلك لنُبيِّنَ لكم قدرتَنا على البعثِ).

((تفسير ابن جزي)) (2/33).

ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (3/412).

وقال الواحدي: (قوله تعالى: لِنُبَيِّنَ لَكُمْ اختلَفوا في مفعولِ التَّبيينِ؛ فقال ابنُ عبَّاسٍ: لِنُبَيِّنَ لكم ما تأتُون وما تَذَرون.

يعني أنَّ اللهَ تعالى خلَق بني آدَمَ لِيُبَيِّنَ لهم ما يَحتاجون إليه في العبادةِ.

وقال الزَّجَّاجُ: أي: ذكَرْنا أحوالَ خَلقِ الإنسانِ لِنُبَيِّنَ لكم قُدرتَنا على ما نَشاءُ، ونُعرِّفَكم ابتداءَنا خَلقَكم.

وقال صاحبُ النظمِ [أبو عليٍّ الجُرْجانيُّ]: لِنُبَيِّنَ لكم أنَّ البعثَ حقٌّ، يدُلُّ على هذا أنَ الآيةَ أُنزلتْ دَلالةً على البعثِ.

وقال ابنُ مسلمٍ: لِنُبَيِّنَ لكم كيف نَخلُقُكم في الأرحامِ.

وقال أهلُ المعاني: لِنَدُلَّكم على مَقدورِنا بتصريفِ ضُروبِ الخَلقِ).

((البسيط)) (15/264).

(19) قال الشِّنقيطيُّ: (الأجِنَّةُ تختَلِفُ في ذلك حسبَما يشاؤه اللهُ جلَّ وعلا؛ فتارةً تَضعُه أمُّه لسِتَّةِ أشهُرٍ، وتارةً لتِسعةٍ، وتارةً لأكثرَ مِن ذلك.

وما لم يشأِ اللهُ إقرارَه مِن الحَملِ مَجَّته الأرحامُ وأسقطَتْه).

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا.

أي: ثمَّ نُخرِجُكم مِن بُطونِ أمَّهاتِكم -إذا بلَغْتُمُ الأجَلَ الذي قدَّرْناه لخُروجِكم منها- أطفالًا.[20]

ثُمَّ لِتَبْلُغوا أَشُدَّكُمْ.

أي: ثمَّ لِتَبلُغوا بالتَّدريجِ كَمالَ قُوَّتِكم وعُقولِكم.[21]

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [غافر: 67].

وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا.

((أضواء البيان)) (4/269).

(20) قال البِقاعيُّ: (ثُمَّ نُخرِجُكُم بعدَ ذلك طِفلًا أي: في حالِ الطُّفولةِ؛ مِن صِغَرِ الجُثَّةِ، وضَعْفِ البَدَنِ والسَّمعِ والبَصَرِ، وجميعِ الحواسِّ؛ لئلَّا تُهلِكوا أُمَّهاتِكم بكِبَرِ أجرامِكم، وعِظَمِ أجسامِكم).

((نظم الدرر)) (13/10).

(21) قال ابنُ عطيَّةَ: (اختلف الناسُ في «الأَشُدِّ» مِن ثمانيةَ عشَرَ إلى ثلاثين، إلى اثنين وثلاثين، إلى سِتَّة وثلاثين، إلى أربعين، إلى خمسةٍ وأربعين، واللفظةُ تُقال باشتراك، فأَشُدُّ الإنسان على العموم غيرُ أشدِّ اليتيمِ الذي هو الاحتلامُ، والأشدُّ في هذه الآية يَحتمِلُ المَعنيَين).

((تفسير ابن عطية)) (4/108).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (2/92).

وقال السمعاني: (الأكثرونَ على أنَّ الأَشُدَّ: ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً، وإليها تَنْتهي، يعني: قوَّةَ الشَّبابِ).

((تفسير السمعاني)) (3/20).

وقال ابن جزي: (لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ هو كمالُ القوَّةِ والعقلِ والتمييزِ، وقد اختُلِف فيه مِن ثماني عشْرةَ سنةً إلى خمسٍ وأربعينَ).

((تفسير ابن جزي)) (2/33).

ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (4/689).

أي: ومِنكم –أيُّها النَّاسُ– مَن يموتُ قَبلَ أن يبلُغَ أشُدَّه، ومنكم مَن يُؤخَّرُ مَوتُه إلى أن يَبلُغَ أخَسَّ العُمُرِ وأدْوَنَه، فيَصيرُ ضَعيفًا في بَدَنِه وعَقْلِه، لا علمَ له ولا فهمَ، بعد أن كان قَوِيًّا ذا فَهمٍ وعِلمٍ بالأشياءِ!

كما قال تعالى: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ [النحل: 70].

وقال سُبحانَه: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ [الروم: 54].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ [يس: 68].

ثُمَّ ذكَر برهانًا قاطعًا آخرَ على البعثِ، فقال:

وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ.

أي: وترى[22] الأرضَ يابِسةً قاحِلةً ساكِنةً سُكونَ الأمواتِ، لا نباتَ فيها ولا زَرْعَ، فإذا أنزَلْنا عليها الماءَ[23] تحرَّكَتْ بالنَّباتِ،[24] وارتفَعَت وانتفَخَت.[25]

---

(22) قال الشنقيطي: (قولُه: وَتَرَى أي: يا نبيَّ اللهِ.
وقيل: وترى أيُّها الإنسانُ المُخاطَبُ، وهي رؤيةٌ بصَريَّةٌ تتعَدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ).
((أضواء البيان)) (278/4).
ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (202/17).
(23) قيل: المراد به: المطَرُ من السَّماءِ.
قاله ابن جرير.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (466/16).
وقيل: أعَمُّ من ذلك، سواءٌ كان مِن المطَرِ، أو الأنهارِ، أو العيونِ، أو السَّواني.
وممن اختاره: أبو حيان، والشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (487/7)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (278/4).
(24) قال الواحدي: (قال المفَسِّـــرون: تحرَّكت بالنَّباتِ، والمعنى على هذا: تحَرَّكَت بالنَّباتِ عند وُقوعِ الماءِ؛ وذلك أنَّ الأرضَ ترتفِعُ عن النَّباتِ إذا ظهَر، فذلك تحرُّكها، وهو معنى قولِه: وَرَبَتْ، أي: ارتَفَعت وزادت).
((البسيط)) (273/15).
وقال أبو حيان: (واهتزازُها: تخلخلُها، واضطرابُ بعضِ أجسامِها؛ لأجلِ خروجِ النباتِ).
((تفسير أبي حيان)) (487/7).
وقال القرطبي: (فالأرضُ تهتزُّ بالنباتِ؛ لأنَّ النباتَ لا يخرجُ منها حتَّى يزيلَ بعضَها مِن بعضٍ إزالةً خفيَّةً).
((تفسير القرطبي)) (13/12).
وقال السَّـــمعاني: (وقيلَ: في الآيةِ تَقديمٌ وتأخيرٌ، ومعناه: وربَت واهتَزَّت، ويقالُ: اهْتَزَّتْ أي: النَّباتُ، وَرَبَتْ أي: ارتَفَع، وإنَّما أنَّث؛ لذِكْرِ الأرضِ).
((تفسير السمعاني)) (422/3).
وقال الشِّنقيطي: (اهْتَزَّتْ أي: تحرَّكت بالنباتِ.
ولَمَّا كان النباتُ نابتًا فيها، متَّصلًا بها، كان اهتزازُه كأنَّه اهتزازُها؛ فأُطلِق عليها بهذا الاعتبارِ أنَّها اهتزَّت بالنبات.
وهذا أسلوبٌ عربيٌّ معروف).
((أضواء البيان)) (278/4).

كما قال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [فصلت: 39].

وقال سُبحانه: وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ [ق: 9-11].

وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.

أي: وأخرجَت الأرضُ بذلك الماءِ مِن كُلِّ صِنفٍ حَسَنٍ يَسُرُّ النَّاظرينَ مِن أصنافِ النَّباتاتِ والزُّروعِ والثِّمارِ.

كما قال تعالى: وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا [النمل: 60].

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6).

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ.

---

(25) قال ابن عاشور: (ورَبَت: حصَل لها رُبُوٌّ -بضمِّ الراء، وضمِّ الموحَّدةِ- وهو ازديادُ الشيء؛ يُقال: رَبَا يَربُو رُبُوًّا، وفُسِّر هنا بانتفاخِ الأرض مِن تفتُّقِ النبتِ والشجرِ).

((تفسير ابن عاشور)) (203/17).

واستظهَر الشنقيطيُّ أنَّ معنى الزيادةِ الحاصلةِ في الأرضِ، هي أنَّ النباتَ لَمَّا كان نابتًا فيها متَّصلًا بها صارَ كأنَّه زيادةٌ حصَلتْ في نفْسِ الأرضِ.

يُنظر: ((أضواء البيان)) (278/4، 279).

أي: ذلك الذي ذكَرْنا لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن أطوارِ خَلْقِكم، وإحياءِ الأرضِ بالماءِ بعدَ موتِها؛ لِتعلَموا بأنَّ الذي قدَرَ على فِعلِ ذلك هو الحقُّ الذي لا شَكَّ فيه، الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ وَحْدَه؛ فعِبادتُه حَقٌّ، وعِبادةُ ما سِواهُ باطِلةٌ.

وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى.

أي: ولِتَعلَموا بأنَّ الذي قَدَرَ على تلك الأشياءِ العَجيبةِ قادِرٌ على إحياءِ الموتَى.

وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: وأنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قادِرٌ لا يُعجِزُه شَيءٌ مِنَ البَعثِ وغَيرِه.

وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7).

وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا.

أي: ولِتُوقنوا بأنَّ القيامةَ قادِمةٌ، لا شَكَّ ولا اشتِباهَ في وقوعِها.

وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

أي: وأنَّ اللهَ يُحيي الموتى مِن قُبورِهم، فيُخرِجُهم إلى مَوقِفِ الحِسابِ؛ لِيُجازِيَهم بأعمالِهم؛ خَيرِها، وشَرِّها.

سورةُ الحَجّ

الآيات (8–10)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (10)

غريب الكلمات:

ثَانِيَ عِطْفِهِ: أي: لاوِيًا عُنُقَه تَكَبُّرًا، والثَّنْيُ: لَيُّ الشَّيءِ، والعِطْفُ: الجانِبُ، وعِطْفا الرَّجُلِ: جانِباه عن يَمينٍ وشِمالٍ مِنْ لَدُنْ رأسِه إلى وَرِكِه، وهو المَوضِعُ الذي يَعطِفُه الإنسانُ، أي: يَلويه ويُميلُه عندَ الإعراضِ عن الشَّيءِ.

خِزْيٌ: أي: هوانٌ، وهلاكٌ، وأصلُ الخِزيِ: الإبعادُ.

تفسير الآيات:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يُجادِلُ رُسُلَ اللهِ وأتباعَهم في شأنِ اللهِ وتوحيدِه وقدرتِه بجَهلٍ، مِن غَيرِ عِلمٍ[26] صَحيحٍ.

---

(26) قيل: المرادُ بالعِلمِ هنا: العِلمُ الضَّروريُّ الحاصِلُ بدونِ نظَرٍ واستِدلالٍ.

وممَّن قال بذلك: الزمخشري، والرازي، والنسفي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (146/3)، ((تفسير الرازي)) (207/23)، ((تفسير النسفي)) (429/2)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (280/4).

وقال الشوكاني: (قيل: والمرادُ بالعلمِ هو العلمُ الضَّروريُّ...

والأَولى حمْلُ العِلمِ على العُمومِ).

((تفسير الشوكاني)) (519/3).

وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ.

أي: ويُجادِلُ في اللهِ بمُجَرَّدِ رأيِه وهواهُ، بغيرِ دَلالةٍ صَحيحةٍ يَهتَدي بها للصَّوابِ، ولا كِتابٍ إلهيٍّ نيِّرٍ[27] بيِّنِ الحُجَّةِ يُنيرُ عن حُجَّتِه ورأيِه، وإنَّما يقولُ ما يقولُ مِنَ الجهلِ بمجرَّدِ ظُنونِه.[28]

ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9).

---

(27) قال ابنُ تيمية: (قَولُه: وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ؛ فيعُمُّ كُلَّ كتابٍ مُنيرٍ، ولو لم يكُنْ إلَّا الإنجيلُ لقيل: ولا الكتابِ المنيرِ).

((الجواب الصحيح)) (2/350).

ممن اختار أنَّ المرادَ بالكتابِ المنيرِ: الوحيُ: النسفي، وأبو السعود، والألوسي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير النسفي)) (2/29)، ((تفسير أبي السعود)) (6/96)، ((تفسير الألوسي)) (9/117)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/280).

وقيل: المرادُ بالكتابِ المنيرِ هنا: القرآنُ.

وممن قال بذلك: الشوكاني.

يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (3/519).

(28) قال ابنُ تَيميَّة: (وهذا -والله أعلمُ- مِن بابِ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ، أو الانتقالِ مِن الأدنَى إلى الأعلَى).

((مجموع الفتاوى)) (15/267، 268).

وممَّن جعَل الهُدى بمعنى الاستِدلالِ والنظرِ والحُجةِ العقليةِ الصَّحيحةِ: ابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (5/399)، ((تفسير السعدي)) (ص: 534)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/280).

وقال الشوكانيُّ: (قيل: والمرادُ...

بالهدى هو العلمُ النَّظريُّ الاستدلاليُّ.

والأَوْلَى...

حَمْلُ الهدَى على معناه اللغويِّ، وهو الإرشادُ).

((تفسير الشوكاني)) (3/519).

أي: يجادِلُ بالباطِلِ لاوِيًا جانِبَه وعُنُقَه؛ إعراضًا وتكبُّرًا عن قَبولِ الحَقّ، واحتِقارًا لِداعيه؛ لِيَصُدَّ[29] عن دينِ اللهِ وشرعِه.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ [غافر: 56].

---

(29) قيل: اللامُ هنا للعاقبةِ.

وممن قال بذلك: ابنُ الجوزي، والرسعني، والقرطبي، والألوسي.

يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: 243)، ((تفسير الرسعني)) (16/5)، ((تفسير القرطبي)) (16/12)، ((تفسير الألوسي)) (117/9).

وقيل: اللامُ هنا للتعليلِ.

وممن قال بذلك: الزمخشري، وابن عاشور، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (146/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (208/17)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (281/4).

قال الشنقيطي: (والمفسِّرُونَ يقولونَ: إنَّ اللَّامَ في قولِه: لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ونحوِها مِنَ الآياتِ مِمَّا لم تَظْهَرْ فيه العِلَّةُ الغائِيَّةُ، كقولِه: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا.

ونحوِ ذلك – لامُ العاقِبَةِ...

ونقول هنا: إنَّ الظاهر في ذلك أنَّ الصوابَ فيه غير ما ذَكروا، وأنَّ اللام في الجميع لامُ التعليل، والمعنى واضحٌ لا إشكالَ فيه، كما نبَّه عليه الحافظُ ابنُ كثير رحمه الله في مواضعَ مِن تفسيره.

وإيضاح ذلك: أنَّ الله هو الذي قدَّر على الكافرِ في أزلِه أن يُجادِلَ في الله بغيرِ عِلمٍ في حال كونه لاويَ عُنُقِه؛ إعراضًا عن الحق، واستكبارًا.

وقد قدَّر عليه ذلك ليَجعلَه ضالًّا مُضِلًّا، وله الحِكمةُ البالغة في ذلك).

((أضواء البيان)) (281/4).

وقال ابن عاشور: (واللَّامُ في قولِه: لِيُضِلَّ لتعليلِ المجادَلةِ، فهو متعَلِّقٌ بـ يُجَادِلُ؛ أي: غَرَضُه مِن المجادَلةِ الإضلالُ).

((تفسير ابن عاشور)) (208/17).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: لِيُضِلَّ قراءتانِ:

1- قِراءةُ لِيَضِلَّ بفَتحِ الياءِ، أي: لِيَضِلَّ هو.[30]

2- قراءةُ لِيُضِلَّ بضم الياءِ، أي: لِيُضِلَّ غيرَه.[31]

لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ.

أي: لذلك المُجادِلِ في اللهِ بالباطِلِ ذُلٌّ ومَهانةٌ في الدُّنيا.[32]

---

(30) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، واختُلف عن رُوَيْس في القراءة بها.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/299).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 472).

(31) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/299).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 473).

(32) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/471)، ((تفسير ابن كثير)) (5/399)، ((تفسير السعدي)) (ص: 534)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/281).
قال ابنُ جرير: (لهذا المجادلِ في الله بغيرِ عِلمٍ في الدُّنيا خِزيٌ، وهو القَتلُ والذُّلُّ والمهانةُ بأيدي المؤمنين، فقتَلَه الله بأيديهم يومَ بَدرٍ).
((تفسير ابن جرير)) (16/471).
وممَّن قال بنحو ذلك: ابنُ عاشور، فقال: (خِزيُ الدُّنيا: الإهانةُ، وهو ما أصابهم مِنَ القَتلِ يَومَ بَدرٍ، ومِنَ القَتلِ والأَسرِ بعد ذلك، وهؤلاء هم الذين لم يُسلِموا بعدُ.
ويَنطبقُ الخزيُ على ما حصَلَ لأبي جَهلٍ يومَ بدْر؛ مِن قتْلِه بيدِ غُلامينِ مِن شبابِ الأنصارِ، وهما ابنا عَفْراءَ.
وباعتلاءِ عبدِ الله بن مسعودٍ على صَدْره وذَبْحِه، وكان في عظَمتِه لا يَخطُرُ أمثالُ هؤلاء الثلاثةِ بخاطرِه.
ويَنطبقُ الخزيُ أيضًا على ما حلَّ بالنضرِ بنِ الحارثِ؛ مِن الأَسرِ يومَ بدْرٍ، وقتْلِه صبرًا...

وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ.

أي: ونُذيقُه يومَ القِيامةِ ألَمَ عَذابِ النَّارِ المُحرِقةِ.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (10).

وإذ كانتْ هذه الآيةُ ونظيرتُها التي سبَقتْ ممَّا نزَل بمكَّةَ لا محالةَ، كان قولُه تعالى: لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ مِنَ الإخبارِ بالغَيبِ، وهو مِن مُعجزاتِ القرآنِ.

((تفسير ابن عاشور)) (209/17).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالخِزيِ هو القتلُ ببَدرٍ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، ومكِّيٌّ، والسمعانيُّ، والبغوي، والبيضاوي، والنسفي، والخازن.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (117/3)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (4850/7)، ((تفسير السمعاني)) (423/3)، ((تفسير البغوي)) (326/3)، ((تفسير البيضاوي)) (66/4)، ((تفسير النسفي)) (430/2)، ((تفسير الخازن)) (249/3).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ جُريج.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (471/16).

وذَكَرَ الماتُريدي أنَّ عامَّةَ أهلِ التَّأويلِ يَصرِفونَ الآيةَ إلى النَّضرِ بنِ الحارِثِ.

يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (394/7).

وقيل: المرادُ بالخِزيِ ما يصيبُه مِن هوانٍ وذُلٍّ بما يجري له مِن الذِّكرِ القَبيحِ على ألسنةِ المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ، كما في قَولِه تعالى: وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ [القلم: 10] الآيةَ، وقَولِه: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ [المسد: 1].

قاله القرطبي.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (16/12).

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ.

أي: يُقالُ له حينَ يذوقُ عَذابَ النَّارِ يَومَ القيامةِ: هذا العَذابُ الواقِعُ بك[33] بسَبَبِ ما قَدَّمَتْه يداك في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي.

وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

أي: وفعَلْنا ذلك؛ لأنَّ اللهَ ليس بِذِي ظُلمٍ للعِبادِ، فلم يكُنْ لِيُعَذِّبَهم بغيرِ ذَنبٍ اقتَرَفوه.[34]

---

(33) قيل: الإشارةُ في قولِه تعالى: ذَلِكَ إلى: عذابِ النَّارِ المُشارِ إليه في قَولِه: وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ.

وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقندي، والقرطبي، وابنُ عاشور، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (471/16)، ((تفسير السمرقندي)) (450/2)، ((تفسير القرطبي)) (16/12)، ((تفسير ابن عاشور)) (210/17)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (282/4).

وقيل: الإشارةُ إلى العذابِ الدُّنيويِّ والأُخرويِّ في قولِه تعالى: لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ.

وممن قال بذلك: النسفي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير النسفي)) (430/2)، ((تفسير الشوكاني)) (520/3).

(34) قال الشِّنقيطيُّ: (المعنى: هذا العذابُ الذي يُذيقُكه اللهُ حصَل لك بسببينِ؛ وهما: ما قدَّمَتْه يداك من عمَلِ السوءِ مِن الكفرِ والمعاصي، وعدالةُ مَن جازاك ذلك الجزاءَ الوِفاقَ وعَدَمُ ظُلمِه).

((أضواء البيان)) (282/4).

وقال البِقاعي: (لَيْسَ بِظَلَّامٍ أي: بذِي ظُلمٍ ما لِلْعَبِيدِ، ولو ترَكَكم بغيرِ ذلك لكان في مجاري عاداتِكم ظُلمًا؛ أوَّلًا: بتسويةِ المُحسِنِ بالمُسيءِ.

وثانيًا: بتَركِ الانتصارِ للذين عادَوك فيه، وأذيَّتِهم مِن أجْلِه).

((نظم الدرر)) (16/13).

سورةُ الحَجِّ

الآيات (11–13)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ
عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ
الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13)

غريب الكلمات:

عَلَى حَرْفٍ: أي: على شَكٍّ، والحَرفُ: الطَّرَفُ والجانِبُ، نحو حَرفِ الجبلِ الذي عليه القائمُ غيرُ مستقرٍّ، وأصلُ (حرف): يدلُّ على حَدِّ الشَّيءِ.

فِتْنَةٌ: أي: ابتلاءٌ واختبارٌ بمكروهٍ يُصيبُه في أهلِه أو مالِه أو نفْسِه، وأصْلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتِلاءٍ.

انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ: أي: ارتَدَّ ورجَعَ عن دينِه إلى الكُفرِ، ويُطلَقُ الانقِلابُ كثيرًا على الانصرافِ مِنَ الجِهةِ التي أتاها إلى الجِهةِ التي جاء منها، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ.

الْمَوْلَى: أي: الوَليُّ النَّاصِرُ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ.

الْعَشِيرُ: أي: الصَّاحِبُ المُخالِطُ، وأصلُ (عشر): يدُلُّ على مُداخَلةٍ ومُخالَطةٍ.

تفسير الآيات:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ.

سَبَبُ النُّزولِ:

عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه قال في قَولِه تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ: (كان الرَّجُلُ يَقدَمُ المدينةَ، فإنْ وَلَدَت امرأتُه غُلامًا، ونُتِجَت[35] خَيلُه، قال: هذا دِينٌ صالِحٌ. وإنْ لم تَلِدِ امرأتُه، ولم تُنتَجْ خَيلُه، قال: هذا دينُ سَوْءٍ!).[36]

---

(35) نُتِجَت: أي وَضَعت وولَدَت.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (12/5)، ((شرح القسطلاني)) (246/7).

(36) رواه البخاري (4742).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ.

أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يَعبُدُ اللهَ على شكٍّ؛[37] فلم يَدخُلِ الإيمانُ قَلْبَه على نحوٍ يَقينيٍّ، بل هو في شَكٍّ وقَلَقٍ وتردُّدٍ في دينِ اللهِ.[38]

فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ.

أي: فإنْ أصابَه خَيرٌ -كصِحَّةٍ، ورَخاءِ مَعيشةٍ، ورِزقٍ هَنيءٍ- ولم يقَعْ له مِنَ المكارِهِ شَيءٌ؛ رَضِيَ عن الإسلامِ، واستقَرَّ وثَبَتَ على عبادةِ اللهِ!

---

(37) قال الواحدي: (قوله: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ أكثَرُ المفَسِّرين قالوا: على شَكٍّ وضَلالةٍ، وأصلُه مِن حَرْفِ الشَّيءِ: وهو طَرَفُه، نحوُ حَرفِ الجَبَلِ والدُّكَّانِ والحائطِ، الذي عليه القائِمُ غيرُ مُستَقِرٍّ؛ فالذي يَعبدُ اللهَ على حَرفٍ قَلِقٌ في دينِه، على غيرِ ثَباتٍ وطُمأنينةٍ، كالذي هو على حَرْفِ الجَبَلِ ونَحوِه؛ يَضطَرِبُ اضطِرابًا، ويَضعُفُ قيامُه، فهو يَعرِضُ أن يَقَعَ في أحدِ جانِبَيِ الطَّرَفِ، فقيل للشَّاكِّ في دينِه: إنَّه يَعبُدُ اللهَ على حَرفٍ؛ لأنَّه ليس على يَقينٍ في وَعدِه ووعيدِه، بخِلافِ المؤمِنِ؛ لأنَّه عبَدَه على يقينٍ وبَصيرةٍ، ولم يكُنْ على حَرفٍ يَسقُطُ عنه بأدنى شَيءٍ يُصيبُه).

((الوسيط)) للواحدي (3/261).

وقال الشوكاني: (وقيلَ: الحرفُ: الشَّرطُ، أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ على شرطٍ، والشَّرطُ هو قولُه: فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ أي: خيرٌ دُنيويٌّ مِن رخاءٍ وعافيةٍ وخِصْبٍ وكثرةِ مالٍ).

((تفسير الشوكاني)) (3/520).

(38) وقال ابن عاشور: (هذا وصفُ فريقٍ يَضَعون أنفسَهم في مَعرِضِ الموازنةِ بين دِينِهم القديمِ ودِينِ الإسلامِ؛ فهُم يَقبلون دعوةَ الإسلامِ ويَدخُلون في عِداد متَّبعيه، ويرقُبون ما يَنتابُهم بعدَ الدخولِ في الإسلامِ؛ فإنْ أصابهُمُ الخيرُ عَقِبَ ذلك علِموا أنَّ دِينَهم القديمَ ليس بحقٍّ، وأنَّ آلهتهم لا تقدِرُ على شيءٍ؛ لأنَّها لو قدرَتْ لانتقمتْ منهم على نبْذِ عِبادتِها، وظنُّوا أنَّ الإسلامَ حقٌّ، وإنْ أصابهم شرٌّ مِن شرورِ الدُّنيا العارضةِ في الحياةِ، المسبَّبةِ عن أسبابٍ عاديَّةٍ، سَخِطوا على الإسلامِ، وانخلعوا عنه، وتوهَّموا أنَّ آلهتَهم أصابتْهم بسوءٍ؛ غضبًا مِن مفارقتِهم عِبادتَها!).

((تفسير ابن عاشور)) (17/210، 211).

وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ.

أي: وإن أصابَتْه مِحنةٌ وإنْ قَلَّتْ -كبَلاءٍ في بَدَنِه أو أهلِه، أو ضيقٍ في مَعيشَتِه- ارتدَّ فرَجَع إلى الوجهِ الَّذي كانَ عليه مِن الكفرِ![39]

كما قال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ [العنكبوت: 10-11].

---

(39) فسَّر كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ قَولَه تعالى: انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ بمعنى: رجَعَ إلى ما كان عليه مِنَ الكُفرِ باللهِ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والبغوي، والقرطبي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/472)، ((تفسير البغوي)) (3/326)، ((تفسير القرطبي)) (12/18)، ((تفسير السعدي)) (ص: 534).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلف: مُجاهد، والضحَّاك، وابنُ زيد.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/473).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (المُهتدون لَمَّا كانوا على هُدًى مِن ربِّهم، ونُورٍ وبيِّنةٍ وبصيرةٍ، صار مكانةً لهم استقرُّوا عليها، وقد تُحيط بهم، بخِلافِ الذين قال فيهم: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ [الحج: 11]؛ فإنَّ هذا ليس ثابتًا مستقِرًّا مطمئنًّا، بل هو كالواقفِ على حَرْفِ الوادي، وهو جانبُه؛ فقد يطمئنُّ إذا أصابه خيرٌ، وقد ينقلِبُ على وجهِه ساقطًا في الوادي).

((مجموع الفتاوى)) (15/63، 64).

وقال البِقاعي: (انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ لِتَهيُّئِه للانقلابِ، بكَونِه على شَفَا جُرُفٍ، فسقط عن ذلك الطَّرَفِ مِن الدِّينِ سُقوطًا لا رجوعَ له بعدُ إليه، ولا حركةَ له معه؛ فإنَّ الإنسانَ مَطبوعٌ على المُدافعةِ بكُلِّ عُضوٍ مِن أعضائِه عن وَجهِه، فلا يُمكِّنُ منه إلَّا بعدَ نهايةِ العَجْزِ، والمعنى: أنَّه رجَع إلى الوَجهِ الذي كان عليه مِن الكُفرِ أو الشَّكِّ رُجوعًا مُتمكِّنًا، وهذا بخِلافِ الرَّاسِخِ في إيمانِه).

((نظم الدرر)) (13/17).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ أعرابيًّا بايَعَ رَسولَ اللهِ - ﷺ - على الإسلامِ، فأصاب الأعرابيَّ وَعْكٌ[40] بالمدينةِ، فأتى الأعرابيُّ إلى رَسولِ اللهِ - ﷺ -، فقال: يا رَسولَ اللهِ، أقِلْني بَيعَتي، فأبى رسولُ اللهِ - ﷺ -، ثمَّ جاءَه، فقال: أقِلْني بَيعَتي،[41] فأبى، ثمَّ جاءَه فقال: أقِلْني بيعَتي، فأبى، فخرجَ الأعرابيُّ، فقال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: إنَّما المدينةُ كالكِيرِ؛ تَنفي خَبَثَها، ويَنصَعُ طَيِّبُها))[42].[43]

خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.

أي: خَسِرَ هذا المُنقَلِبُ على وَجهِه خيرَ دُنياه، فلم يَظفَرْ بحاجَتِه منها، وحُرِمَ الطُّمَأنينةَ وثَناءَ المُسلِمينَ ومُوالاتَهم، وخَسِرَ خَيرَ آخِرتِه بدُخولِ النارِ، والحِرمانِ مِن الجَنَّةِ!

ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

أي: خَسارتُه لِدُنياه وأُخراه هي الخَسارةُ العَظيمةُ البَيِّنةُ التي لا تَخفَى.

---

(40) وعْكٌ: أي: الحُمَّى، أو ألَمُها.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (207/5).

(41) أقِلْني بَيعتي: أي: أقِلْني ما بايعتُك عليه مِنَ البقاءِ بالمدينةِ؛ مِن الإقالةِ: وهي تَركُ العَقدِ وإبطالُه.

يُنظر: ((المُعْلِم بفوائد مسلم)) للمازَري (121/2)، ((فتح الباري)) لابن حجر (80/1).

(42) يَنصَعُ طَيِّبُها: أي: يصفو ويَخلُصُ ويتمَيَّزُ.

(طَيِّبُها) بفَتحِ الطاءِ وكسرِ الياءِ المشَدَّدةِ، على الروايةِ الصَّحيحةِ، ويُروى بكسر الطاءِ وضَمِّ الباءِ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (156/9)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (1881/5).

(43) رواه البخاري (7211) واللفظ له، ومسلم (1383).

يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12).

يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ.

أي: يدعو ذلك المرتَدُّ عن دينِ اللهِ آلِهةً سوى الله لا تضُرُّه ولا تَنفَعُه بذاتِها مُطلَقًا بأيِّ وَجهٍ مِن وُجوهِ الضُّرِّ أو النَّفعِ.

ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ.

أي: دُعاءُ غيرِ اللهِ هو الذَّهابُ البَعيدُ عن الحَقِّ.

يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13).

يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ.

أي: يَدعو المُشرِكُ مخلوقًا ضَرَرُ عبادتِه أقرَبُ إليه مِن نفعِها.

لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ.

أي: لَبِئسَ النَّاصِرُ هذا المعبودُ مِن دُونِ اللهِ! ولَبِئسَ المُعاشِرُ والمصاحِبُ هو؛ فإنَّه لا يَنصُرُ عابِدَه، ولا يجلِبُ له خيرًا ولا نَفعًا![44]

---

(44) وممَّن ذهَب إلى أنَّ المراد: المعبودُ مِن دونِ الله: القرطبيُّ، وابنُ كثير، والسِّعدي، وابن عاشور، والشِّنقيطي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (477/16).

قال السعديُّ: (فإنَّ المقصودَ من المولى والعشيرِ حصولُ النفع، ودفْعُ الضرر؛ فإذا لم يَحصُلْ شيء من هذا، فإنه مذمومٌ ملومٌ).

((تفسير السعدي)) (ص: 534).

وممَّن قال بنحو هذا القول مِن السَّلف: ابنُ زيد.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (477/16).

وقال ابن جرير: (وقولُه: لَبِئْسَ الْمَوْلَى يقولُ: لبئسَ ابنُ العمِّ هذا الَّذي يعبدُ اللَّه على حَرْفٍ.

وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ يقولُ: ولبئسَ الخليطُ المُعاشِرُ، والصَّاحِبُ هو).

((تفسير ابن جرير)) (477/16).

وقال الرازي: (واعلَمْ أنَّ هذا الوَصفَ بالرُّؤساءِ أليَقُ؛ لأنَّ ذلك لا يكادُ يُستعمَلُ في الأوثانِ؛ فبَيَّن تعالى أنَّهم يَعدِلونَ عن عبادةِ الله تعالى الذي يَجمَعُ خَيرَ الدُّنيا والآخرةِ إلى عبادةِ الأصنامِ وإلى طاعةِ الرُّؤساءِ، ثمَّ ذَمَّ الرُّؤساءَ بقَوله: لَبِئْسَ الْمَوْلَى والمرادُ: ذَمُّ مَن انتصَرَ بهم، والتجأَ إليهم).

((تفسير الرازي)) (209/23).

سورةُ الحَجِّ

الآيات (14–17)

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (14) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17)

غريب الكلمات:

بِسَبَبٍ: أي: بحَبلٍ، وأصلُ (سبب): يدُلُّ على طولٍ وامتِدادٍ.

وَالصَّابِئِينَ: جَمْعُ صابئٍ، ويُقالُ لكلِّ خارجٍ مِن دِينٍ إلى دينٍ آخرَ، والصابئونَ فِرقٌ؛ منها: الصابئةُ الحُنفاءُ، ومنها صابئةٌ مشركونَ، ومنها صابئةٌ فلاسفةٌ، إلى غيرِ ذلك، وأصلُ (صبأ): يدُلُّ على خروجٍ وبُروزٍ، يُقالُ: صبأَتِ النُّجُومُ؛ إذا خرَجتْ مِن مطالعِها.

وَالْمَجُوسَ: هم أهلُ دينٍ يُثبِتُ إلهَينِ: إلهًا للخَيرِ، وإلهًا للشَّرِّ، وهم أهلُ فارسَ.

تفسير الآيات:

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (14).

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

أي: إنَّ اللهَ يُدخِلُ يومَ القيامةِ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ- جَناتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها وقُصورِها.

إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ.

أي: إنَّ اللهَ يَفعَلُ كُلَّ ما يُريدُ فِعلَه مِن نَفعٍ أو ضُرٍّ دونَ مُمانِعٍ، ويَحكُمُ في خَلقِه في الدُّنيا والآخرةِ بما يَشاءُ، ومِن ذلك إيصالُ أهلِ الجَنَّةِ إليها.

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15).

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ.

أي: مَن كان يَظُنُّ[45] أنَّ اللهَ ليس بناصرٍ رَسولَه مُحَمَّدًا – ﷺ –[46] في الدُّنيا والآخرةِ، فلْيُعَلِّقْ حَبلًا في سقفِ بيتِه، ويَشُدَّه في عُنُقِه.[47]

---

(45) قيل: المرادُ: الكافرُ الحاسدُ.

وممن قال بذلك: الشنقيطي.

يُنظر: ((أضواء البيان)) (287/4).

وقيل: المرادُ مَن يعبدُ الله على حَرفٍ.

وممن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عطية.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (483/16، 484)، ((تفسير ابن عطية)) (111/4).

(46) وممن قال بأنَّ الضـميرَ في قولِه تعالى: يَنْصُـرَهُ عائدٌ إلى محمَّدٍ عليه الصَّـلاةُ والسَّـلام: ابنُ جرير، وابنُ عطيةَ، والسـعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (483/16، 484)، ((تفسير ابن عطية (111/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 535)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (287/4).

قال الواحدي: (أكثرُ أهلِ التفسيرِ على أنَّ الهاءَ في يَنْصُرَهُ كنايةٌ عن محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم).

((البسيط)) (307/15).

وذكر القولَ الثاني، فقال أيضًا: (ومذهبُ مجاهدٍ والضحَّاكِ: أنَّ الهاءَ كنايةٌ عن مَنْ في قولِه مَنْ كَانَ).

((البسيط)) (314/15).

وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جُزي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (35/2)، ((تفسير ابن عاشور)) (219/17).

قال ابنُ جزي: (القولُ الثَّاني: أنَّ الضَّميرَ في يَنْصُرَهُ عائدٌ على مَنْ، والمعنى على هذا: مَن ظنَّ بسَبَبِ ضِيقِ صَدرِه وكَثرةِ غَمِّه أنْ لن يَنصُـرَه اللهُ، فلْيَختنِقْ ولْيَمُتْ بغَيظِه؛ فإنَّه لا يَقدِرُ على غيرِ ذلك، فمُوجبُ الاختناقِ على هذا القُنوطُ والسَّـخَطُ من القَضاءِ، وسوءُ الظَّنِّ باللهِ حتى ييأسَ مِن نَصْرِه؛ ولذلك فَسَّر بعضُهم أنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ بمعنى: أنْ لن يرزُقَه.

وهذا القولُ أرجَحُ مِن الأوَّلِ؛ لِوَجهَينِ: أحدُهما: أنَّ هذا القولَ مُناسِبٌ لِـ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ؛ لأنَّه إذا أصابَتْه فِتنةٌ انقلَبَ وقَنِطَ، حتى ظَنَّ أنَّ اللهَ لن يَنصُـرَه، فيكونُ هذا الكلامُ مُتَّصِـلًا بما قَبْلَه، ويدُلُّ على ذلك قولُه قبلَ هذه الآيةِ: إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، أي: الأمورُ بيَدِ اللهِ؛ فلا ينبغي لأحَدٍ أن يتسخَّطَ من قَضاءِ اللهِ، ولا ينقلِبَ إذا أصابَتْه فِتنةٌ.

والوَجهُ الثَّاني: أنَّ الضَّميرَ في يَنْصُرَهُ على هذا القَولِ يعودُ على ما تقدَّمَه، وأمَّا على القَولِ الأوَّلِ فلا يعودُ على مذكورٍ قَبْلَه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يُذكَرْ قبلَ ذلك بحيثُ يعودُ الضَّميرُ عليه، ولا يدُلُّ سِياقُ الكلامِ عليه دَلالةً ظاهِرةً).

((تفسير ابن جزي)) (35/2).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى تفسيرِ النصرِ بالرزقِ.

وضعَّفه ابنُ القيم، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (483/16، 484)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (695/2)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (288/4).

وقال ابنُ عطية: (أَبْيَنُ وجوهِ هذه الآيةِ أن تكونَ مثلًا، ويكونَ «النصرُ» المعروفَ، و«القطعُ»: الاختناقَ، و«السماءُ»: الارتفاعَ في الهواءِ بسقفٍ أو شجرةٍ ونحوه، فتأمَّلْه).

((تفسير ابن عطية)) (112/4).

اختُلِف في عود الضمير في قوله: ﴿أن لن ينصره الله﴾؛ فقال قوم: عني به: النبي – ﷺ –.

وقال آخرون: هو عائد على ﴿مَن﴾.

واختُلِف في معنى النصر؛ فقال قوم: الغلبة.

وقال آخرون: الرزق.

واختُلف في المراد بالسماء؛ فقال قوم: سقف البيت ونحوه.

وقال آخرون: السماء المعروفة، والمراد: فليمدد بحبل إليها فليقطع عن محمد ما يأتيه منها من الوحي.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٤٨٣ – ٤٨٤) مستندًا إلى السياق القولَ بعود الضمير على النبي – ﷺ –، وأنّ السماء: سقف البيت ونحوه، وأن النصر: الرزق، فقال: «وذلك أنّ الله –تعالى ذِكْرُه– ذَكَر قومًا يعبدونه على حرف، وأنهم يطمئنون بالدين إن أصابوا خيرًا في عبادتهم إياه، وأنهم يرتدون عن دينهم لشدة تصيبهم فيها، ثم أتبع ذلك هذه الآية، فمعلوم أنّه إنما أتبعه إياها توبيخًا لهم على ارتدادهم عن الدين، أو على شكهم فيه نفاقًا، استبطاءً منهم السعة في العيش، أو السبوغ في الرزق. وإذا كان الواجب أن يكون ذلك عقيب الخبر عن نفاقهم؛ فمعنى الكلام إذن إذ كان ذلك كذلك: مَن كان يحسب أن لن يرزق الله محمدًا – ﷺ – وأمته في الدنيا، فيوسع عليهم من فضله فيها، ويرزقهم في الآخرة من سني عطاياه وكرامته، استبطاء منه فعل الله ذلك به وبهم، فليمدد بحبل إلى سماء فوقه، إما سقف بيت أو غيره، مما يعلق به السبب مِن فوقه، ثم يختنق إذا اغتاظ من بعض ما قضى الله فاستعجل انكشاف ذلك عنه، فلينظر: هل يذهبن كيده اختناقه كذلك ما يغيظ؟! فإن لم يذهب ذلك غيظَه حتى يأتي الله بالفرج من عنده فيذهبه، فكذلك استعجاله نصر الله محمدًا ودينه لن يؤخر ما قضى الله له من ذلك عن ميقاته، ولا يعجل قبل حينه».

ورجَّح ابنُ عطية (٦/ ٢٢٤) أن النصر الغلبة استنادًا إلى المعنى الأشهر في اللغة.

ورجَّح ابنُ كثير (١٠/ ٢٣) مستندًا إلى الدلالة العقلية القولَ بأن السماء هي سقف البيت ونحوه، فقال: «وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنى: من كان يظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة.

قال الله تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

كما قال تعالى: وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ [آل عمران: 119].

يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ [غافر: ٥١ – ٥٢]، ولهذا قال: ﴿فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾».

وبنحوه ابنُ عطية (٦/ ٢٢٤).

(47) قيل المراد: حَبْلٌ يُعلَّقُ في سَقفِ بَيتٍ أو غيرِه، وكلُّ شَيءٍ علاك وأظَلَّك فهو سماءٌ.

وممن قال بذلك: ابن جرير، والسمعاني –ونسبه لجميعِ المفسرينَ–، وابن عطية، ونسبه ابنُ الجوزي إلى الأكثرين.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (483/16، 484)، ((تفسير السمعاني)) (427/3)، ((تفسير ابن عطية)) (112/4)، ((تفسير ابن الجوزي)) (227/3).

ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (287/4).

قال الشنقيطي: (وحاصِلُ هذا القَولِ: أنَّ اللهَ يَقولُ لحاسِديه صلَّى الله عليه وسلَّم، الذين يَتربَّصون به الدَّوائِرَ، ويَظُنُّونَ أنَّ رَبَّه لن يَنصُرَه: موتوا بغَيظِكم؛ فهو ناصِرُه لا محالةَ على رَغمِ أُنوفِكم.

وممَّن قال بهذا القولِ: مجاهِدٌ، وقتادةُ، وعِكرمةُ، وعطاءٌ، وأبو الجوزاءِ، وغيرُهم.

كما نقله عنهم ابنُ كثير، وهو أظهَرُها عندي.

وممَّا يشهدُ لهذا المعنى من القرآنِ: قَولُه تعالى: وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ [آل عمران: 119]).

((أضواء البيان)) (287/4).

وقيل: المرادُ بالسماءِ: السماءُ المعروفةُ، ومعنى الآيةِ على ذلك: مَن كان يظنُّ أنْ لن ينصرَ اللهُ نبيَّه في أمرِه، فلْيَمْدُدْ ذلك الظانُّ بحَبلٍ إلى السماءِ، ولْيَرْقَ إليها، وليقطَعْ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم النصرَ النازلَ عليه مِن السماءِ.

قاله السعدي.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 535).

قال الشنقيطي: (والمعنى: أنَّه إنْ أعمَلَ كُلَّ ما في وُسْعِه مِن كَيدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لِيَمنَعَ عنه نَصْرَ اللهِ، فإنَّه لا يَقدِرُ على ذلك، ولا يُذهِبُ كَيدُه ما يَغيظُه مِن نَصرِ اللهِ لِنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم.

وممَّا يشهدُ لهذا القَولِ مِن القُرآنِ قَولُه تعالى: أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ * جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ [ص: 10، 11]).

((أضواء البيان)) (288/4).

وممن قال بنحو ذلك من السلف: ابنُ زيد.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (479/16)، ((البسيط)) للواحدي (314/15).

وقال سُبحانَه: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [التوبة: 33].

ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ.

أي: ثُمَّ لْيَختَنِقْ بالحَبلِ، فلْيَنظُرْ حينَها: هل يُذهِبَنَّ صَنيعُه هذا ما يَغيظُه؟! كلَّا، لا يُغْني ذلك عنه شيئًا، وإنما يقَعُ ضَرَرُ كَيدِه على نفْسِه، واللهُ مُتِمُّ نُورِه، وناصرٌ نبيَّه.(48)

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16).

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ.

أي: وكما بَيَّنَّا لكم الآياتِ السَّابِقةَ وأوضَحْناها، كذلك أنزَلْنا القُرآنَ كُلَّه آياتٍ واضِحاتِ الدَّلالةِ.

(48) قال البغوي: (ليس هذا على سبيلِ الحَتمِ أن يفعلَه؛ لأنَّه لا يمكِنُه القَطعُ والنَّظَرُ بعد الاختناقِ والموتِ، ولكنَّه كما يُقالُ للحاسِدِ: إن لم تَرْضَ هذا، فاختَنِقْ ومُتْ غيظًا).
((تفسير البغوي)) (3/327).
قال الزمخشري: (سمِّيَ الاختناقُ قطعًا؛ لأنَّ المختنقَ يقطعُ نفَسَه بحبسِ مجاريه...
وسمِّي فعلُه كيدًا؛ لأنَّه وضَعه موضعَ الكيدِ، حيث لم يَقدِرْ على غيرِه.
أو على سبيلِ الاستهزاءِ؛ لأنَّه لم يَكِدْ به محسودَه، إنَّما كاد به نفْسَه).
((تفسير الزمخشري)) (3/147، 148).
وقال ابن عاشور: (المعنى: فلْيَنُطْ حَبلًا بالسَّماءِ مَربوطًا به، ثمَّ يَقطعْه؛ فيَسقُطَ مِنَ السَّماءِ فيتَمزَّقَ كُلَّ مُمزَّقٍ، فلا يُغنيَ عنه فِعلُه شَيئًا مِن إزالةِ غَيظِه).
((تفسير ابن عاشور)) (17/219).

وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ.

أي: ولأنَّ اللهَ يَهدي بهذا القُرآنِ إلى الحقِّ مَن يريدُ هِدايَته، أنزَلَه آياتٍ بَيِّناتٍ.(49)

كما قال تعالى: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [آل عمران: 103].

وقال سُبحانه: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا [النساء: 176].

وقال عزَّ وجَلَّ: قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [المائدة: 15-16].

---

(49) وممَّن قال بأنَّ المصـدَرَ المُؤَوَّلَ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي على تقديرِ لامِ العِلَّة، وتعَلُّقِه بفِعلٍ محذوفٍ مؤخَّرٍ: ابنُ جرير، والزمخشـريُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسـير ابن جرير)) (484/16)، ((تفسـير الزمخشـري)) (148/3)، ((تفسـير النسـفي)) (432/2)، ((تفسـير ابن عاشور)) (222/17).

وذهب ابنُ جزي إلى أنَّ قولَه: وَأَنَّ اللَّهَ معطوفٌ على آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ؛ لأنَّه مقدَّرٌ بالمصدرِ، فالتقديرُ: أنزلناه آياتٍ بيناتٍ وهدًى لمن أراد الله أن يهديَه.

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (35/2).

وقال ابنُ عطية: (وقولُه تعالى: وَأَنَّ في مَوضِعِ خبرِ الابتِداءِ، والتَّقديرُ: والأمرُ أنَّ اللهَ يَهدي مَن يريدُ).

((تفسير ابن عطية)) (112/4).

وقال السـعديُّ: (أي: وكذلك لَمَّا فصَّـلْنا في هذا القُرآنِ ما فصَّـلْنا، جعَلْناه آياتٍ بيِّناتٍ واضِـحاتٍ دالَّاتٍ على جميعِ المطالِبِ والمسـائِلِ النَّافِعةِ، ولكِنَّ الهدايةَ بيَدِ اللهِ؛ فمَن أراد اللهُ هدايتَه اهتدَى بهذا القُرآنِ، وجعَله إمامًا له وقُدوةً، واسـتضـاءَ بنورِه، ومَن لم يُرِدِ اللهُ هدايتَه فلو جاءته كلُّ آيةٍ ما آمَن، ولم يَنفَعْه القُرآنُ شيئًا، بل يكونُ حُجَّةً عليه).

((تفسير السعدي)) (ص: 535).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أي: إنَّ المُؤمنينَ باللهِ ورُسُلِه، واليَهودَ، والصَّابِئينَ، والنَّصارى، والمجوسَ، والمُشرِكينَ باللهِ– إنَّ اللهَ يَحكُمُ بينهم يومَ القيامةِ، ويُجازي كُلًّا بعَمَلِه؛ فيُدخِلُ المُؤمنينَ منهم الجنَّةَ، ويُدخِلُ الكافرينَ النَّارَ.

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

أي: إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ مِن أعمالِ هؤلاء الأصنافِ، وغَيرِ ذلك مِن الأشياءِ كُلِّها– شَهيدٌ لا يخفى عليه شَيءٌ.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ [آل عمران: 5].

سورةُ الحَجِّ

الآية (18)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (18)

غريب الكلمات:

حَقَّ: أي: وجَب ولَزِمَ، والحَقُّ في أصلِه: المطابقةُ والموافقةُ، وأصلُ (حَقق): يَدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه.

تفسير الآية:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (18).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ.

أي: ألم تعلَمْ[50] أنَّ اللهَ يَسجُدُ له مَن في السَّمَواتِ مِن الملائكةِ، ومَن في الأرضِ مِن الخلقِ مِن الجنِّ وغيرِهم، والشَّمسُ والقَمَرُ والنُّجومُ في السَّماءِ، والجِبالُ والشَّجَرُ والدوابُّ في الأرضِ؟[51]

---

(50) قيل: الخِطابُ لكُلِّ مَن يصلُحُ له، وهو مَن تتأتَّى منه الرؤيةُ.

وممن قال بذلك: أبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (6/100)، ((تفسير الشوكاني)) (3/524)، ((تفسير الألوسي)) (13/27)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/226).

وقيل: الخطابُ للنبيِّ مُحمَّد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وممَّن قال بذلك: ابن جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/487).

(51) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/487)، ((معاني القرآن)) للزجاج (3/418، 419)، ((الوسيط)) للواحدي (3/262)، ((تفسير البغوي)) (3/328)، ((تفسير ابن عطية)) (4/113)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (1/127، 128)، ((تفسير ابن كثير)) (5/403).

قيل: سجودُ كلِّ شيءٍ بحسَبِه وما يختصُّ به.

وممن قال بذلك: ابن تيميَّة، وابن كثير.

كما قال تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ [الرعد: 15].

وقال سُبحانَه: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ [النحل: 48-49].

وقال عزَّ وجَلَّ: وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ [الرحمن: 6].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ - ﷺ - لأبي ذَرٍّ حينَ غَرَبتِ الشَّمسُ: ((أتدري أين تذهَبُ؟ قُلتُ: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: فإنَّها تذهَبُ حتى تسجُدَ تحتَ العَرشِ، فتَستأذِنُ، فيُؤْذَنُ لها،

يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (21/284)، ((تفسير ابن كثير)) (5/403).

وقيل: سُجودُ ذلك ظِلالُه حين تطلُعُ عليه الشَّمسُ وحين تزولُ، فإذا تحوَّل ظِلُّ كُلِّ شَيءٍ فهو سُجودُه.

وممن قال بذلك: ابن جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/487).

وقيل: المرادُ بسُجودِها: خُضوعُها وذِلَّتُها وانقيادُها لخالِقِها فيما يريدُ منها.

وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: الزجَّاج، والواحدي، وابن عطية، وابن القيم، والشوكاني.

يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (3/418)، ((الوسيط)) للواحدي (3/262)، ((تفسير ابن عطية)) (4/113)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (1/127، 128)، ((تفسير الشوكاني)) (3/524).

قال السمعاني: (قال الزَّجاج: السجودُ هاهنا بمعنَى الطاعةِ؛ أي: يُطيعُه، واستَحسَنوا هذا القولَ؛ لأنَّه موافِقٌ للكِتابِ، وهو قولُه تعالى: اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، وأيضًا فإنَّ مِن اعتِقادِ أهلِ السُّنَّة أنَّ الحيوانَ والمواتَ مُطيعٌ كُلُّه لله تعالى). ((تفسير السمعاني)) (3/427).

ويُوشِكُ أن تَسجُدَ فلا يُقبَلُ منها، وتَستأذِنُ فلا يُؤْذَنُ لها، يُقالُ لها: ارجِعي مِن حَيثُ جِئْتِ، فتَطلُعُ مِن مَغرِبِها، فذلك قولُه تعالى: وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [يس: 38])).[52]

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

أي: وكثيرٌ مِن النَّاسِ -وهم المُؤمِنونَ- يَسجُدونَ لله طَوعًا مُختارينَ عابدِينَ.

وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ.

أي: وكثيرٌ مِن النَّاسِ -وهم الكافِرونَ- وَجَب عليهم عذابُ اللهِ؛ لامتِناعِهم عن السُّجودِ للهِ عن طواعِيَةٍ واختيارٍ.

وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ.

أي: ومَن يُهِنْهُ اللهُ فلا يَقدِرُ أحَدٌ أن يُكرِمَه.

---

(52) رواه البخاري (3199) واللفظ له، ومسلم (159).

إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

أي: وذلك لأنَّ اللهَ يَفعَلُ في خَلْقِه ما يَشاءُ، فيُسعِدُ ويُكرِمُ مَن يشاءُ، ويُشقي ويُهينُ مَن يَشاءُ؛ فالخَلقُ خَلقُه، والأمرُ أمرُه.

سورةُ الحَجِّ

الآيات (19–22)

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ
رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21)
كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22)

غريب الكلمات:

الْحَمِيمُ: أي: الماءُ الشَّديدُ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم): يَدُلُّ على الحَرارةِ.

يُصْهَرُ: أي: يُذابُ، والصَّهرُ: إذابةُ الشَّحمِ، وأصلُ (صهر): يدُلُّ على إذابةِ شَيءٍ.

مَقَامِعُ: أي: سياطٌ ومَطارِقُ ومَرازِبُ، مِن قَولِهم: قَمَعْتُ رأسَه: إذا ضَرَبْتَه ضَربًا عنيفًا، وأصلُ (قمع): يدُلُّ على إذلالٍ وقَهرٍ.

تفسير الآيات:

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19).

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ.

أي: هذان فَريقانِ اختَلَفوا في شأنِ رَبِّهم وتوحيدِه ودينِه، وتعادَوْا وتحارَبوا: المُؤمِنونَ والكافِرونَ؛ فالمُؤمِنونَ يُريدونَ نُصرةَ دينِ اللهِ، وإعلاءَ كَلِمتِه، والكافِرونَ يُريدونَ إطفاءَ نُورِ الإيمانِ، وقَمْعَ الحَقِّ، وإظهارَ الباطِلِ.[53]

---

(53) قال ابن عاشور: (المرادُ من هذه الآيةِ ما يعُمُّ جميعَ المؤمنينَ وجميعَ مُخالِفيهم في الدِّينِ).
((تفسير ابن عاشور)) (17/228).
وممَّن قال بالعُموم أيضًا: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن جُزي، وابن كثير.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/493، 494)، ((تفسير ابن عطية)) (4/114)، ((تفسير ابن جزي)) (2/36)، ((تفسير ابن كثير)) (5/406).
قال ابن جزي: (هَذَانِ خَصْمَانِ الإشارةُ إلى المؤمنينَ والكفَّارِ على العمومِ، ويدلُّ على ذلك ما ذُكِر قبلَها مِن اختلافِ الناسِ في أديانِهم، وهو قولُ ابنِ عباسٍ).
((تفسير ابن جزي)) (2/36).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/493).
وقال أبو السعود: (أي: فريقُ المؤمنينَ، وفريقُ الكفرةِ المقسَّمُ إلى الفِرَقِ الخَمسِ).
((تفسير أبي السعود)) (6/101).
واختار هذا المعنى أيضًا: الألوسي، والقاسمي.
يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (9/127)، ((تفسير القاسمي)) (7/238).
ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (15/329).

وقيل: المرادُ بهم النَّفرُ الذين برَزوا للقتالِ أوَّلَ المعركةِ يومَ بدرٍ.

وممن قال بذلك: مكي، والقرطبي.

يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (4862/7)، ((تفسير القرطبي)) (25/12-26).

ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (291/4).

وقيل غيرُ ذلك.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (228/3).

قال ابن جرير: (الآيةَ قد تنزلُ بسَبَبٍ مِن الأسبابِ، ثُمَّ تكونُ عامَّةً في كلِّ ما كانَ نظيرَ ذلك السَّبَبِ.

وهذه مِن تلك؛ وذلك أنَّ الَّذينَ تبارَزوا إنَّما كانَ أحدُ الفريقينِ أهلَ شِرْكٍ وكفرٍ باللَّهِ، والآخَرُ أهلَ إيمانٍ باللَّهِ وطاعةٍ له، فكلُّ كافرٍ في حُكْمِ فريقِ الشِّركِ منهما في أنَّه لأهلِ الإيمانِ خَصْمٌ، وكذلك كلُّ مُؤمنٍ في حُكمِ فريقِ الإيمانِ منهما في أنَّه لأهلِ الشِّركِ خَصْمٌ).

((تفسير ابن جرير)) (493/16).

وقال الرازي: (السببُ وإن كان خاصًّا، فالواجبُ حملُ الكلامِ على ظاهرِه).

((تفسير الرازي)) (215/23).

اخْتُلِفَ في المعنيِّ بهذين الخصمين على أقوال:

الأول: أنهما فريق المسلمين وفريق المشركين الذين تبارزوا يوم بدر.

الثاني: أنهما فريق الإيمان، والفريق الآخر هم أهل الكتاب.

الثالث: أنهما فريق الإيمان وفريق الكفار كلهم من أي ملة كانوا.

الرابع: أنهما الجنة والنار اختصمتا.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٤٩٣) وابنُ عطية (٦/ ٢٢٨) استنادًا إلى السياق القول الثالث، وهو قول مجاهد، والحسن من طريق أبي قزعة، وعطاء، وابن جريج، وعلَّل ابنُ جرير ذلك بقوله: «لأنه -تعالى ذِكْرُه- ذَكَر قبل ذلك صنفين من خلقه: أحدهما: أهل طاعةٍ له بالسجود له.

والآخر: أهل معصيةٍ له، قد حَقَّ عليه العذاب، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ﴾، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذابُ﴾، ثم أتْبَع ذلك صفة الصنفين كليهما وما هو فاعلٌ بهما، فقال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِن نارٍ﴾، وقال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأَنْهارُ﴾، فكان بيِّنًا بذلك أنّ ما بين ذلك خبرٌ عنهما».

ثم وجه قول أبي ذرٍّ بنزولها في الذين بارزوا يوم بدر بأن «ذلك -إن شاء الله- كما روي عنه، ولكن الآية قد تنزل بسبب من الأسباب ثم تكون عامَّةً في كل ما كان نظير ذلك السبب، وهذه مِن تلك، وذلك أن الذين تبارزوا إنما كان أحد الفريقين أهل شركٍ وكفرٍ بالله، والآخر أهل إيمان بالله وطاعة له، فكل كافر في حكم فريق الشرك منهما في أنه لأهل الإيمان خَصْمٌ، وكذلك كل مؤمن في حكم فريق الإيمان منهما في أنه لأهل الشرك خَصْمٌ».

عن قَيسِ بنِ عَبَّادٍ، قال: (سَمِعْتُ أبا ذَرٍّ يُقسِمُ قَسَمًا: إنَّ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ إنَّها نَزَلت في الذين بَرَزوا يومَ بَدرٍ: حَمزةُ وعَلِيٌّ وعُبَيدةُ بنُ الحارِثِ، وعُتبَةُ وشَيبةُ ابنا ربيعةَ، والوليدُ بنُ عُتبةَ).[54]

وعن قَيسِ بنِ عَبَّادٍ، عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: (أنا أوَّلُ مَن يجثو[55] بينَ يدَيِ الرَّحمنِ للخُصومةِ يومَ القيامةِ)، وقال قيسُ بنُ عَبَّادٍ: وفيهم أُنزِلَت: هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ، قال: (هم الذين تبارَزوا يومَ بَدرٍ: حمزةُ وعَلِيٌّ وعُبَيدةُ –أو أبو عبيدة بنُ الحارثِ–، وشَيبةُ بنُ رَبيعةَ، وعُتْبةُ بنُ رَبيعةَ، والوَليدُ بنُ عُتبةَ).[56]

فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ.

ووافقهما ابنُ كثير (١٠/ ٣٠)، وعلَّق على القول الثالث بأنه «يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان، وخذلان الحق، وظهور الباطل».

وذكر ابنُ عطية (٦/ ٢٢٨) أن قوله تعالى: ﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ «معناه: في شأن ربهم وصفاته وتوحيده».

وذكر احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يريد: في رضى ربهم، وفي ذاته».

(54) رواه البخاري (4744)، ومسلم (3033) واللفظ له.

(55) يجثو: أي: يَجلِسُ على رُكبَتَيه.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (239/1).

(56) رواه البخاري (3965).

قال ابنُ جُزَي: (وقيل: نزلَت في عليِّ بنِ أبي طالبٍ، وحمزةَ بنِ عبدِ المُطَّلِب، وعُبيدةَ بنِ الحارثِ؛ حين بَرَزوا يومَ بَدرٍ لِعُتبةَ بنِ رَبيعةَ، وشَيبةَ بنِ رَبيعةَ، والوَليدِ بنِ عُتبةَ؛ فالآيةُ على هذا مَدَنيَّةٌ إلى تمامِ سِتِّ آياتٍ).

((تفسير ابن جزي)) (36/2).

قال ابن عاشور: (الأظهرُ: أنَّ أبا ذَرٍّ عنى بنزول الآية في هؤلاء أنَّ أولئك النفرَ الستَّة هم أبرزُ مِثالٍ وأشهرُ فَردٍ في هذا العموم؛ فعبَّر بالنزولِ وهو يُريد أنهم ممَّن يُقصَدُ من معنى الآيةِ، ومِثل هذا كثيرٌ في كلام المتقدِّمين).

((تفسير ابن عاشور)) (229/17).

أي: فالذين كفَروا بالله فُصِّلَت لهم ثِيابٌ مِن نارٍ، فيَعُمُّ العذابُ أجسادَهم.

كما قال تعالى: وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ [إبراهيم: 49-50].

يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ.

أي: يُصَبُّ على رُؤوسِ الكُفَّارِ الماءُ المُغْلَى الشَّديدُ الحَرارةِ.

كما قال تعالى: خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ [الدخان: 47-48].

يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20).

أي: يُذابُ بالحَميمِ المصبوبِ فَوقَ رُؤوسِ الكُفَّارِ ما في بُطونِهم -مِنَ اللَّحمِ والشَّحمِ، والأمعاءِ والأحشاءِ-، والجلودُ.(57)

---

(57) قيل: (الْجُلُودُ) مرفوعٌ بفعلٍ محذوفٍ معطوفٍ على يُصْهَرُ، وتقديرُه: وتُحرقُ أو تُشوَى به الجلودُ.
وممن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، والبغوي، والقرطبي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (496/16)، ((تفسير البغوي)) (331/3)، ((تفسير القرطبي)) (27/12).
ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (290/4).
وقيل: المعنى: أنَّ الحميمَ يُذيبُ جلودَ الكافرين كما يُذيبُ ما في بطونِهم؛ لشدةِ حرارتِه.
وممن اختاره: الرسعني، والعليمي، والشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (31/5)، ((تفسير العليمي)) (411/4)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (290/4).

وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21).

أي: وللكُفَّارِ في جهنَّمَ مَرازِبُ ومَطارِقُ مِن حَديدِ، تَضرِبُهم وتَدفَعُهم بها خَزَنةُ النَّارِ مِن الملائِكةِ.

كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22).

كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا.

أي: كُلَّما أراد هؤلاءِ الكُفَّارُ أن يَخرُجوا مِنَ النَّارِ بسَبَبِ ما نالهم فيها مِنْ غَمٍّ، أُعيدُوا في النَّارِ مرَّةً أُخرى.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ [فاطر: 36-37].

وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ.

أي: ويُقالُ لهؤلاء الكافرينَ: ذوقوا عَذابَ النَّارِ المُحرِقَ للقُلوبِ والأبدانِ.

قال الشنقيطي: (وقولُه: وَالْجُلُودُ الظَّاهِرُ أنَّه معطوفٌ على «ما» مِنْ قولِه: يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ الَّتي هي نائِبُ فاعلِ يُصْهَرُ، وعلى هذا الظَّاهرِ المتَبادِرِ مِنَ الآيةِ فذلك الحميمُ يُذيبُ جُلودَهم، كما يُذيبُ ما في بطونِهم لِشِدَّةِ حرارَتِه؛ إذ المعنى: يُصْهَرُ به ما في بُطونِهم، وتُصْهَرُ به الجلودُ؛ أيْ: جُلودُهم، فالألِفُ وَاللَّامُ قامَتا مقامَ الإضافةِ).
((أضواء البيان)) (4/290).

كما قال تعالى: وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ [السجدة: 20].

سورةُ الحَجِّ

الآيات (23-25)

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25)

غريب الكلمات:

أَسَاوِرَ: جمعُ أَسْوِرَةٍ، وأسْوِرَةٌ جَمعُ سِوارٍ، والسِّوارُ: هو الذي يُلبَسُ في المِعصَم مِن ذَهَبٍ، وهو اسمٌ مُعَرَّبٌ عن الفارسيَّةِ.

الْعَاكِفُ: أي: المُقيمُ المُلازِمُ، والعُكوفُ: الإقبالُ على الشَّيءِ ومُلازَمتُه على سَبيلِ التَّعظيمِ له، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على الإقبالِ والحَبسِ.

وَالْبَادِ: أي: الطَّارِئُ مِنَ البَدوِ، وأصلُ (بدو): يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ، وسُمِّيَ خِلافُ الحَضَرِ بَدْوًا مِن هذا؛ لأنَّهم في بَرازٍ مِن الأرضِ، وليسُوا في قُرًى تَستُرُهم أبنِيَتُها.

بِإِلْحَادٍ: أي: ظُلمٍ ومَيلٍ عن الحَقِّ، وأصلُ (لحد): يدُلُّ على مَيلٍ عن استِقامةٍ.

تفسير الآيات:

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23).

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

أي: إنَّ اللهَ يُدخِلُ الذين آمنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحَةَ- جناتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها وقُصورِها.

يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا.

أي: يُحَلِّي اللهُ المُؤمِنينَ في الجنَّةِ -رِجالًا ونساءً- أساوِرَ مِن ذَهَبٍ، ويُحلَّونَ فيها لُؤلؤًا.[58]

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعْتُ خليلي - ﷺ - يقولُ: ((تَبلُغُ الحِليةُ[59] مِن المُؤمِنِ حيثُ يَبلُغُ الوُضوءُ)).[60]

---

(58) قال القرطبي: (قال القُشيري: والمرادُ ترصيعُ السوارِ باللؤلؤِ، ولا يبعدُ أن يكونَ في الجنةِ سوارٌ مِن لؤلؤٍ مصمتٍ.

قلت: وهو ظاهرُ القرآنِ، بل نصُّه).

((تفسير القرطبي)) (29/12).

(59) الحِليةُ: أي: البَياضُ.

وقيل: الزِّينةُ في الجنَّةِ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (351/1).

(60) رواه مسلم (250).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: وَلُؤْلُؤًا قِراءتانِ:

1- قِراءةُ وَلُؤْلُؤًا بالنَّصبِ على معنى: ويُحَلَّونَ لُولُؤًا.

2- قِراءةُ وَلُؤْلُؤٍ بالجرِّ على معنى: يُحَلَّونَ أساوِرَ مِن ذَهَبٍ وأساوِرَ مِن لُؤلُؤٍ، أو على معنى: يحلَّونَ أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلؤٍ، أي: يكونُ السِّوارُ الواحِدُ مُكَوَّنًا مِنَ الذَّهَبِ واللُّؤلؤِ معًا.

وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ.

أي: ولِباسُ المُؤمنينَ في الجنَّةِ ثِيابٌ مِن حَريرٍ.

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ الله عنه، أنَّه قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((لا تلبَسوا الحريرَ؛ فإنَّه مَن لَبِسَه في الدُّنيا، لم يَلبَسْه في الآخِرةِ)).[61]

وعن حُذيفةَ بنِ اليَمَانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: ((لا تلبَسوا الحريرَ ولا الدِّيباجَ، ولا تَشرَبوا في آنيةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، ولا تأكُلوا في صِحافِها؛ فإنَّها لهم في الدُّنيا، ولنا في الآخِرةِ)).[62]

---

(61) رواه مسلم (2069).

(62) رواه البخاري (5426) واللفظ له، ومسلم (2067).

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24).

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ.

أي: وهدى اللهُ المُؤمِنينَ إلى الأقوالِ الطيِّبةِ.[63]

---

(63) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (500/16)، ((تفسير القرطبي)) (30/12، 31)، ((تفسير السعدي)) (ص: 536).

قيل: المرادُ بقوله: الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ: شهادة أنْ لا إله إلا اللهُ.

وممَّن اختاره: مقاتل بن سليمان، وابنُ جرير، وابن أبي زَمَنِين، والثعلبي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (121/3)، ((تفسير ابن جرير)) (500/16)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (176/3)، ((تفسير الثعلبي)) (15/7).

قال ابن جزي: (الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ قيل: هو لا إلهَ إلَّا اللهُ.

واللفظُ أعمُّ مِن ذلك).

((تفسير ابن جزي)) (37/2).

وممن ذهب إلى العمومِ: السعديُّ، فقال: (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ الذي أفضلُه وأطيبُه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيِّبة التي فيها ذِكرُ الله، أو إحسانٌ إلى عباد الله).

((تفسير السعدي)) (ص: 536).

وقال ابنُ عطية: (الطيِّب من القول: لا إله إلا اللهُ، وما جرى معها مِن ذِكرِ الله تعالى، وتسبيحِه وتقديسِه، وسائر كلامِ أهل الجنَّة؛ من محاورةٍ وحديثٍ طيِّبٍ؛ فإنَّها لا تَسمعُ فيها لاغيةً).

((تفسير ابن عطية)) (115/4).

وقيل: المعنى: أنَّ المؤمنين يُرشَدُون إلى المكان الذين يَسمعون فيه الأقوالَ الطيِّبةَ.

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (408/5).

قال ابنُ كثير: (وقولُه: وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ كقولِه: وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ [إبْرَاهِيم: 23]، وقوله: يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ [الرَّعْدِ: 23، 24]، وقولِه: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة: 25-26]؛

وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ.

أي: وهَدى المؤمنينَ إلى طريقِ اللهِ المحمودِ في أسمائِه وصِفاتِه.(64)

فهُدوا إلى المكانِ الذي يَسمَعون فيه الكلامَ الطيِّب، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا [الفرقان: 75]، لا كما يُهان أهلُ النارِ بالكلامِ الذي يُروَّعون به، ويُقرعون به؛ يُقالُ لهم: وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ [الأنفال: 50]، [الحج: 22]).

((تفسير ابن كثير)) (408/5).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (234/17).

وقال ابنُ كثيرٍ أيضًا: (وقد قال بعضُ المفسِّرين في قولِه: وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ أي: القرآنِ.

وقيل: لا إلهَ إلَّا اللهُ.

وقيل: الأذكارُ المشروعةُ،...

وكلُّ هذا لا يُنافي ما ذكرناه، واللهُ أعلم).

((تفسير ابن كثير)) (408/5).

وقال الشوكاني: (وقد ورَدَ في القرآنِ ما يدلُّ على هذا القولِ المُجمَلِ هنا، وهو قولُه سبحانَه: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ).

((تفسير الشوكاني)) (526/3).

(64) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (500/16)، ((تفسير القرطبي)) (31/12)، ((تفسير السعدي)) (ص: 536)، ((تفسير ابن عاشور)) (235/17).

قيل: المرادُ أنَّهم هُدوا في الدُّنيا إلى الإسلامِ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جَرير، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبيُّ، والخازن، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (500/16)، ((تفسير السمرقندي)) (454/2)، ((تفسير السمعاني)) (431/3)، ((تفسير البغوي)) (332/3)، ((تفسير القرطبي)) (31/12)، ((تفسير الخازن)) (253/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (235/17).

وقال مكي: (ومعنى: وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ أي: إذا صاروا إلى الآخرةِ، وهُدوا إلى صراطِ الجنَّةِ، وطريقِها، فهو صراطُ الله عزَّ وجلَّ، يسلكُه المؤمنونَ إلى الجنَّةِ، ويعدلُ عنه الكافرونَ والمنافقونَ إلى طريقِ النارِ).

((الهداية)) (4866/7).

وقال ابن كثير: (وقولُه: وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ أي: إلى المكانِ الَّذي يَحْمَدونَ فيه ربَّهم، على ما أحْسَن إليهم، وأنْعَم به، وأسْداه إليهم، كما جاءَ في الصَّحيحِ: «إنَّهم يُلْهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ، كما يُلْهَمونَ النَّفَسَ»).

وذكَر أنَّ تفسيرَ صراطِ الحميدِ بالطَّريقِ المستقيمِ في الدُّنيا لا يُنافي ما اختاره.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (408/5).

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ.

وممَّن اختار أنَّ الحَمِيدِ صفةٌ لله: ابنُ جَرير، ومكي، والواحديُّ، والسمعاني، والبَغويُّ، وابنُ عطية، والقرطبيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (500/16)، ((الهداية)) لمكي (4866/7)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 731)، ((تفسير السمعاني)) (431/3)، ((تفسير البغوي)) (322/3)، ((تفسير ابن عطية)) (115/4)، ((تفسير القرطبي)) (31/12).

وقيل: الحَميدِ صِفةٌ للصراط، أي: الصراط المحمود.

وممَّن قال بهذا المعنى: جلال الدين المحلي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: 436)، ((تفسير السعدي)) (ص: 536).

قال ابن جزي: (ويحتملُ أن يريدَ الصراطَ الحميدَ، وأضاف الصفةَ إلى الموصوفِ، كقولِك: مسجدُ الجامعِ).

((تفسير ابن جزي)) (37/2).

وقال السعديُّ: (وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ أي: الصراط المحمود؛ وذلك لأنَّ جميعَ الشرع محتوٍ على الحِكمةِ والحمدِ، وحُسن المأمور به، وقُبح المنهيِّ عنه، وهو الدِّين الذي لا إفراطَ فيه ولا تفريط، المشتمِل على العِلم النافع والعمَل الصالح).

((تفسير السعدي)) (ص: 536).

أي: إنَّ الذين كفَروا باللهِ، ويمنَعونَ النَّاسَ مِن الدُّخولِ في دينِه، ومِنَ المَسجِدِ الحرامِ -الذي ليس مِلكًا لهم ولا لآبائِهم، بل جعَلْناه للمُؤمِنينَ كافةً سَواءً المُقيمُ منهم فيه والقادِمُ إليه، فهم يسْتَوون في تعظيمِه وأحقيَّةِ أداءِ العباداتِ وإقامةِ الشَّعائِرِ فيه [65]- أولئك الذين كَفَروا نُذيقُهم[66] مِن عذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ.

---

(65) قال البغويُّ: (اختلَفوا في معنى الآيةِ؛ فقال قومٌ: سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ يعني: في تعظيمِ حُرمته، وقضاءِ النُّسُك فيه.
وإليه ذهب مجاهدٌ والحسنُ وجماعةٌ، وقالوا: المرادُ منه نفْسُ المسجِدِ الحرامِ، ومعنى التَّسويةِ: هو التَّسويةُ في تعظيمِ الكَعبةِ، وفي فضْلِ الصَّلاةِ في المسجِدِ الحرامِ، والطَّوافِ بالبَيتِ.
وقال آخرونَ: المرادُ منه جميعُ الحَرَمِ، ومعنى التسويةِ: أنَّ المقيمَ والباديَ سَواءٌ في النُّزولِ به، ليس أحَدُهما بأحقَّ بالمَنزِلِ يكونُ فيه مِن الآخَرِ، غيرَ أنَّه لا يُزعَجُ فيه أحدٌ إذا كان قد سبَق إلى مَنزِلٍ.
وهو قولُ ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبير، وقتادة، وابن زيد).
((تفسير البغوي)) (333/3).
ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابن جرير، والسمرقندي، ومكي، والقرطبي، والخازن، وأبو حيان.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (501/16)، ((تفسير السمرقندي)) (455/2)، ((الهداية)) لمكي (4867/7)، ((تفسير القرطبي)) (32/12)، ((تفسير الخازن)) (11/5)، ((تفسير أبي حيان)) (336/6).
وقال القرطبي: (قوله تعالى: وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ قيل: إنَّه المسجدُ نفسُه، وهو ظاهرُ القرآنِ؛ لأنَّه لم يُذكر غيرُه.
وقيل: الحرمُ كلُّه؛ لأنَّ المشركين صدُّوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه عنه عام الحُديبيَة، فنزَل خارجًا عنه؛ قال اللهُ تعالى: وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ [الفتح: 25]).
((تفسير القرطبي)) (32/12).
والقول الثاني نسبه الواحدي للأكثرين.
يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (344/15).
وقال ابنُ القيِّم: (المسجدُ الحرامُ هنا: المرادُ به الحَرَمُ كلُّه، كقولِه تعالى: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا [التوبة: 28]، فهذا المرادُ به الحَرَمُ كُلُّه، وقولِه سبحانه: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى [الإسراء: 1]، وفي الصَّحيح: «أنَّه أُسرِيَ به من بيتِ أمِّ هانئٍ»...
فالحرمُ ومشاعِرُه -كالصَّفا والمروةِ والمَسعى، ومِنًى وعَرفةَ ومُزدلِفةَ- لا يختصُّ بها أحَدٌ دونَ أحدٍ، بل هي مُشتركةٌ بين النَّاسِ؛ إذ هي مَحَلُّ نُسُكِهم ومُتعبَّدُهم؛ فهي مَسجدٌ مِن الله وقَفَه ووضَعَه لخَلْقِه؛ ولهذا امتنعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُبنَى له بيتٌ بمِنًى يُظِلُّه مِن الحرِّ، وقال: «مِنًى مُناخُ مَن سبَق»).
((زاد المعاد)) (381/3، 382).

كما قال تعالى: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ [الفتح: 25].

وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ.

ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (29/212، 213).

وقال ابن عاشور: (ليس في هذه الآيةِ حُجَّةٌ لحُكمِ امتِلاكِ دُورِ مكَّةَ إثباتًا ولا نفيًا؛ لأنَّ سياقَها خاصٌّ بالمسجدِ الحرامِ دونَ غيرِه، ويَلحَقُ به ما هو مِن تمامِ مَناسِكِه؛ كالمسعى، والموقِفِ، والمشعَرِ الحرامِ، والجِمارِ...

ولا خلافَ بين المُسلِمينَ في أنَّ النَّاسَ سَواءٌ في أداءِ المناسِكِ بالمَسجدِ الحرامِ وما يَتْبَعُه).

((تفسير ابن عاشور)) (17/238).

وقال ابن عطية: (أجمَعَ النَّاسُ على الاستواءِ في نفْسِ المسجدِ الحرامِ، واختلفوا في مكَّةَ).

((تفسير ابن عطية)) (4/116).

ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (2/79).

(66) قال الشنقيطي: (اعْلَمْ أنَّ خبرَ إنَّ في قولِه هنا: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا محذوفٌ كما ترَى.

وَالَّذي تَدُلُّ عليه الآيةُ أنَّ التَّقديرَ: إنَّ الَّذينَ كفروا ويصُدُّونَ عن سبيلِ اللهِ، نُذيقُهم مِن عذابٍ أَليمٍ.

كما دَلَّ على هذا قولُه في آخِرِ الآيةِ: وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، وخيرُ ما يُفَسَّرُ به القرآنُ القرآنُ).

((أضواء البيان)) (4/292).

وقيل: الخبرُ محذوفٌ مُقدَّرٌ عندَ قولِه: وَالْبَادِ، تقديرُه: خَسِروا أو هَلَكوا.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (12/31).

أي: ومَنْ يَهُمَّ أن يَميلَ ويَحيدَ في المَسجِدِ الحَرامِ عن الحَقّ، ويَنحَرِفَ عن الاستِقامةِ بارتِكابِ ظُلمٍ[67] -وهو قاصِدٌ لذلك- نُذِقْه مِن عذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ.[68]

---

(67) ممن ذهَب إلى القول بعمومِ المرادِ بالظُّلم هاهنا: ابنُ جَرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، وابن عاشور، والشنقيطيُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/510)، ((تفسير القرطبي)) (12/36)، ((تفسير ابن كثير)) (5/411، 412)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/239)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/294).
قال ابنُ جَرير: (أَوْلى الأقوال التي ذكَرناها في تأويلِ ذلك بالصوابِ: القولُ الذي ذكَرناه عن ابن مسعودٍ، وابن عبَّاس، من أنه معنيٌّ بالظلم في هذا الموضع كلُّ معصية لله؛ وذلك أنَّ الله عمَّ بقوله: وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ [الحج: 25]، ولم يُخصِّص به ظلمٌ دون ظُلمٍ في خبرٍ ولا عقْلٍ؛ فهو على عُمومِه).
((تفسير ابن جرير)) (16/510).
وقال القرطبيُّ: (هذا الإلحادُ والظلمُ يَجمع جميعَ المعاصي من الكُفر إلى الصغائر، فلِعِظَمِ حُرمة المكان توعَّدَ اللهُ تعالى على نيَّة السيِّئة فيه، ومَن نوى سيِّئة ولم يَعملْها لم يُحاسَبْ عليها إلا في مكَّة؛ هذا قولُ ابن مسعودٍ وجماعةٍ مِن الصحابة وغيرِهم).
((تفسير القرطبي)) (12/36).
وقال ابنُ كثير: (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ، أي: يَهُمُّ فيه بأمرٍ فظيعٍ من المعاصي الكِبار.
وقوله: بِظُلْمٍ، أي: عامدًا قاصدًا أنَّه ظُلْمٌ، ليس بمتأوِّل...
وقال مجاهدٌ: بِظُلْمٍ: يعمل فيه عملًا سيِّئًا.
وهذا من خُصوصية الحرَم، أنه يُعاقَبُ البادي فيه الشرَّ، إذا كان عازمًا عليه، وإنْ لم يُوقِعْه...
وهذه الآثارُ، وإن دلَّتْ على أنَّ هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعمُّ من ذلك، بل فيها تنبيهٌ على ما هو أغلظُ منها؛ ولهذا لَمَّا همَّ أصحابُ الفيل على تخريب البيت أرسلَ الله عليهم طيرًا أبابيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ [الفيل: 4- 5]، أي: دمَّرهم وجعَلهم عبرةً ونكالًا لكلِّ مَن أراده بسوءٍ).
((تفسير ابن كثير)) (5/411، 412).
وقال الشِّنقيطيُّ: (الذي يَظهَر في هذه المسألةِ أنَّ كلَّ مخالفةٍ بترك واجب، أو فِعل محرَّم تدخل في الظُّلْم المذكور، وأما الجائزات كعِتاب الرجُلِ امرأتَه، أو عبْدَه؛ فليس من الإلحاد، ولا مِن الظُّلم).
((أضواء البيان)) (4/294).
وقال أيضًا: (قال بعضُ أهلِ العلمِ: مَن هَمَّ أنْ يعملَ سَيِّئَةً فِي مَكَّةَ، أذاقه اللَّهُ العذابَ الأليمَ بسَبَبِ هَمِّه بذلك وإنْ لم يفعَلْها، بخلافِ غيرِ الحَرَمِ المكِّيِّ مِنَ البقاعِ، فلا يعاقَبُ فيه بالهَمِّ...
فهذه الآيةُ الكريمَةُ مُخَصِّصةٌ لعمومِ قولِه صَلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم: «ومَنْ همَّ بِسَيِّئَةٍ فلم يَعْمَلْها كُتِبَتْ له حسنَةٌ...» الحديثَ، وعليه فهذا التَّخصيصُ لشدَّةِ التَّغليظِ في المخالَفةِ في الحَرَمِ المكِّيِّ، ووجهُ هذا ظاهِرٌ...

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((يغزو جَيشٌ الكَعبةَ، فإذا كانوا ببَيداءَ[69] مِن الأرضِ يُخسَفُ بأوَّلِهم وآخِرِهم. قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، كيف يُخسَفُ بأوَّلِهم وآخِرِهم، وفيهم أسواقُهم[70] ومَن ليس منهم؟ قال: يُخسَفُ بأوَّلِهم وآخِرِهم، ثُمَّ يُبعَثونَ على نيَّاتِهم)).[71]

ويحتملُ أنْ يكونَ معنى الإرادةِ في قوله: وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ العزمَ المصَـمِّمُ على ارتكابِ الذَّنْبِ فيه، والعزمُ المصَـمِّمُ على الذَّنْبِ ذنبٌ يُعاقَبُ عليه في جميعِ بِقَاعِ اللهِ؛ مَكَّةَ وغيرِها).

((أضواء البيان)) (294/4).

اخْتُلِفَ في معنى: «الإلحاد بظلم» على أقوال: الأول: أنّه الشرك بالله بأن يُعبَد فيه غيرُ الله.

الثاني: أنّه استحلال الحرام فيه أو فعله.

الثالث: استحلال الحَرَم مُتَعَمِّدًا.

الرابع: أنّه احتكار الطعام بمكة.

الخامس: أنّه كل ما كان منهيًّا عنه مِن الفعل، حتى قول القائل: لا والله، وبلى والله.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٥١٠) مستندًا إلى دلالة العموم القول الثاني، وهو قول ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد من طريق ابن أبي نجيح، والضــحاك، وابن زيد، وبيَّن علَّة ذلك بقوله: «وأولى الأقوال التي ذكرناها في تأويل ذلك بالصــواب القولُ الذي ذكرناه عن ابن مسعود، وابن عباس، مِن أنه معنيٌّ بالظلم في هذا الموضع: كل معصية لله.

وذلك أنّ الله عمَّ بقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ ولم يَخُصُصْ به ظلمًا دون ظلم في خبر ولا عقل؛ فهو على عمومه».

وبيَّن ابنُ عطية (٦/ ٢٣٤ – ٢٣٥) عموم معنى الإلحاد لكل تلك الأقوال، فقال بعد سرده الأقوال الواردة في تفسير الإلحاد: «والعموم يأتي على هذا كله».

وكذا ابنُ كثير (١٠/ ٤٠)، فقال: «وهذه الآثار وإن دلت على أنّ هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك».

(68) قال الشنقيطي: (الظاهرُ أنَّ الضميرَ في قوله: فِيهِ راجعٌ إلى المسجدِ الحرامِ، ولكنَّ حكمَ الحرمِ كلِّه في تغليظِ الذنبِ المذكورِ كذلك).

((أضواء البيان)) (295/4).

(69) ببَيداءَ مِن الأرضِ: أي: بُقعةٍ ومفازةٍ واسعةٍ منها.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (1866/5).

(70) أسواقُهم: أي: أهلُ أسواقِهم، أو جَمعُ سُوقةٍ، وهي: الرَّعايا.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (1866/5).

(71) رواه البخاري (2883) واللفظ له، ومسلم (2884).

سورةُ الحَجِّ

الآيات (26-29)

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

غريب الكلمات:

بَوَّأْنَا: أي: هَيَّأْنا وبَيَّنَّا وعَرَّفْنا، وأصلُه مِن المَباءةِ: وهي مَنزِلُ القَومِ في كُلِّ موضعٍ.

رِجَالًا: جمعُ راجِلٍ، أي: مُشاةً، يُقالُ للماشي بالرِّجْل: رَجِلٌ وراجِلٌ، وهو مشتقٌّ من الرِّجْلِ.

ضَامِرٍ: الضَّامِرُ: البَعيرُ المهزولُ الَّذي أتْعَبه السَّفرُ، أو هو كلُّ ما يُركبُ مِن فرَسٍ وناقةٍ وغيرِ ذلك، وقيل: الخَفيفُ اللَّحمِ مِن الأعمالِ لا مِنَ الهُزالِ، وأصلُ (ضمر): يدُلُّ على دِقَّةٍ في الشَّيءِ.

فَجٍّ عَمِيقٍ: أي: مَسلَكٍ بَعيدٍ، والفَجُّ: الشَّقُّ بينَ جَبَلينِ، ويُستعمَلُ في الطَّريقِ الواسِعِ، وأصلُ (فجج): يدُلُّ على تفَتُّحٍ وانفِراجٍ، وأصلُ العُمْقِ: البعدُ سُفلًا.

بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ: أي: الإبلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، والبهيمَةُ: مَا استَبْهم عن الجوابِ: أي: استَغْلَق، وما لا نطقَ له؛ وذلك لِما في صوتِه مِن الإبهامِ، وقيل: سُمِّيت بذلك لأنَّها أُبْهِمتْ عن أن تُمَيِّزَ، وأصلُ (بهم): أن يبقَى الشيءُ لا يُعرَفُ المأتَى إليه، وأصلُ (نعم): يدلُّ على تَرفُّهٍ، وطِيبِ عَيشٍ، وصلاحٍ.

الْبَائِسَ: أي: الذي اشتَدَّتْ حاجتُه وساءَتْ حالُه وافتقَرَ، والبُؤسُ: شِدَّةُ الفَقرِ، يقالُ: بَئِسَ الرَّجُلُ بُؤْسًا: إذا اشتَدَّتْ حاجَتُه، فهو بائِسٌ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضارَعَها.

لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ: أي: لِيُزيلوا أدرانَهم وأوساخَهم، والتَّفَثُ في المَناسِكِ: ما كان مِن نَحوِ قَصِّ الأظفارِ والشَّارِبِ، وحَلْقِ الرَّأسِ والعانةِ، ورَمْيِ الجِمارِ، ونَحْرِ البُدنِ، وأشباهِ ذلك، وأصلُه: يدلُّ على الوَسَخِ.

بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ: أي: بَيتِ اللهِ الحَرامِ، وسُمِّي عَتيقًا؛ لأنَّه أقدَمُ بيتٍ للعبادةِ في الأرضِ، أو لأنَّ اللهَ تعالى أعتَقَه مِن الجَبابرةِ فلم يَظهَرْ عليه جبَّارٌ قَطُّ، وقِيل غيرُ ذلك، وأصلُ (عتق): يدُلُّ على الحُرِّيَّةِ والقِدَمِ.

تفسير الآيات:

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26).

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا.

أي: واذكُرْ -يا مُحَمَّدُ- حينَ هَيَّأْنا لإبراهيمَ مَكانَ الكَعبةِ، وأنزَلْناه فيه، وعرَّفْناه بالموضِعِ الذي يَبني فيه الكَعبةَ، وقُلْنا له: لا تُشرِكْ باللهِ شَيئًا في عبادَتِه، وأخلِصْ أعمالَك كُلَّها للهِ وَحْدَه، وابنِ هذا البيتَ على اسْمِ اللهِ وَحْدَه.[72]

كما قال تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ [آل عمران: 96-97].

---

(72) قال ابن كثير: (هذا فيه تقريعٌ وتوبيخٌ لِمن عَبَد غيرَ اللهِ وأشـرك به مِن قُرَيشٍ في البُقعةِ التي أُسِّـسَـت مِن أوَّلِ يومٍ على توحيدِ اللهِ وعبادتِه وَحْدَه لا شريكَ له).

((تفسير ابن كثير)) (413/5).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (511/16).

وقال الشنقيطي: (وذهَبَت جماعةٌ مِن أهلِ العِلمِ إلى أنَّ أوَّلَ مَن بناهُ إبراهيمُ، ولم يُبْنَ قَبْلَه.

وظاهِرُ قولِه حين ترك إسماعيلَ وهاجَرَ في مكَّةَ: رَبَّنَا إِنِّي أَسْـكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ [إبراهيم: 37] يدُلُّ على أنَّه كان مَبنيًّا واندرَسَ، كما يدُلُّ عليه قولُه هنا مَكَانَ الْبَيْتِ [الحج: 26] ؛ لأنَّه يدُلُّ على أنَّ له مكانًا سابقًا كان معروفًا.

واللهُ أعلم).

((أضواء البيان)) (296/4).

وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ.

أي: وطَهِّرْ –يا إبراهيمُ– بيتِيَ للطَّائِفينَ حَوْلَه، وللقائِمينَ في صلاتِهم، والرَّاكِعينَ السَّاجِدينَ في صَلاتِهم عِندَه، بتَنزيهِه مِن كُلِّ ما لا يَليقُ به مِنَ الشِّركِ والكُفرِ، والبِدَعِ والمعاصي، والقبائِحِ وجَميعِ النَّجاساتِ الحِسِّيَّةِ والمَعنَويَّةِ.

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27).

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا.

أي: وأَعْلِمْ –يا إبراهيمُ[73]– النَّاسَ بوُجوبِ الحَجِّ عليهم، ونادِ فيهم أنْ حُجُّوا أيُّها النَّاسُ بيتَ اللهِ؛ يأتُوا إليك مُشاةً على أرجُلِهم، مُلَبِّينَ نداءَك، حاجِّينَ بَيتَ اللهِ الحرامِ.

(73) قال الشنقيطي: (والخِطابُ في قَولِه: وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ لإبراهيمَ، كما هو ظاهِرٌ مِنَ السِّياقِ، وهو قَولُ الجُمهورِ، خِلافًا لِمَن زعَمَ أنَّ الخِطابَ لنبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وعلى إبراهيمَ وسَلَّم).
((أضواء البيان)) (4/299).

وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ.

أي: وراكِبينَ على الرَّواحِلِ التي هُزِلَت أبدانُها مِن طُولِ السَّفَرِ ومَشقَّتِه،[74] والتي تأتي مِن كُلِّ طَريقٍ ومَكانٍ واسِعٍ بَعيدٍ.

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28).

---

(74) قال ابنُ جزي: (الضامِرُ يُرادُ به كلُّ ما يُركَبُ؛ مِن فرَسٍ، وناقةٍ، وغيرِ ذلك، وإنَّما وصَفه بالضمورِ؛ لأنَّه لا يصلُ إلى البيتِ إلَّا بعدَ ضمورِه).

((تفسير ابن جزي)) (38/2).

وممن قال بنحو ذلك: الرسعني، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (43/5)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (299/4).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2488/8).

وقال ابن عاشور: (والضَّامِرُ: قليلُ لَحمِ البَطنِ...

والضُّمورُ مِن مَحاسِنِ الرَّواحِلِ والخَيلِ؛ لأنَّه يُعينُها على السَّيْرِ والحركةِ.

فالضَّامِرُ هنا بمنزلةِ الاسمِ، كأنَّه قال: وَعَلَى كُلِّ راحِلةٍ).

((تفسير ابن عاشور)) (244/17).

وقيل: المرادُ بها: الإبلُ المهازيلُ.

وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والماوردي، والقرطبي، والعليمي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (514/16)، ((تفسير الماوردي)) (18/4)، ((تفسير القرطبي)) (39/12)، ((تفسير العليمي)) (418/4).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: 537).

وممن قال بهذا القول من السلفِ: ابنُ عباس.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (518/16).

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ.

أي: لأجْلِ أن يحضُرَ الحُجَّاجُ، فيُحَصِّلوا مَصالِحَ كَثيرةً لهم مِن أمورِ دينِهم ودُنياهم وآخِرَتِهم.

كما قال تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [البقرة: 198–199].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ – ﷺ –: ((مَن حَجَّ هذا البَيتَ، فلم يَرْفُثْ،[75] ولم يفسُقْ،[76] رجَعَ كيومَ ولَدَتْه أُمُّه))[77].[78]

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((العُمرةُ إلى العُمرةِ كفَّارةٌ لِما بيْنهما، والحجُّ المبرورُ[79] ليس له جَزاءٌ إلَّا الجنَّةُ)).[80]

---

(75) الرَّفَثُ: الجِماعُ، أو الفُحشُ في القَولِ، أو خِطابُ الرَّجُلِ المرأةَ فيما يتعلَّقُ بالجِماعِ.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (97/3).
(76) ولم يَفسُقْ: أي: لم يأتِ بسَيِّئةٍ ولا معصيةٍ.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (97/3).
(77) رجَعَ كيومَ ولَدَتْه أمُّه: أي: بغيرِ ذَنبٍ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (119/9).
(78) رواه البخاري (1820) واللفظ له، ومسلم (1350).
(79) الحجُّ المبرورُ: هو الذي لا يُخالِطُه شيءٌ مِن المآثِمِ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (117/1).
(80) رواه البخاري (1773)، ومسلم (1349).

وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ.

أي: ولِيذكُرَ الحُجَّاجُ اسمَ اللهِ في أيَّامِ عشرِ ذي الحجَّةِ[81] على ما رزَقَهم مِنَ الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ.[82]

---

(81) ممن اختار أن المراد بالأيام المعلومات هي العشر: ابن أبي زمنين، والثعلبي، والبيضاوي.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (178/3)، ((تفسير الثعلبي)) (19/7)، ((تفسير البيضاوي)) (70/4).

ونسبه الثعلبي والبغوي والرسعني والخازن إلى أكثر المفسرين.

يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (19/7)، ((تفسير البغوي)) (335/3)، ((تفسير الرسعني)) (45/5)، ((تفسير الخازن)) (255/3).

وقال ابنُ رجب: (جمهورُ العُلَماءِ على أنَّ هذه الأيامَ المعلوماتِ هي عَشــرُ ذي الحجَّةِ؛ منهم: ابنُ عُمر، وابنُ عبَّاسٍ، والحَسَــنُ، وعَطاءٌ، ومُجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، والنَّخَعيُّ، وهو قولُ أبي حنيفةَ والشَّافعيِّ، وأحمدَ في المشهورِ عنه).

((لطائف المعارف)) (ص: 270،269).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بها أيَّامُ النَّحرِ، مع اختِلافِهم: هل هي يومُ النَّحرِ ويومانِ بَعدَه أو ثلاثةٌ: مُقاتِلُ بنُ سُــلَيمانَ، والسَّــمرقنديُّ، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والشَّوكاني، والشِّنقيطي.

يُنظر: ((تفســير مقاتل بن ســليمان)) (123/3)، ((تفســير الســمرقندي)) (457/2)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (423/3)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 732)، ((تفسير الشوكاني)) (531/3)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (115/5).

قال الخازن: (عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ [الحج: 28] يعني: الهدايا والضَّــحايا مِنَ النَّعَمِ، وهي: الإبِلُ والبَقَرُ والغَنَمُ، وفيه دليلٌ على أنَّ الأيامَ المعلوماتِ: يومُ النَّحرِ، وأيَّامُ التَّشريقِ؛ لأنَّ التَّســميةَ على بهيمةِ الأنعامِ عند نحْرِها ونحْرَ الهدايا يكونُ في هذه الأيَّامِ).

((تفسير الخازن)) (255/3).

وقال القاسمي: (وَيَذْكُرُوا اسْــمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، أي: على ما ملَّكهم منها، وذلَّلها لهم؛ لِيَجعَلوها هَدْيًا وضَحايا...

والأيَّامُ المعلوماتُ: أيَّامُ العَشرِ، أو يومُ النَّحرِ وثلاثةُ أيَّامٍ أو يومانِ بَعدَه، أو يومُ عَرفةَ والنَّحرِ ويومٌ بَعدَه: أقوالٌ للأئمَّةِ).

((تفسير القاسمي)) (241/7).

(82) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (522/16)، ((تفسير القرطبي)) (41/12، 44)، ((تفسير البيضاوي)) (70/4)، ((تفسير الخازن)) (255/3)، ((تفسير ابن جزي)) (38/2)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (225/24)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: 270)، ((تفسـير القاسمي)) (241/7)، ((تفسـير السـعدي)) (ص: 537)، ((أضـواء البيان)) للشـنقيطي (114/5).

وممَّن ذهَب إلى أن المعنى: على نَحْرِ وذَبحِ ما رَزَقَهم مِن بهيمةِ الأنعامِ: الســمعاني، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَيٍّ، والســعديُّ، والشنقيطيُّ.

فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ.

أي: فكُلوا مِنَ الأنعامِ التي ذكَرْتُم اسمَ اللهِ عليها، وأطعِموا منها مَن ساءت حالُه فاشتَدَّ به الفَقرُ، وضَرَّ به الجوعُ، فلا شيءَ له يُذهِبُ جوعَه، ويرفعُ عنه ضرَّه.[(83)]

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29).

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (3/435)، ((تفسير ابن عطية)) (4/121)، ((تفسير القرطبي)) (12/41- 44)، ((تفسير ابن جزي)) (2/38)، ((تفسير السعدي)) (ص: 537)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (5/114).

قال ابن رجب: (وأمَّا قوله تعالى: وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فقيل: إنَّ المراد ذِكرُه عند ذَبحِها، وهو حاصِلٌ بذِكرِه في يومِ النَّحرِ؛ فإنَّه أفضلُ أيَّامِ النَّحرِ.

والأصَحُّ: أنَّه إنَّما أُريدَ ذِكرُه شُكرًا على نِعمةِ تَسخيرِ بهيمةِ الأنعامِ لعِبادِه؛ فإنَّ لله تعالى على عِبادِه في بهيمةِ الأنعامِ نِعَمًا كثيرةً، قد عدَّد بَعضَها في مواضِعَ مِن القُرآنِ، والحاجُّ لهم خُصوصيَّةٌ في ذلك عن غيرِهم؛ فإنَّهم يَسيرونَ عليها إلى الحَرَمِ لِقَضاءِ نُسُكِهم). ((لطائف المعارف)) (ص: 269، 270).

(83) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/523، 524)، ((تفسير القرطبي)) (12/49)، ((تفسير ابن كثير)) (5/417)، ((تفسير السعدي)) (ص: 537).

قال ابنُ كثير: (قَولُه: فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ استدَلَّ بهذه الآيةِ مَن ذهَب إلى وُجوبِ الأكْلِ مِن الأضاحي، وهو قَولٌ غريبٌ.

والذي عليه الأكثرونَ أنَّه مِن بابِ الرُّخصةِ أو الاستِحبابِ).

((تفسير ابن كثير)) (5/416).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/523)، ((تفسير القرطبي)) (12/49)، ((تفسير ابن جزي)) (2/38).

قال البغوي: (فَكُلُوا مِنْهَا أمرُ إباحةٍ وليس بواجِبٍ، وإنَّما قال ذلك؛ لأنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا لا يأكُلونَ مِن لُحومِ هداياهم شيئًا، واتَّفق العُلَماءُ على أنَّ الهَدْيَ إذا كان تطوُّعًا يجوزُ للمُهدِي أن يأكُلَ منه، وكذلك أُضحيَّةُ التطوُّعِ...

واختلَفوا في الهَدْيِ الواجِبِ بالشَّرعِ: هل يجوزُ للمُهدِي أن يأكُلَ منه شيئًا؛ مِثلُ: دَمِ التَّمتُّعِ والقِرانِ، والدَّمِ الواجِبِ بإفسادِ الحَجِّ وفواتِه، وجزاءِ الصَّيدِ).

((تفسير البغوي)) (3/335).

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ.

أي: ثُمَّ لْيُكمِلِ الحُجَّاجُ ما بَقِيَ عليهم مِن مناسِكِ حَجِّهم؛ كرَمْيِ الجِمارِ، وحَلْقِ الرُّؤوسِ، ونَتفِ الآباطِ، وحلقِ العانةِ، والأخذِ مِن الشَّوارِبِ، وقَصِّ الأظفارِ، والطَّوافِ بالبَيتِ، وإزالةِ وَسخِ الأبدانِ.(84)

وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ.

أي: ولْيُوفِ الحُجَّاجُ بما أوجَبوه على أنفُسِهم في الحَجِّ.(85)

---

(84) قال النيسابوري: (أجمع أهلُ التفسيرِ على أنَّ المرادَ هاهنا: إزالةُ الأوساخِ والزوائِدِ؛ كقَصِّ الشاربِ والأظفارِ، ونتْفِ الإبْطِ، وحَلقِ العانة، فتقديرُ الآية: ثمَّ لْيَقضُوا إزالةَ تَفَثِهم).

((تفسير النيسابوري)) (78/5).

ويُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (402/4).

قال ابن عاشور: (هذا من جُملةِ ما خاطب اللهُ به إبراهيمَ عليه السَّلامُ).

((تفسير ابن عاشور)) (248/17).

(85) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (528/16)، ((تفسير ابن كثير)) (417/5، 418)، ((تفسير السعدي)) (ص: 537)، ((تفسير ابن عاشور)) (250/17).

قال البغويُّ: (قولُه تعالى: وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ قال مجاهِدٌ: أراد نَذْرَ الحَجِّ والهَدْيِ، وما يَنذِرُ الإنسانُ مِن شيءٍ يكونُ في الحجِّ، أي: لِيُتِمُّوها بقَضائِها.

وقيل: المرادُ منه الوَفاءُ بما نذَر، على ظاهِرِه.

وقيل: أراد به الخُروجَ عمَّا وجَب عليه، نذَرَ أو لم يَنذِرْ.

والعرَبُ تقولُ لكُلِّ مَن خرجَ عن الواجِبِ عليه: وَفَى بنَذرِه).

((تفسير البغوي)) (336/3).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجُملة: ابنُ جَرير، والسمرقندي، والواحديُّ، والرازيُّ، والسعديُّ، وابن عاشور.

وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ.

أي: ولْيَطُفِ الحُجَّاجُ طَوافَ الإفاضةِ[86] ببَيتِ اللهِ العتيقِ؛[87] الكعبةِ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (528/16)، ((تفسير السمرقندي)) (457/2)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 733)، ((تفسير الرازي)) (222/23)، ((تفسير السعدي)) (ص: 537)، ((تفسير ابن عاشور)) (250/17).

وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (528/16)، ((تفسير ابن كثير)) (417/5).

والقول الثاني هو ظاهر اختيار الشنقيطي.

يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (233/5).

(86) قال ابن جرير: (عُنِيَ بالطواف الذي أمَر جلَّ ثناؤه حاجَّ بيتِه العتيقِ به في هذه الآيةِ: طوافُ الإفاضةِ الذي يُطاف به بعد التعريفِ، إمَّا يومَ النحر، وإمَّا بعْدَه؛ لا خِلافَ بين أهل التأويل في ذلك).

((تفسير ابن جرير)) (531/16).

وقال ابن جزي: (المراد هنا طوافُ الإفاضةِ، عند جميعِ المفَسِّرينَ).

((تفسير ابن جزي)) (39/2).

وقال ابن عطية: (ويحتملُ بحسَبِ الترتيبِ أن تكونَ الإشارةُ إلى طوافِ الوداعِ؛ إذ المستحسنُ أن يكونَ ولا بدَّ، وقد أسنَد الطبريُّ عن عمرِو بنِ أبي سلمةَ، قال: سألتُ زهيرًا عن قولِه تعالى: وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ فقال: هو طوافُ الوداعِ).

((تفسير ابن عطية)) (119/4).

ويُنظر: ((موطأ مالك)) (539/3، 540)، ((تفسير ابن جرير)) (532/16).

(87) قال الشنقيطي: (في المرادِ بالعتيقِ هنا للعلماءِ ثلاثةُ أقوالٍ: الأوَّلُ: أنَّ المرادَ به القديمُ؛ لأنَّه أقدمُ مواضعِ التَّعبُّدِ.

الثَّاني: أنَّ اللهَ أعتقه مِنَ الجبابرةِ.

الثَّالثُ: أنَّ المرادَ بالعتقِ فيه الكرمُ...

وإذا علِمتَ ذلك فاعْلَمْ: أنَّه قد دَلَّتْ آيةٌ مِنْ كتابِ اللَّهِ، على أنَّ العتيقَ في الآيةِ بمعنَى القديمِ الأوَّلِ، وهي قولُه تعالَى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا الآيةَ [آل عمران: 96]، معَ أنَّ المعنيَيْنِ الآخَرينِ كلاهما حَقٌّ، ولكنَّ القرآنَ دَلَّ على ما ذكرنا، وخيرُ ما يُفَسَّرُ به القرآنَ القرآنُ).

((أضواء البيان)) (253/5).

وممن اختار أنَّ العتيقَ معناه القديمُ: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (529/16)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 733)، ((تفسير القرطبي)) (50/12)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (253/5، 254).

وقيل: العتيقُ: أي: المعتَقُ مِن تسلطِ الجبابرة.

يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (70/4).

وممَّن جمَع بيْن المعنيينِ السابقينِ في الجملةِ: البِقَاعيُّ، والسعدي.

يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (41/13)، ((تفسير السعدي)) (ص: 537) قال البقاعي: (وصفه بقَولِه: الْعَتِيقِ إشارةً إلى استحقاقِه للتَّعظيمِ بالقِدَمِ والعِتقِ مِن كُلِّ سوءٍ).

((نظم الدرر)) (41/13).

وقال السعدي: (الْعَتِيقِ أي: القديمِ؛ أفضل المساجد على الإطلاق، المُعتَق مِن تسلُّط الجبابرةِ عليه).

((تفسير السعدي)) (ص: 537).

وقال ابنُ عاشور: (والعتيقُ: المُحَرَّرُ، غيرُ المملوكِ لِلنَّاسِ).

((تفسير ابن عاشور)).

(250/17).

وقال النيسابوري: (سُمِّيَ بالبيتِ العَتيقِ؛ لأنَّه أوَّلُ بَيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ.

عن الحسَنِ.

وقال قتادة: لأنَّه أُعتِقَ مِن تسَلُّطِ الجبابرةِ عليه.

وهو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، وابنِ الزُّبَيرِ، وروَوه عن رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

وعن ابنِ عُيَينةَ: لأنَّه لم يُملَكْ قَطُّ.

وعن مجاهِدٍ: لأنَّه أُعتِقَ مِن الغَرَقِ أيامَ الطُّوفانِ.

وقيل: معناه البيتُ الكريمُ).

((تفسير النيسابوري)) (79/5).

سورةُ الحَجِّ

الآيات (30-33)

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)

غريب الكلمات:

الرِّجْسَ: هو اسمٌ لكُلِّ ما استُقذِرَ مِن عَمَلٍ، وكُلُّ قَذَرٍ رِجسٌ، وأصلُه يدُلُّ على الخُبثِ والقَذارةِ.

الزُّورِ: أي: الكَذِبِ والفِرْيَةِ على اللهِ، وأصلُ (زور): يدُلُّ على المَيلِ والعُدولِ.

حُنَفَاءَ: جمعُ حَنيفٍ، وهو المُقبلُ على اللهِ، المُعرضُ عمَّا سِواه، وقيل: الحنيفُ: هو المسلمُ المستقيمُ، وقيل: المائلُ عن الشركِ والدِّينِ الباطلِ إلى التوحيدِ، والدِّينِ الحقِّ المستقيمِ، وأصلُ الحنفِ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخَرَ، فالحنفُ ميلٌ عن الضلالةِ إلى الاستقامةِ، وأصلُه ميلٌ في إبهامي القدمينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها.

خَرَّ: أي: سَقَط على وَجهِه، وأصلُه يدُلُّ على اضطرابٍ وسُقوطٍ مع صَوتٍ.

سَحِيقٍ: أي: بَعيدٍ، وأصلُ (سحق): يدُلُّ على بُعدٍ.

شَعَائِرَ: جَمْعُ شَعيرَةٍ، وهي ما جعَله اللهُ تعالى عَلَمًا لطاعتِه، وأصل (شعر): هنا يدلُّ على عِلْمٍ وعَلَمٍ.

مَحِلُّهَا: المَحِلُّ: الموضِع الذي يَحِلُّ فيه نَحر الهدْي، وقيل: هو وَقتُ النَّحْرِ ومكانُه، وأصلُ (حلل): فَتْحُ الشَّيْءِ.

تفسير الآيات:

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30).

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ.

أي: ذلك الذي أمَرَ اللهُ به مِن قَضاءِ التَّفَثِ والوَفاءِ بالنُّذورِ والطَّوافِ بالبَيتِ العَتيقِ: هو ما أوجَبَه اللهُ عليكم -أيُّها النَّاسُ- في حَجِّكم؛ فعَظِّموه، ومَن يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ، فيَجتَنِبْ ما أمَرَه اللهُ باجتِنابِه؛ تَعظيمًا منه لحُدودِ اللهِ أن يُواقِعَها أو يَستَحِلَّها- فهو خَيرٌ له عِندَ رَبِّه في دِينِه ودُنياهُ وآخِرَتِه.(88)

---

(88) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (533/16)، ((تفسير القرطبي)) (54/12)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (73/2)، ((تفسير ابن كثير)) (419/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 537)، ((تفسير ابن عاشور)) (251/17، 252).

ممَّن قصَر معنى قولِه: يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ هنا على اجتنابِ ما أمَره اللهُ باجتنابِه في حالِ إحرامِه: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابن الجوزي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (533/16)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (4882/7)، ((تفسير ابن الجوزي)) (235/3).

قال مقاتل بن سليمان: (حُرُمَاتِ اللَّهِ يعني أمرَ المناسِكِ كلِّها).

((تفسير مقاتل بن سليمان)) (123/3).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بحُرُماتِ الله: مَعاصيه ومحارِمُه وما نهى عنه: البغوي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (338/3)، ((تفسير الخازن)) (256/3)، ((تفسير ابن كثير)) (419/5)، ((تفسير العليمي)) (424/4)، ((تفسير الشوكاني)) (534/3).

وممَّن اختار العُمومَ: الزَّجَّاجُ، والسَّعدي.

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (424/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 537).

قال الزَّجَّاجُ: (وحُرُماتُ اللهِ: الحجُّ والعُمرةُ وسائِرُ المناسِك، وكُلُّ ما فَرَض اللهُ فهو مِن حُرُماتِ الله، والحُرمةُ ما وَجَب القيامُ به، وحَرُمَ تركُهُ والتَّفريطُ فيه).

((معاني القرآن وإعرابه)) (424/3).

وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ.

أي: وأَحَلَّ اللهُ لكم -أيُّها النَّاسُ- الإبِلَ والبَقَرَ والغَنَمَ أن تأكُلوها إذا ذكَّيتُموها، إلَّا ما يُتلى عليكم تحريمُه في القُرآنِ؛ كالمَيْتةِ، والدَّمِ، ولَحمِ الخِنزيرِ، وما أُهِلَّ لِغيرِ اللهِ به.(89)

كما قال تعالى: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [الأنعام: 145].

فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ.

أي: فاجتَنِبوا -أيُّها النَّاسُ- عِبادةَ الأصنامِ؛ فإنَّها قَذَرٌ، ومِن ذلك الذَّبحُ إليها وعِندَها.

وقال السعدي: (وحُرُماتُ اللهِ: كلُّ ما له حُرمةٌ وأُمِرَ باحترامِه بعبادةٍ أو غيرِها؛ كالمناسِكِ كُلِّها، وكالحَرَمِ والإحرامِ، وكالهدايا، وكالعباداتِ التي أمرَ اللهُ العبادَ بالقيامِ بها).

((تفسير السعدي)) (ص: 537).

وقال ابنُ عطية: (والحُرُماتُ المقصودةُ هاهنا في أفعالِ الحَجِّ: المشارُ إليها في قَولِه: ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ، ويدخُلُ في ذلك تعظيمُ المواضِعِ.

قاله ابنُ زيدٍ وغَيرُه،...

ثمَّ لفظُ الآيةِ بعد ذلك يتناولُ كُلَّ حُرمةٍ لله تعالى في جميعِ الشَّرعِ).

((تفسير ابن عطية)) (4/120).

(89) قال القرطبي: (إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ أي: في الكتابِ مِن المحرَّماتِ، وهي الميتةُ والموقوذةُ وأخَواتُها، ولهذا اتِّصالٌ بأمرِ الحجِّ؛ فإنَّ في الحجِّ الذبحَ، فبيَّن ما يحِلُّ ذبحُه، وأكلُ لحمِه.

وقيل: إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ).

((تفسير القرطبي)) (12/54).

وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ.

أي: واجتَنِبوا -أيُّها النَّاسُ- كُلَّ قَولٍ باطِلٍ مائلٍ عن سَبيلِ الحَقِّ والاستِقامةِ، ومِن ذلك القَولُ على اللهِ بلا عِلمٍ؛ كتَحريمِ أكْلِ ما أحَلَّه اللهُ، أو تحليلِ ما حرَّمَه.(90)

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [الأعراف: 33].

وقال عزَّ وجلَّ: ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

---

(90) وممَّن ذهَبَ إلى العمومِ في معنى الزور هنا: ابنُ تيميَّة، والبِقَاعي، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بقولِ الزُّورِ أربعةُ أقوالٍ: أحَدُها: شهادةُ الزُّورِ.

قاله ابنُ مَسعودٍ.

والثَّاني: الكَذِبُ.

قاله مجاهد.

والثَّالثُ: الشِّركُ.

قاله أبو مالك.

والرَّابعُ: أنَّه قَولُ المُشركِينَ في الأنعامِ: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ.

قاله الزَّجَّاجُ).

((تفسير ابن الجوزي)) (3/235).

افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [الأنعام: 143-145].

وقال سُبحانَه: وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا [الفرقان: 72].

وعن أبي بَكرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ - ﷺ -: ((ألَا أُنَبِّئُكم بأكبَرِ الكبائِرِ -ثلاثًا-؟ قالوا: بلى يا رَسولَ اللهِ، قال: الإشراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالِدَينِ. وجلس وكان متَّكِئًا، فقال: ألَا وقَولُ الزُّورِ، قال: فما زال يُكرِّرُها حتى قُلْنا: ليتَه سكَت)).[91]

---

(91) وممَّن ذهَبَ إلى العمومِ في معنى الزور هنا: ابنُ تيميَّة، والبِقَاعي، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بقَولِ الزُّورِ أربعةُ أقوالٍ: أحَدُها: شهادةُ الزُّورِ.

قاله ابنُ مَسعودٍ.

والثَّاني: الكَذِبُ.

قاله مجاهد.

والثَّالثُ: الشِّركُ.

قاله أبو مالك.

والرَّابعُ: أنَّه قَولُ المُشرِكينَ في الأنعامِ: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ.

قاله الزَّجَّاجُ).

((تفسير ابن الجوزي)) (3/235).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((مَن لم يَدَعْ قَولَ الزُّورِ والعَمَلَ به، فليس لله حاجةٌ في أن يدَعَ طَعامَه وشَرابَه)).[92]

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31).

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ.

أي: مُستقيمينَ لِلَّهِ على إخلاصِ التَّوحيدِ له، وإفرادِ الطَّاعةِ والعبادةِ له، مائِلينَ عن الباطِلِ إلى الحَقّ، وعن الشّرِكِ إلى التَّوحيدِ، مُقبِلينَ على اللهِ، مُعرِضينَ عن عبادةِ ما سِواه سُبحانَه.

كما قال تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [النحل: 120].

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ.

أي: ومَن يُشرِكْ باللهِ شَيئًا في عبادتِه، فمَثَلُه في هلاكِه وضَلالِه عن الهُدى والحَقّ، وبُعدِه مِن ربِّه؛ كمَن سَقَط مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، فتمَزَّقَ جَسَدُه، فتُقَطِّعُه النُّسورُ سَريعًا، وتَستَلِبُ لَحمَه، فتأكُلُه ويتفَرَّقُ في حواصِلِها.

---

(92) رواه البخاري (1903).

أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ.

أي: أو تُلقِي الرِّيحُ أوصالَه المُمَزَّقةَ في مَوضِعٍ بَعيدِ العُمقِ؛ لِشِدَّةِ هُبوبِها.[93]

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((... وإنَّ العَبدَ الكافِرَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنيا وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزل إليه مِنَ السَّماءِ مَلائِكةٌ سُودُ الوُجوهِ، معهم المُسوحُ،[94] فيَجلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ،[95] ثمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوتِ، حتى يجلِسَ عندَ رأسِه، فيقولُ: أيَّتُها النَّفسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغَضَبٍ، فتفَرَّقُ في جسَدِه، فيَنتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ مِن الصُّوفِ المَبلولِ![96] فيأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتى يجعَلوها في تِلكَ المُسوحِ، ويَخرُجُ منها كأنتَنِ رِيحِ جيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ! فيَصعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على ملأٍ مِنَ المَلائِكةِ إلَّا قالوا: ما

(93) قال السَّمعانيُّ: (معنى الآية: أنَّ مَن أشرك فقد هلَك، وبعُد عن الحقِّ بُعدًا لا يصِلُ إليه بحالٍ ما دام مُشركًا).
((تفسير السمعاني)) (437/3).
وقال البيضاويُّ: (أَوْ للتخيير...
أو للتنويعِ؛ فإنَّ مِن المشركين مَن لا خلاصَ له أصلًا، ومنهم مَن يُمكنُ خلاصُه بالتوبةِ، لكن على بُعْد.
ويجوز أنْ يكونَ من التشبيهاتِ المركَّبةِ؛ فيكونَ المعنى: ومَن يُشرِكْ بالله فقد هلكَتْ نفْسُه هلاكًا يُشبهُ أحدَ الهالكينِ).
((تفسير البيضاوي)) (71/4).
(94) المسوحُ: جَمعُ مِسحٍ، وهو اللِّباسُ الخَشِنُ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (1179/3).
(95) مَدَّ البَصَرِ: أي: قريبًا منه.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (1176/3).
(96) السَّفُّودُ: الحديدةُ التي يُشوى عليها اللَّحمُ، فيَبقَى معها بقيَّةٌ مِن المحروقِ فيَستصحِبُ عندَ الجذبِ شيئًا مِن ذلك الصُّوفِ مع قُوَّةٍ وشِدَّة.
يُنظر: ((شرح الطيبي على مشكاة المصابيح)) (1381/4)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (328/5).

هذا الرُّوحُ الخَبيثُ؟! فيقولونَ: فلانُ بنُ فُلانٍ، بأقبَحِ أسمائِه التي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتَحُ له فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرأ رَسولُ اللهِ – ﷺ –: لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ [الأعراف: 40] ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتُبُوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفلَى، فتُطرَحُ رُوحُه طرحًا، ثمَّ قرأ: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ [الحج: 31] ...)) الحديث.[97]

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32).

أي: هذا الذي ذكرتُ لكم وأمرْتُكم به؛ مِن اجتِنابِ الرِّجسِ مِنَ الأوثانِ، واجتِنابِ قَولِ الزُّورِ، والالتِزامِ بتَوحيدِ اللهِ: مِن تَعظيمِ شَعائِرِه، ومَن يُعَظِّمْ أعلامَ الدِّينِ الظَّاهرةَ، ومنها الهدايا، بإجلالِها والقيامِ بها، واستِسمانِها وتَكميلِها مِن كُلِّ وَجهٍ؛[98] فإنَّه يُبرهِنُ بذلك على تَقواهُ وصِحَّةِ إيمانِه؛

---

(97) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (12059)، وأحمد (18534)، والحاكم في ((المستدرك)) (107) بألفاظٍ متقاربةٍ.

صحَّح إسنادَه: ابنُ جرير في ((مسند ابن عمر)) (494/2)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (300/1).

وحسَّنَ الحديثَ: المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (280/4)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (150).

وصَحَّحه ابنُ القيم في ((الروح)) (ص: 46)، والألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (3558).

(98) اختُلِفَ في معنى: «شعائر الله» في الآية؛ فقيل: إنها البدن، وتعظيمها: استحسانها، واستسمانها.

وقيل: إنها مناسك الحج، وتعظيمها: إشعارها.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٥٤١) مستندًا إلى دلالة العموم شمول الآية لكلا المعنيين، فقال: «إن الله –تعالى ذِكْره– أخبر أنّ تعظيم شعائره، وهي ما جعله أعلامًا لخلقه فيما تعبَّدهم به من مناسك حجّهم من الأماكن التي أمرهم بأداء ما افترض عليهم منها عندها، والأعمال التي ألزمهم عملها في حجهم: من تقوى قلوبهم، لم يَخْصُص من ذلك شيئًا، فتعظيم كل ذلك من تقوى القلوب كما قال –جلَّ ثناؤه–، وحقٌّ على عباده المؤمنين به تعظيم جميع ذلك».

فتَعظيمُها تابعٌ لِتَعظيمِ اللهِ وإجلالِه، وتَعظيمُها مِن فِعلِ المتَّقينَ أصحابِ القُلوبِ المُخلِصةِ الوَجِلةِ مِن خَشيةِ اللهِ.

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33).

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.

أي: لكم -أيُّها الحُجَّاجُ- في البُدْنِ والهَدايا مَنافِعُ؛ مِن لَبَنِها وصُوفِها وأوبارِها وأشعارِها، ورُكوبِها وغيرِ ذلك، إلى وَقتِ نَحْرِها.(99)

---

(99) وممَّن قال بهذا المعنى المذكور في الجملة: ابن كثير، وأبو السعود، والشوكاني، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (5/423)، ((تفسير أبي السعود)) (6/106)، ((تفسير الشوكاني)) (3/535)، ((تفسير السعدي)) (ص: 538).

قال الرازي: (قوله تعالَى: لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لا يَليقُ إلَّا بأنْ تُحمَلَ الشَّعائِرُ على الهدْيِ الَّذي فيه منافعُ إلى وقْتِ النَّحرِ، ومَن يحمِلُ ذلك على سائرِ الواجباتِ يقولُ: لَكُمْ فِيهَا أي: في التَّمسُّكِ بها منافعُ إلى أجلٍ يَنْقَطِعُ التَّكليفُ عندَه. والأوَّلُ هو قولُ جمهورِ المفسِّرينَ، ولا شكَّ أنَّه أقربُ).

((تفسير الرازي)) (23/224).

وقيل: مَرجِعُ الضَّميرِ في فِيهَا يعودُ إلى الشَّعائِرِ عُمومًا، فيدخُلُ فيها الهَديُ وغَيرُه من مناسِكِ الحَجِّ وأعمالِه.

وممن قال بذلك: ابنُ جرير.

وجعل المنافِعَ والأجَلَ المسمَّى تختَلِفُ بحَسَبِ العَمَلِ، فقال: (قد دلَّلْنا قبلُ على أنَّ قولَ الله تعالى ذِكرُه: وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ [الحج: 32] معنيٌّ به كلُّ ما كان مِن عملٍ أو مكانٍ جعلَه الله عَلَمًا لمناسِكِ حَجِّ خَلْقِه؛ إذ لم يُخصِّصْ مِن ذلك جلَّ ثناؤه شَيئًا في خبرٍ ولا عقلٍ، وإذ كان ذلك كذلك فمعلومٌ أنَّ معنى قَولِه: لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى [الحج: 33] : في هذه الشَّعائرِ منافعُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى؛ فما كان مِن هذه الشَّعائرِ بُدْنًا وهَدْيًا فمنافِعُها لكم مِن حينِ تَمَلكونَ إلى أنْ أوجَبْتُموها هَدايا وبُدْنًا، وما كان منها أماكِنَ يُنسَكُ لله عندها فمنافِعُها التِّجارةُ لله عِندَها، والعَمَلُ بما أمَرَ به إلى الشُّخُوصِ عنها، وما كان منها أوقاتًا فأنْ يُطاعَ اللهُ فيها بعَمَلِ أعمالِ الحَجِّ، وبطَلَبِ المعاشِ فيها بالتِّجارةِ، إلى أن يُطافَ بالبَيتِ في بَعضٍ، أو يُوافَى الحرمُ في بعضٍ، ويُخرَجَ عن الحَرَمِ في بَعضٍ).

ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ.

أي: ثمَّ يَحِلُّ نَحرُ تلك البُدْنِ عندَ بُلوغِها البَيتَ العَتيق.(100)

((تفسير ابن جرير)) (547/16).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (121/4)، ((تفسير ابن جزي)) (39/2).

قال الماوردي: (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فيه ثلاثةُ أقاويلَ: أحدُها: أنَّ المنافعَ: التجارةُ، وهذا قولُ مَن تأوَّل الشعائرَ بأنَّها مناسكُ الحجِّ، والأجلُ المسمَّى: العَودُ.

والثاني: أنَّ المنافعَ: الأجرُ، والأجلُ المسمَّى: القيامةُ، وهذا تأويلُ مَن تأوَّلها بأنَّها الدِّينُ.

والثالث: أنَّ المنافعَ: الركوبُ والدرُّ والنسلُ، وهذا قولُ مَن تأوَّلها بأنَّها الهَدْيُ، فعلى هذا في الأجلِ المسمَّى وجهانِ: أحدُهما: أنَّ المنافعَ قبْلَ الإيجابِ وبعْدَه، والأجلُ المسمَّى هو النحرُ، وهذا قولُ عطاءٍ).

((تفسير الماوردي)) (24/4).

(100) اختلف المفسِّرونَ في المُرادِ بالمحِلّ هنا؛ تبعًا لاختلافِهم السابِقِ في مَرجِعِ الضَّميرِ في فِيهَا.

وممَّن قال منهم بأنَّ المرادَ بالبيت العتيق: الحَرَمُ كُلُّه: مقاتل بن سليمان، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، وابن الجوزي، والرازي، والسعدي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (126/3)، ((تفسير الثعلبي)) (22/7)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (4887/7)، ((الوسيط)) للواحدي (271/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (236/3)، ((تفسير الرازي)) (224/23)، ((تفسير السعدي)) (ص: 538)، ((تفسير ابن عاشور)) (258/17).

قال الزمخشريُّ: (مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ، أي: وُجوبُ نَحْرِها، أو وقتُ وجوبِ نَحرِها في الحَرَمِ مُنتهيَةً إلى البيتِ، كقولِه: هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ [المائدة: 95]، والمرادُ: نَحرُها في الحَرَمِ الذي هو في حُكمِ البَيتِ؛ لأنَّ الحَرَمَ هو حريمُ البيتِ، ومِثلُ هذا في الاتِّساعِ قَولُك: بلَغْنا البلدَ، وإنَّما شارَفْتُموه واتَّصل مَسيرُكم بحُدودِه).

((تفسير الزمخشري)) (157/3).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالبيتِ هنا: الكعبةُ: ابنُ كثير، وابن عاشور، يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (423/5)، ((تفسير ابن عاشور)) (258/17).

قال ابن كثير: (مَحِلُّ الهَدْيِ وانتهاؤُه إلى البَيتِ العَتيقِ، وهو الكعبةُ، كما قال تعالى: هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ [المائدة: 95] ، وقال: وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ).

((تفسير ابن كثير)) (423/5).

وذكر ابنُ عاشور ما حاصِلُه أنَّ الله تعالى قال: إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، والكعبةُ لا يُنحَرُ فيها؛ وذلك أنَّ التقرُّبَ بالهدايا يكونُ بواسطةِ تَعظيمِ الكعبةِ؛ لأنَّ الهدايا شُرِعَت تَكمِلةً لِشَرعِ الحَجِّ، والحَجُّ قَصدُ البَيت.

كما قال تعالى: وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ [البقرة: 196].

وقال سُبحانَه: هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ [المائدة: 95].

سورةُ الحَجِّ

الآيتان (34–35)

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (258/17).

وقال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ثُمَّ مَحِلُّهَا أي: حيثُ يَحِلُّ نَحرُها إِلَى الْبَيْتِ يعني: عند البيتِ.

والمرادُ به: الحَرَمُ كلُّه، لأنَّا نعلَمُ أنَّها لا تُذبَحُ عند البيتِ، ولا في المسجدِ.

هذا على القَولِ الأوَّلِ.

وعلى الثَّاني: يكونُ المعنى: ثمَّ مَحِلُّ النَّاسِ مِن إحرامِهم إلى البيتِ، وهو أن يَطوفُوا به بعد قضاءِ المناسِكِ).

تفسير ابن الجوزي (236/3).

وقال القرطبي: (قَولُه تعالى: ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ يريدُ أنَّها تنتهي إلى البيتِ، وهو الطَّوافُ.

فقولُه: مَحِلُّهَا مأخوذٌ من إحلالِ المُحرِمِ.

والمعنى: أنَّ شعائِرَ الحَجِّ كُلَّها من الوُقوفِ بعَرَفةَ، ورَمِي الجِمارِ، والسَّعيِ: تنتهي إلى طوافِ الإفاضةِ بالبيتِ العتيقِ.

فالبيتُ على هذا التَّأويلِ مرادٌ بنَفْسِه.

قاله مالكٌ في الموطَّأ.

وقال عطاءٌ: ينتهي إلى مكَّةَ.

وقال الشافعي: إلى الحَرَمِ.

وهذا بِناءً على أن الشَّعائِرَ هي البُدْنُ، ولا وجهَ لِتَخصيصِ الشَّعائِرِ مع عُمومِها، وإلغاءِ خُصوصيَّةِ ذِكرِ البيتِ.

واللهُ أعلمُ).

((تفسير القرطبي)) (57/12).

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (35)

غريب الكلمات:

مَنْسَكًا: أي: إراقةَ الدِّماءِ، وذَبْحَ القَرابينِ؛ مِن نَسَك يَنْسُكُ: إذا ذبحَ القُربانَ، أو هو الموضعُ الَّذي يُنْسَكُ للهِ فيه، ويُتَقَرَّبُ إليه فيه، أو: العيدُ، وأصلُ (نسك): يدُلُّ على عبادةٍ وتقَرُّبٍ إلى اللهِ تعالى.

الْمُخْبِتِينَ: أي: المُتواضِعينَ المُذعِنينَ له بالعُبوديَّةِ، والإخباتُ سكونُ الجوارحِ على وجهِ التواضعِ والخشوعِ لله، وأصلُ (خبت): يدُلُّ على خُشوعٍ.

وَجِلَتْ: أي: خَافَتْ، والوجلُ خوفٌ مقرونٌ بهيبةٍ ومحبةٍ، وقيل: الوَجَلُ: استِشعارُ الخَوفِ.

تفسير الآيتين:

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34).

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ.

أي: وكلُّ جَماعةٍ مُؤمِنةٍ ممَّن قَبْلَكم شرَعْنا لهم التقرُّبَ إلى اللهِ بالذَّبحِ وإراقةِ الدِّماءِ؛ لِيَذكُروا اسمَ اللهِ وَحْدَه عندَ نَحرِ ما رزَقَهم مِنَ الإبِلِ أو البَقَرِ أو الغنَمِ، ويجعَلوا نَسيكَتَهم لِوَجهِه.

فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا.

أي: فمَعبودُكم الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ مَعبودٌ واحِدٌ لا شَريكَ له؛ فله وَحْدَه أخلِصوا عِباداتِكم، وانقادُوا له بالطَّاعةِ، واخضَعوا لحُكمِه.

كما قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء: 25].

وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ.

أي: وبَشِّرْ -يا مُحمَّدُ- بخَيرِي الدُّنيا والآخرةِ الخاضِعينَ الخاشِعينَ المُتواضِعينَ المُطمَئِنِّينَ لله، المُنيبينَ إليه.

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (35).

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ.

أي: الذين خَشَعَت قلوبُهم لذِكْرِ اللهِ، وخضَعَت مِن خَشيَتِه؛ خَوفًا مِن عِقابِه وسَخَطِه.

كما قال تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [الأنفال: 2].

وقال سُبحانَه: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [الزمر: 23].

وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ.

أي: والصَّابِرينَ على ما يقَعُ عليهم مِن أصنافِ البَلاءِ وأنواعِ الأذى والمصائِبِ، فلا يَجري منهم التسَخُّطُ على ذلك.

كما قال تعالى: وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [البقرة: 155-157].

وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ.

أي: والمؤَدِّينَ الصَّلاةَ كامِلةً مُستقيمةً ظاهِرًا وباطِنًا، فيُحافِظونَ على أوقاتِها وواجباتِها، ويؤَدُّونَها على الوَجهِ الذي أمَرَ اللهُ به.

كما قال تعالى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ... وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ [المؤمنون: 1-9].

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ.

أي: ويُنفِقونَ ممَّا آتيناهم مِن رِزقٍ.(101)

كما قال تعالى: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: 274].

وقال سُبحانَه: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [الأنفال: 2-4].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ

---

(101) قال ابن جرير: (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الأموالِ يُنْفِقُونَ في الواجِبِ عليهم إنفاقُها فيه؛ في زكاةٍ، ونَفَقةِ عِيالٍ، ومَن وجبت عليه نَفَقتُه، وفي سَبيلِ اللهِ).

((تفسير ابن جرير)) (552/16).

وقال ابنُ عاشورٍ: (المرادُ مِن الإنفاقِ: الإنفاقُ على المحتاجينَ الضعفاءِ مِن المؤمنينَ؛ لأنَّ ذلك هو دأبُ المخبتينَ).

((تفسير ابن عاشور)) (261/17).

وممن اختار عمومَ النفقةِ في وُجوهِ البِرِّ: ابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (425/5)، ((تفسير الشوكاني)) (536/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 538).

قال السعدي: (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وهذا يشمَلُ جَميعَ النَّفَقاتِ الواجِبةِ؛ كالزَّكاةِ، والكفَّارة، والنَّفَقةِ على الزَّوجات والمَماليك، والأقاربِ؛ والنَّفَقاتِ المُستحَبَّة؛ كالصَّدَقاتِ بجَميعِ وُجوهِها.

وأتِيَ بـ مِنْ المُفيدةِ للتَّبعيضِ؛ لِيُعلَمَ سُهولةُ ما أمَرَ اللهُ به ورغَّبَ فيه، وأنَّه جزءٌ يَسيرٌ ممَّا رزَقَ اللهُ، ليس للعَبدِ في تحصيلِه قُدرةٌ، لولا تيسيرُ اللهِ له ورِزقُه إيَّاه).

((تفسير السعدي)) (ص: 538).

لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ [الرعد: 21–24].

وقال الله سُبحانه: إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ [فاطر: 29–30].

سورةُ الحَجِّ

الآيتان (36-37)

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)

غريب الكلمات:

وَالْبُدْنَ: أي: الإِبِلَ، وقيل: الإبلَ والبقرَ، جَمعُ بَدَنةٍ، وسُمِّيَتْ بذلك؛ لِعِظَمِ بَدَنِها وضخامتِها، وهو اسمٌ مَأخوذٌ مِن البَدانةِ، وهي: عِظَمُ الجُثَّةِ والسِّمَنُ.

صَوَافَّ: أي: قائماتٍ قد صُفَّت قَوائِمُها في حالِ نَحْرِها، وأصلُها مِنَ الصَفِّ، وهو جَعْلُ الأجسامِ يلي أحَدُها الآخَرَ على مِنهاجٍ واحِدٍ، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استواءٍ في الشَّيءِ، وتساوٍ بينَ شيئَيْنِ في المقَرِّ.

وَجَبَتْ: أي: وقَعَت وسَقَطت، وأصلُ (وجب): يدُلُّ على سُقوطِ الشَّيءِ ووقُوعِه.

الْقَانِعَ: أي: السَّائِلَ الذي يَتعرَّضُ لِما في أيدِي النَّاسِ، مِن: قَنَعَ يقْنَع قُنُوعًا: أي: ذلَّ للسُّؤالِ، فهو مِن القُنُوعِ، بمعنى: المسألةِ، وقيل: القُنوعُ بمعنى القَناعةِ –أي: الرِّضا بالقَليلِ، مِن: قَنِعَ.

وَالْمُعْتَرَّ: أي: المُتعَرِّضَ للنَّوالِ مِن غَيرِ طَلَبٍ ولا سُؤالٍ، يقالُ: اعْتَرَّني وعَرَّني، وعَراني واعْتَراني، أي: ألَمَّ بك لتعطيَه ولا يسألُ، وقيل: هو الذي يُطيفُ بك يَطلُبُ ما عِندَك، سألَك أو سكَت عن السُّؤالِ.

تفسير الآيتين:

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36).

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ.

أي: والإبِلَ الضِّخامَ العِظامَ الأجسامِ -وفي حُكمِها البقرُ- جعَلْناها لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن أعلامِ دِينِ اللهِ الظَّاهِرةِ التي يُتعبَّدُ ويُتقرَّبُ بها إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فشُرِعَ سَوقُها إلى البَيتِ، وتَقليدُها وإشعارُها، وتعظيمُها، ونَحْرُها والإطعامُ منها.

لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ.

أي: لكم في الإبِلِ مَنافِعُ في الدُّنيا، وأجرٌ في الآخِرةِ.

فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ.

أي: فاذكُروا اسمَ اللهِ عِندَ نَحْرِكم الإبِلَ، وهي قائِمةٌ قد صُفَّت قَوائِمُها.(102)

---

(102) اختُلِفَ في معنى: «صواف» بناءً على اختلافهم في قراءتها، فمن قرأها: «صوافَّ» بتشديد الفاء ونصبها، قال بأن المعنى: مُصْطَفَّة.

ومن قرأها: «صوافي» بالياء، قال بأن المعنى: خالصة لله لا شريك له فيها.

عن زيادِ بنِ جُبَيرٍ، ((أنَّ ابنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أتَى على رَجُلٍ وهو يَنحَرُ بَدَنَته بارِكةً، فقال: ابعَثْها قِيامًا مُقيَّدةً؛ سُنَّةَ نَبيِّكم – ﷺ –)).[103]

فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا.

أي: فإذا سَقَطت الإبِلُ بعد نَحْرِها، ووقَعَت جُنوبُها على الأرضِ، فكُلوا مِن لَحمِها.

وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ.

أي: وأطعِموا منها القانِعَ، وهو: الفَقيرُ السَّائِلُ بتذَلُّلٍ، وأطعِموا منها المُعْتَرَّ، وهو: الذي يأتي مُتعَرِّضًا للنَّوالِ مِن غَيرِ طَلَبٍ ولا سُؤالٍ.[104]

ومن قرأها: «صَوافِن» قال بأن المعنى: مُعَقَّلة.

ورجَّح ابن جرير (١٦/ ٥٥٥، ٥٦٠) قراءة من قرأها: صوافَّ، والمعنى المترتب على هذه القراءة، وهو أنها مُصطَفَّة بين أيديها، معقولة إحدى قوائمها، وهو قول ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد من طريق ليث.

ولم يذكر مستندًا.

(103) رواه البخاري (1713)، ومسلم (1320) واللفظ له.

(104) اختُلِف في معنى: ﴿القانع والمعترّ﴾ على أقوال: الأول: القانع: المستغني بما أعطيته ولا يسأل.

والمعترّ: الذي يتعرض لك ولا يسأل.

الثاني: القانع: الذي يقنع بما عنده ولا يسأل.

والمعترّ: الذي يعتريك فيسألك.

الثالث: القانع: السائل.

والمعترّ: الذي يعتريك ولا يسأل.

الرابع: القانع: الجار.

والمعترّ: الذي يعتريك من الناس.

الخامس: القانع: الطوّاف.

كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

أي: مِثلَ ذلك التَّسخيرِ العَجيبِ الذي تُشاهِدونه ذَلَّلْنا لكم الإبِلَ -أيُّها النَّاسُ- ومكَّنَّاكم مِن التصرُّفِ فيها، فتنتَفِعونَ برُكوبِها والشُّربِ والأكلِ منها؛ لِتَشكُروا اللهَ على نِعمةِ تَسخيرِها لكم.

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ [يس: 71-73].

لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37).

والمعترّ: الصديق الزائر.

السادس: القانع: الطامع.

والمعترّ: الذي يعترُّ بالبدن.

السابع: القانع: المسكين.

والمعترّ: الذي يتعرض للَّحم.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٥٦٩) مستندًا إلى دلالة لفظ الآية، والعقل، واللغة القولَ الثالث، وهو قول الحسن، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم من طريق عبدالله بن عياش، وانتقد مَن قال بأن القانع: المكتفي بما عنده، والمستغني به، فقال: «وأولى هذه الأقوال بالصواب قولُ من قال: عُني بالقانع: السائل؛ لأنه لو كان المعنيّ بالقانع في هذا الموضع المُكتَفي بما عنده والمستغني به لقيل: وأطعموا القانع والسائل، ولم يقل: ﴿وأَطْعِمُوا القانِعَ والمُعْتَرَّ﴾.

وفي إتباع ذلك قوله: ﴿والمُعْتَرَّ﴾ الدليل الواضح على أن القانع معنيٌّ به: السائل، مِن قولهم: قنع فلان إلى فلان، بمعنى: سأله وخضع إليه، فهو يقنَع قُنوعًا؛ ...

وأما» القانع «الذي هو بمعنى المُكتَفي، فإنه من: قَنِعتُ به -بكسر النون- أقنع قناعةً وقَنَعًا وقنعانًا.

وأما» المعتر «: فإنه الذي يأتيك معترًا بك لتعطيه وتطعمه».

لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا.

أي: لن يَصِلَ إلى اللهِ شَيءٌ مِن لحومِ بُدْنِكم، ولا دِمائِها المُهراقةِ، ولم يَشرَعْ ذَبحَها لذلك؛ فهو غنيٌّ عنكم وعنها.

وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ.

أي: ولكِنَّ الذي يَصِلُ إلى اللهِ ويَبلُغُه: تَقواكم وإخلاصُكم العمَلَ له وَحْدَه، فيتقَبَّلُه منكم، ويُثيبُكم عليه إنِ اتَّقَيتُموه فيما تَذبَحونَه مِنَ البُدْنِ، وأرَدْتُم بذلك وَجْهَه وَحْدَه، لا فَخرًا ولا رياءً، ولا سُمعةً ولا مُجَرَّدَ عادةٍ؛ وعَظَّمتُم بها حُرُماتِه، وعَمِلتُم فيها بما أمَرَكم به؛ فليس المقصودُ مُجَرَّدَ ذَبحِها فحَسْبُ.

كما قال تعالى: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ [فاطر: 10].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم)).(105)

(105) رواه مسلم (2564).

كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ.

أي: هكذا سخَّرَ اللهُ لكم البُدْنَ؛ كي تَعرِفوا عظَمَتَه باقتدارِه على ما لا يَقدِرُ عليه سِواه، فتُوَحِّدُوه بالكِبرياءِ؛ شُكرًا له في مقابِلِ توفيقِه إيَّاكم لِدينِكم، وللنُّسُكِ في حَجِّكم.

وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ.

أي: وبَشِّرْ -يا مُحمَّدُ- المُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، وفي مُعامَلتِهم لعبادِ اللهِ، بالسَّعادةِ في الدُّنيا والآخرة.

كما قال تعالى: وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ [البقرة: 58].

وقال سُبحانَه: إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [الأعراف: 56].

وقال تبارك وتعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ [يونس: 26].

وقال عزَّ مِن قائلٍ: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97].

وقال عزَّ وجَلَّ: هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ [الرحمن: 60].

سورةُ الحَجِّ

الآيات (38–41)

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ
بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ
يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ
وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ
إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ
عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)

غريب الكلمات:

خَوَّانٍ: أي: مُبالِغٍ في الخيانةِ بالإصرارِ عليها، والخِيانةُ: مُخالفةُ الحَقِّ بنَقضِ العَهدِ، وأصلُ (خون): يدُلُّ على نُقصانِ الوَفاءِ.

صَوَامِعُ: أي: مَنازِلُ الرُّهبانِ، جَمعُ صَومَعةٍ، وهي كلُّ بناءٍ مُتصَمّعِ الرَّأسِ، أي: متلاصقِه، وسُمِّيَت صومعةً؛ لانضمامِ طرَفَيْها، أو لأنَّها دقيقةُ الرَّأْسِ، وأصلُ (صمع): يدُلُّ على لَطافةٍ في الشَّيءِ وتَضامٍّ.

وَبِيَعٌ: أي: كنائِسُ النَّصارى، جَمعُ بِيعَةٍ، ولا يُعرَفُ أصلُ اشتِقاقِها، ولعَلَّها مُعَرَّبةٌ عن لُغةٍ أُخرى، قيل: هي الفارسيةُ.

وَصَلَوَاتٌ: أي: كَنائِسُ اليَهودِ، وهي بالعِبرانيَّةِ صَلُوتَا، وقيل: مواضعُ صلواتٍ، ويُسمَّى موضعُ العبادةِ الصَّلاةَ.

تفسير الآيات:

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38).

أي: إنَّ اللهَ يدْفَعُ شرَّ الكُفَّارِ وكَيدَ المُشرِكينَ عن عبادِه المؤمِنينَ، فيُنَجِّيهم، ويَحفَظُهم، ويَنصُرُهم.(106)

كما قال تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ [غافر: 51].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ يَدْفَعُ مِن دَفَع يَدفَعُ، والفِعلُ مِن طَرَفِه وَحْدَه.(107)

2- قراءة يُدَافِعُ مِن دافَع يُدافِعُ، وهو بمعنى دفَعَ، وإن كان مِنَ المُفاعَلةِ، مِثلُ: عاقَبْتُ اللِّصَّ، وعافاه اللهُ. وقيل: على معنى تكرُّرِ الفِعلِ؛ أي: يدفَعُ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ.(108)

---

(106) وهذا المعنى المذكورُ هو في الجُملة اختيار: ابنِ جَرير، وابن كَثير، وابنِ عاشور، والشِّنقيطي.

وذهَب السعديُّ إلى معنًى أعمَّ من ذلك، فقال: (الله يُدافِعُ عنهم كلَّ مكروهٍ، ويَدفعُ عنهم كُلَّ شرٍّ بسَببِ إيمانِهم؛ مِن شرِّ الكفَّارِ، وشرِّ وَسوسةِ الشَّيطانِ، وشُرورِ أنفُسِهم، وسيِّئاتِ أعمالِهم، ويَحمِلُ عنهم عندَ نزولِ المكارهِ ما لا يَتحمَّلونَ، فيُخفِّفُ عنهم غايةَ التَّخفيفِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 539).

(107) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب البصري.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/326).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/182)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 477، 478)، ((الكشف)) لمكي (2/120).

(108) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/326).

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مَن يَخونُ أمانَته فيَبخَسُ حُقوقَ اللهِ عليه، ويُخالِفُ أمْرَه ونَهْيَه، ويَخونُ حُقوقَ عِبادِه فيَنقُضُ العَهدَ الذي بينه وبينَهم، ويَجحَدُ نِعَمَ اللهِ عليه، ولا يَشكُرُه عليها.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39).

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا.

أي: أَذِنَ اللهُ للمُؤمنينَ في قِتالِ الكُفَّارِ الذين يُقاتِلونَهم؛ وذلك بسَبَبِ ظُلمِهم لهم، بمُحارَبتِهم في دِينِهم وأذِيَّتِهم، وإخراجِهم مِن ديارِهم.(109)

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/182)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 478)، ((الكشف)) لمكي (2/120)، ((البسيط)) للواحدي (15/422).

(109) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (3/273)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (13/56)، ((تفسير السعدي)) (ص: 539)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (5/262).

قال مكيُّ بن أبي طالب: (الآيةُ ناسِخةٌ عند الجميعِ لكُلِّ ما في القرآنِ مِن الأمرِ بالصَّفحِ عنهم، والصَّبرِ على أذاهم، والمَنعِ مِن قتالِهم).

((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (7/4898).

وقال أبو بكرٍ بنُ العربيّ: (هذه الآيةُ ناسِخةٌ لكُلِّ آيةٍ في القُرآنِ تَقتَضي التوقُّفَ عن القِتالِ؛ مِن تَركٍ وإعراضٍ، وصَفحٍ ونحوِه...)، ثمَّ ذكَر قَولَ مَن قال: إنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ بقَولِه تعالى: وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ [الأعراف: 180] ، وقال: (بل الآيةُ بالإذنِ في القِتالِ نَسَخت هذه الآيةَ؛ لأنَّها نَسَخت أمثالَها بإجماعٍ مِن الأمَّةِ، ويَستحيلُ أن يبقى التَّركُ مع الأمرِ بالقِتالِ، فكُلُّ ما في القرآنِ مِن نَظائِرِه فإنَّه جميعَه منسوخٌ به).

((الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم)) (2/304).

ويُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: 570).

قال الشوكاني: (هذه الآيةُ مقرِّرةٌ أيضًا لمضمونِ قولِه: إنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ؛ فإنَّ إباحةَ القِتالِ لهم هي مِن جملةِ دفْعِ اللهِ عنهم).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ يُقَاتَلُونَ على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ أي: يقاتِلُهم الكُفَّارُ.(110)

2- قراءةُ يُقَاتِلُونَ بإسنادِ الفِعلِ إلى الفاعِلِ؛ أي: هم يُقاتِلون الكفَّارَ الذين بَدؤُوهم بالقتالِ.(111)

((تفسير الشوكاني)) (540/3).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (أوَّلُ آيةٍ نَزَلت في القتالِ قَولُه تعالى: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ [الحج 39]، فأذِنَ اللهُ لهم أوَّلًا فيه، ثمَّ كُتِبَ عليهم ثانيًا فقال: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ [البقرة 216]).

((الصفدية)) (317/2).

وقال البِقاعي: (لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ أي: للَّذين فيهم قوَّةُ المدافعة، في المدافعةِ بالقِتالِ بعدَ أنْ كانوا يُمنَعون منه بمكَّة ويُؤمَرون بالصفحِ).

((نظم الدرر)) (56/13).

وقال الشِّنقيطيُّ: (دلَّ قوله: يُقَاتَلُونَ على أنَّ المرادُ مَن يَصلُح للقِتالِ منهم دونَ مَن لا يصلُحُ له؛ كالأعمى والأعرجِ، والمريضِ والضعيفِ، والعاجزِ عن السَّفرِ للجِهادِ لفَقرِه).

((أضواء البيان)) (262/5).

(110) قرأ بها نافعٌ، وحفصٌ عن عاصمٍ، وابنُ عامر، وأبو جعفر المدني.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (326/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (281/5)، ((معاني القراءات)) للأزهري (182/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 478، 479).

(111) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (326/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (571/16)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (281/5)، ((الكشف)) لمكي (121/2)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (262/5).

قال ابن زَنْجَلَة: (قال عاصمٌ: لو كانتْ «يُقاتِلون» بكسر التاء، ففيمَ أُذِنَ لهم؟ فكأنَّهم ذهبوا إلى أن المشركين قد كانوا بَدؤوهم بالقتال، فأذِنَ اللهُ لهم حين قاتلوا أنْ يُقاتِلوا مَن قاتلهم

وهو وجهٌ حسَنٌ).

وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ.

أي: وإنَّ اللهَ على نَصرِ المُؤمِنينَ على أعدائِهم لقديرٌ، ولو بغيرِ قِتالٍ.

كما قال الله تعالى: ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ [محمد: 4].

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40).

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ.

أي: الذين أخرَجَهم الكُفَّارُ ظُلمًا مِن دِيارِهم بغيرِ حَقٍّ يُوجِبُ ذلك، وما كان لهم ذَنبٌ يَنقِمُ عليهم أعداؤُهم بسَبَبِه إلَّا أنَّهم قالوا ربُّنا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له!

كما قال تعالى: يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ [الممتحنة: 1].

((حجة القراءات)) (ص: 479).

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ.

أي: ولولا كفُّ اللهِ المُشركينَ بالمُجاهِدينَ المُوحِّدين، وشَرْعُه جهادَهم، لهدَّمَ المُشرِكونَ مَواضِعَ العِبادةِ التي اتُّخِذَت قبْلَ الإسلامِ مِن أتباعِ الأديانِ السَّماويَّةِ قبْلَ تحريفِها وتَبديلِها، فأذِنَ للمُسلِمينَ بالقِتالِ كما أذِنَ لأُمَمِ التَّوحيدِ مِن قَبلِهم؛ لكيلا يطغَى عليهم المُشرِكونَ، ولولا ذلك لهَدَّموا المعابِدَ الصَّغيرةَ التي للرُّهبانِ.(112)

---

(112) قال ابن عطية: (قَولُه وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ ...
الآيةَ، تقويةٌ للأمرِ بالقتالِ، وذَكَرَ الحُجَّةَ بالمصلحةِ فيه، وذكر أنَّه متقَدِّمٌ في الاسمِ، وبه صلحت الشرائعُ، واجتمعت المتعَبَّدات، فكأنَّه قال: أُذِنَ في القتالِ فلْيُقاتِلِ المؤمنونَ، ولولا القتالُ والجهادُ لتُغلِّب على الحقِّ في كلِّ أمَّةٍ.
هذا أصوبُ تأويلاتِ الآيةِ).
((تفسير ابن عطية)) (124/4).
وقال أيضًا: (ومعاني هذه الأسماءِ هي في الأُمَمِ التي لها كتابٌ على قديمِ الدَّهرِ، ولم يُذكَرْ في هذه المجوسُ ولا أهلُ الإشراك؛ لأنَّ هؤلاء ليس لهم ما تجبُ حمايتُه، ولا يوجَدُ ذِكرُ اللهِ إلَّا عند أهلِ الشَّرائع).
((تفسير ابن عطية)) (125/4).
وقال القرطبيُّ: (أي: لولا ما شرَعه اللهُ تعالى للأنبياءِ والمؤمنينَ مِن قِتالِ الأعداءِ لاستولَى أهلُ الشِّركِ، وعطَّلوا ما بَنَتْه أربابُ الدِّياناتِ مِن مواضِعِ العباداتِ، ولكنَّه دفع بأنْ أوجبَ القِتالَ؛ ليتفرَّغَ أهلُ الدِّينِ للعبادةِ؛ فالجهادُ أمرٌ متقدِّمٌ في الأمَمِ، وبه صَلَحت الشَّرائعُ، واجتمَعت المُتعبَّداتُ، فكأنَّه قال: أُذِنَ في القتالِ، فليُقاتِلِ المؤمنونَ. ثم قوِّيَ هذا الأمرُ في القِتالِ بقولِه: وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ الآيةَ، أي: لولا القتالُ والجهادُ لتُغلِّب على الحقِّ في كلِّ أمَّةٍ؛ فمَن استبشَع مِن النَّصارى والصَّابئين الجهادَ فهو مُناقِضٌ لِمَذهبِه؛ إذ لولا القتالُ لَمَا بقِيَ الدِّينُ الذي يَذُبُّ عنه، وأيضًا هذه المواضِعُ التي اتُّخِذَت قبْلَ تحريفِهم وتبديلِهم، وقبل نسْخِ تلك المِلل بالإسلامِ: إنَّما ذُكِرَتْ لهذا المعنى، أي: لولا هذا الدَّفعُ لهُدِّمَ في زَمَنِ موسى الكنائسُ، وفي زمَنِ عيسى الصَّوامِعُ والبِيَعُ، وفي زَمَنِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ المساجِدُ).
((تفسير القرطبي)) (70/12).
وقال ابنُ عاشور: (المعنى: لولا دِفاعُ النَّاسِ عن مواضِعِ عِبادةِ المُسلِمينَ لضَرِيَ [أي: لاجْتَرَأَ] المُشرِكونَ، ولَتجاوَزوا فيه المُسلِمين إلى الاعتداءِ على ما يُجاوِرُ بلادَهم مِن أهلِ المِلَلِ الأخرى المُناوِيةِ لِمِلَّةِ الشِّركِ، ولهدَّموا معابدَهم مِن صوامعَ وبِيَعٍ وصلواتٍ ومساجِدَ يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيرًا؛ قصدًا منهم لمحوِ دعوةِ التَّوحيدِ، ومَحْقًا للأديانِ المخالفةِ للشِّركِ...

كما قال تعالى: وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [البقرة: 251].

وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا.

أي: ولهَدَّمَ المُشرِكونَ معابِدَ كَبيرةً للنَّصارى، وكنائِسَ لليَهودِ، ومساجِدَ للمُسلِمينَ، يُذكَرُ فيها[113] اسمُ اللهِ كَثيرًا.

وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ: لولا ما سبَق قبلَ الإسلامِ مِن إذنِ اللهِ لأُمَمِ التَّوحيدِ بقِتالِ أهلِ الشِّركِ -كما قاتَلَ داوودُ جالوتَ، وكما تغلَّب سُليمانُ على مَلِكةِ سَبَأٍ- لَمَحَق المُشرِكونَ معالِمَ التَّوحيدِ).

((تفسير ابن عاشور)) (17/276، 277).

(113) قيل: الضَّميرُ في فِيهَا يعودُ على أقرَبِ مذكورٍ، وهو المساجِدُ، وممَّن قال بذلك: ابن جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/586).

وقيل: هو عائدٌ على جميعِ المعابِدِ المذكورةِ: (الصَّوامِعُ، والبِيَعُ، والصَّلَواتُ، والمساجِدُ)، وممن قال بذلك: السعدي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 539)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/278).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الضحَّاكُ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (8/2497)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/241).

قال ابنُ عاشور: (جملةُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا صفةٌ، والغالب في الصِّفة الواردة بعد جُمَلٍ متعاطفة فيها أنْ تَرجع إلى ما في تلك الجُمل من الموصوف بالصِّفة؛ فلذلك قيل برُجوع صِفة يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ إلى صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ؛ للأربعة المذكورات قَبْلَها، وهي مُعاد ضمير فِيهَا.

وفائدةُ هذا الوصف الإيماءُ إلى أنَّ سبب هدْمِها أنَّها يُذكَر فيها اسمُ الله كثيرًا، أي: ولا تُذكَر أسماءُ أصنام أهل الشرك؛ فإنَّهم لَمَّا أخرجوا المسلمين بلا سببٍ إلَّا أنهم يَذْكرون اسمَ الله، فيقولون: ربُّنا الله؛ لِمَحْو ذِكرِ اسمِ الله مِن بلدهم؛ لا جرَمَ أنَّهم يُهدِّمون المواضعَ المجعولةَ لذِكرِ اسم الله كثيرًا، أي: دون ذِكر الأصنام).

((تفسير ابن عاشور)) (17/278).

أي: ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يجاهِدُ في سَبيلِه؛ لِتكونَ كَلِمتُه هي العُليا.[114]

كما قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد: 7].

إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.

أي: إنَّ اللهَ لقَوِيٌّ كاملُ القوةِ، عزيزٌ منيعٌ، غالبٌ لا يُغلَبُ ولا يُقهَرُ، ومَن كان القويُّ العزيزُ ناصِرَه، فهو المنصورُ ولو كان هو الأضعَفَ، وعَدُوُّه هو المقهورُ ولو كان هو الأقوى.

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41).

(114) وقال الشّنقيطيُّ: (بيَّن اللهُ جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّه أقسَمَ لَيَنصُرَنَّ مَن يَنصُرُه، ومعلومٌ أنَّ نَصرَ اللهِ إنَّما هو باتِّباعِ ما شرَعه؛ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه، ونُصرةِ رُسُلِه وأتْباعِهم، ونُصرةِ دينِه، وجِهادِ أعدائِه وقَهرِهم؛ حتى تكونَ كَلِمتُه جلَّ وعلا هي العُليا، وكلمةُ أعدائِه هي السُّفلى).

((أضواء البيان)) (5/265).

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ.

أي: الذين إنْ وَطَّنَّا لهم في البلادِ فقهَروا المُشرِكِينَ، وصارت لهم السُّلطةُ والغَلَبةُ والمُلْكُ، أقاموا الصَّلاةَ بحُدودِها وأركانِها وشُروطِها وواجباتِها، وأعطَوا زكاةَ الأموالِ لِمُستَحقِّيها.

وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ.

أي: وأمَروا النَّاسَ بالإيمانِ وتَوحيدِ اللهِ وطاعتِه، ونَهَوهم عن الكُفرِ والشِّركِ به ومَعصِيتِه.[115]

وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تَرجِعُ أمورُ الخَلقِ، وتَصيرُ إليه سُبحانَه.[116]

---

(115) قال السعدي: (وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وهذا يَشمَلُ كُلَّ معروفٍ حُسنُه شرعًا وعَقلًا مِن حُقوقِ اللهِ وحُقوقِ الآدميِّينَ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ كُلِّ مُنكَرٍ شَرعًا وعَقلًا معروفٍ قُبحُه، والأمرُ بالشَّيءِ والنَّهيُ عنه يدخُلُ فيه ما لا يَتِمُّ إلَّا به؛ فإذا كان المعروفُ والمُنكَرُ يتوقَّفُ على تعلُّمٍ وتعليمٍ أجبَروا النَّاسَ على التعَلُّم والتَّعليمِ، وإذا كان يَتوقَّفُ على تأديبٍ مُقدَّرٍ شَرعًا أو غيرِ مُقدَّرٍ -كأنواعِ التَّعزيرِ- قاموا بذلك، وإذا كان يَتوقَّفُ على جَعْلِ أُناسٍ مُتصدِّين له لزِمَ ذلك، ونحوُ ذلك ممَّا لا يتمُّ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المُنكَرِ إلَّا به).

((تفسير السعدي)) (ص: 540).

(116) قيل: وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ أي: في الآخرة.

وممن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والواحدي، والبغوي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (130/3)، ((تفسير ابن جرير)) (588/16)، ((تفسير السمرقندي)) (462/2). ((الوجيز)) للواحدي (ص: 735)، ((تفسير البغوي)) (344/3).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: ولله آخرُ أمورِ الخلقِ؛ يعني: أنَّ إليه مصيرَها في الثوابِ عليها، والعقابِ في الدارِ الآخرةِ).

((تفسير ابن جرير)) (588/16).

وقال البغوي: (يعني: آخرُ أمورِ الخلقِ ومَصيرُهم إليه؛ يعني: يُبْطَلُ كلُّ مُلْكٍ سِوَى ملكِه، فتصيرُ الأمورُ كلُّها إليه، بلا مُنازِعٍ ولا مُدَّعٍ).

كما قال تعالى: وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ *كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ [آل عمران: 109–111].

((تفسير البغوي)) (344/3).

وقال السعديُّ: (وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ أي: جميع الأمور ترجِع إلى الله، وقد أخبر أنَّ العاقبة للتقوى؛ فمَن سلَّطه اللهُ على العِباد من الملوك، وقام بأمْرِ الله، كانتْ له العاقبةُ الحميدة، والحالةُ الرشيدة، ومَن تَسلَّط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوَى نفْسِه، فإنَّه وإنْ حصَل له مُلكٌ مُوقَّتٌ، فإنَّ عاقبتَه غيرُ حميدة؛ فولايتُه مشؤومة، وعاقبتُه مذمومة).

((تفسير السعدي)) (ص: 540).

وقال البِقاعي: (وَلِلَّهِ، أي: المَلِكِ الأعلى المحيط بكُلِّ شيء عَاقِبَةُ الْأُمُورِ فتَمكينُهم كائنٌ لا محالةَ، لكنْ ذِكرُه للعاقبةِ وطيُّه للبادئةِ مُنبِّهٌ على أنه تعالى يَجعلُ للشيطان -كما هو المشاهَد في الأغلب- حظًّا في البادئة؛ ليتبينَ الصادقُ من الكاذب، والمزلزلُ مِن الثابت، وأمَّا العاقبةُ فهي مُتمحِّضة له إلى أنْ يكونَ آخِرُ ذلك القيامةَ التي لا يكونُ لأحدٍ فيها أمرٌ، حتى إنَّه لا يَنطِقُ أحدٌ إلَّا بإذنٍ خاصٍّ).

((نظم الدرر)) (60/13).

سورةُ الحَجِّ

الآيات (42–45)

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ
(43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ
(44) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ
مَشِيدٍ (45)

غريب الكلمات:

فَأَمْلَيْتُ: أي: أمهَلْتُ وأطَلْتُ لهم المُدَّةَ، وأصلُ الإملاءِ: يدُلُّ على امتِدادِ زَمانٍ أو غَيرِه.

نَكِيرِ: أي: نَكالي وعِقابي وانتِصاري لرُسُلي، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المعرفةِ.

خَاوِيَةٌ: أي: خاليةٌ ساقِطةٌ، وأصلُ (خوي): يدُلُّ على الخُلوِّ والسُّقوطِ.

عُرُوشِهَا: أي: سُقوفِها، وأصلُ (عرش): يدُلُّ على الارتِفاعِ في شَيءٍ مَبنيٍّ.

مُعَطَّلَةٍ: أي: مَتروكةٍ على هيئَتِها، وأصلُ (عطل): يدُلُّ على خُلوٍّ وفَراغٍ.

مَشِيدٍ: أي: مُطَوَّلٍ مُرتَفِعٍ؛ مِن قَولِهم: شاد بناءَه: إذا رفَعَه. وقيل: مُجَصَّص؛ مِنَ الشِّيدِ، وهو الجِصُّ.

تفسير الآيات:

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42).

أي: وإن يُكذِّبْك -يا مُحَمَّدُ- قَومُك المُشرِكونَ على ما جِئْتَهم به مِنَ الحَقِّ، فذلك سنَّةُ إخوانِهم مِن الأُمَمِ الخاليةِ المكذِّبةِ لرُسُلِ اللهِ، ولستَ بأوَّلِ رَسولٍ كُذِّبَ؛ فقد كذَّبَت قَبلَ قَومِك قومُ نوحٍ، وعادٌ: قومُ هودٍ، وثمودُ: قومُ صالحٍ.(117)

كما قال تعالى: كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ [الشعراء: 105].

وقال سُبحانَه: كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ [الشعراء: 123].

وقال تبارك وتعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ [الشعراء: 141].

وقال عز وجل: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ [الأحقاف: 35].

وقال عز مِنْ قائل: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ [ق: 12-14].

---

(117) قال القرطبي: (هذا تَسليةٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتعزيةٌ، أي: كان قبْلَك أنبياءُ كُذِّبوا، فصَبَروا إلى أن أهلَكَ اللهُ المكذِّبينَ؛ فاقتَدِ بهم واصبِرْ).

((تفسير القرطبي)) (73/12).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (588/16، 589)، ((تفسير ابن كثير)) (437/5).

وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43).

أي: وكذَّب قَبلَ قَومِك –يا مُحَمَّدُ– قومُ إبراهيمَ، وقومُ لوطٍ.

كما قال تعالى: وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ [الأنعام: 80].

وقال سُبحانَه: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ [الشعراء: 160].

وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44).

وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ.

أي: وكذَّب قومُ شُعَيبٍ.

كما قال تعالى: كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ [الشعراء: 176].

وَكُذِّبَ مُوسَى.

أي: وكذَّب فِرعَونُ وقَومُه رسولَهم مُوسى.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ [القمر: 41–42].

وقال سُبحانَه: وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً [الحاقة: 9-10].

فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ.

أي: فأمهَلْتُ الكافِرينَ فلمْ أُعاجِلْهم بالعُقوبةِ لَمَّا كَذَّبوا رسُلَهم، ثمَّ أخَذْتُهم بالعذابِ في الوقتِ المحدَّدِ لإهلاكِهم.

كما قال تعالى: وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ [الرعد: 32].

وقال عزَّ وجلَّ: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [العنكبوت: 40].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله - ﷺ -: ((إنَّ اللهَ لَيُملِي للظَّالِمِ حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه. قال: ثمَّ قرأ: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود: 102])).(118)

(118) رواه البخاري (4686) واللفظ له، ومسلم (2583).

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ.

أي: فانظُرْ -يا مُحَمَّدُ- كيف كانت مُعاقَبتي لهم؟ فلْيَعتَبِرْ بذلك هؤلاء المكَذِّبونَ مِن قَومِك أن يُصيبَهم ما أصاب أولئك؛ فإنَّهم ليسوا خَيرًا منهم!

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45).

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا.

أي: فكثيرٌ مِنَ القُرى[119] أهلَكْنا أهلَها بالعَذابِ الشَّديدِ؛ بسَبَبِ ظُلمِهم، فصارت بيوتُهم مُهَدَّمةً قد سقَطَت جُدرانُها فوقَ سُقوفِها.[120]

وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ.

---

(119) قال الشنقيطي: (لفظُ القَريةِ يُطلَقُ تارةً على نفسِ الأبنيةِ، وتارةً على أهلِها السَّاكنينَ بها؛ فالإهلاكُ في قَولِه تعالى: أَهْلَكْنَاهَا، والظُّلمُ في قَولِه تعالى: وَهِيَ ظَالِمَةٌ: يُرادُ به أهلُها السَّاكِنونَ بها، وقَولُه تعالى: فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا يُرادُ به الأبنيةُ).
((أضواء البيان)) (5/269).

(120) قال الشنقيطي: (المعنى: أنَّ السُّقوفَ سَقَطت ثمَّ سَقَطت عليها حِيطانُها، على أظهَرِ التَّفسيراتِ).
((أضواء البيان)) (5/270).

أي: وكثيرٌ مِن الآبارِ الصَّالِحةِ للانتِفاعِ عَطَّلْناها بإهلاكِ أهلِها وواردِيها، فلا يُستقَى منها مع بقاءِ بِنائِها وفَوَرانِ مائِها! وكثيرٌ مِن القُصورِ العاليةِ المجصَّصةِ المَنيعةِ المُحكَمةِ خَلت من سُكَّانِها بعد هَلاكِهم، فغَدَت مُوحِشةً، بعد أن كانت بأهلِها عامِرةً ومُؤنسةً!

كما قال تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا [الطلاق: 8–9].

سورةُ الحَجِّ

الآيات (46-48)

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48)

تفسير الآيات:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46).

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا.

أي: أفلمْ يَسِرْ كُفَّارُ قُرَيشٍ في الأرضِ؛ لِيَنظُروا آثارَ الأُمَمِ المُكَذِّبةِ مِن قَبلِهم، فيتسَبَّب عن ذلك أن تكونَ لهم قلوبٌ واعِيةٌ يَعقِلونَ بها ما رأَوه في الآياتِ المَرئِيَّاتِ مِنَ الدَّلالةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وقُدرتِه وغيرِ ذلك، فيتَفكَّروا ويتَّعِظوا قبْلَ أن يَحُلَّ بهم ما أصاب أولئكَ القومَ؟![121]

كما قال تعالى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [غافر: 82].

---

(121) قال ابن عجيبة: (السَّـيرُ في الأرضِ: إمَّا حِسِّـيٌّ، أو معنويٌّ باعتبارِ سَماعِ أخبارها مِنَ الغيرِ، أو قراءتِها في الكُتُبِ؛ فقولُه: فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ: راجِعٌ للسيرِ الحِسيِّ، وقولُه: أَوْ آذَانٌ للسَّيرِ المَعنويِّ).

((البحر المديد)) (541/3).

ويُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (192/3).

وقال ابنُ القيم: (كلُّ مَوضعٍ أمَرَ اللهُ سُبحانَه فيه بالسَّيرِ في الأرضِ، سواءٌ كان السَّيرَ الحِسِّيَّ على الأقدامِ والدَّوابِّ، أو السَّيرَ المَعنويَّ بالتفكُّرِ والاعتبارِ، أو كان اللَّفظُ يَعُمُّهما –وهو الصَّوابُ؛ فإنَّه يدُلُّ على الاعتبارِ والحَذَرِ أن يَحُلَّ بالمُخاطَبِينَ ما حَلَّ بأولئك).

((إعلام الموقعين)) (103/1).

وقال سُبحانَه: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا [مُحَمَّد: 10].

أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا.

أي: أو يتسبَّبَ عن سَيرِهم ورُؤيَتِهم آثارَ مَن سَبَقَهم مِن أُمَمِ الكُفرِ أن تكونَ لهم آذانٌ واعِيةٌ يَسمعَونَ بها سَماعَ تَدَبُّرٍ وعِظَةٍ، فيُمَيِّزوا بين الحَقّ والباطِلِ، ويَعرِفوا أخبارَ الأُمَمِ الماضيةِ، وسَبَبَ هلاكِهم، فيَحذَروا أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم؟!

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ.

أي: لا تَعمى أبصارُ الكُفَّارِ؛ فأَعيُنُهم مُبصِرةٌ يَرَونَ بها المَرئيَّاتِ، ولكِنَّ قُلوبَهم هي التي تَعمَى عن رُؤيةِ الحَقائِقِ وإدراكِها، والانتِفاعِ بها، فهذا هو العمَى المُهلِكُ لصاحِبِه.

كما قال تعالى: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ [البقرة: 171].

وقال سُبحانَه: وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا [الإسراء: 72].

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ

.(47)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ.

أي: ويَستعجِلُك الكُفَّارُ -يا مُحَمَّدُ- بنُزولِ عَذابِ اللهِ عليهم جَزاءَ شِرْكِهم به، واللهُ لن يُخلِفَ ما وعَدَ به مِن ذلك، وهو واقِعٌ بهم حَتْمًا في وَقتِه المَحَدَّدِ.(122)

كما قال تعالى: وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [الأنفال: 32].

وقال سُبحانَه: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ [العنكبوت: 53-54].

وقال عزَّ وجَلَّ: وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ [ص: 16].

وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ.

أي: هُم يَستعجِلونكَ بالعذابِ، ولكنَّ اللهَ تعالى حليمٌ لا يَعجَلُ به؛ فإنَّ مِقدارَ ألْفِ سَنةٍ عِندَ خَلْقِه كيَومٍ واحدٍ عِندَه، فالطَّويلُ عِندَهم مِنَ الزَّمنِ قَصيرٌ عِندَه، وليس عذابُهم عِندَه ببعيدٍ، فلا بدَّ مِن

---

(122) وممن ذهب إلى أنَّ ذلك قد وقع عليهم يومَ بَدرٍ بقَتْلِهم: مقاتلٌ، وابنُ جريرٍ، والثعلبي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (131/3)، ((تفسير ابن جرير)) (596/16)، ((تفسير الثعلبي)) (28/7)، ((تفسير البغوي)) (345/3)، ((تفسير الخازن)) (260/3)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 440).

وذهب ابنُ كثيرٍ والسعدي إلى أنَّ ذلك واقعٌ بهم في الآخرة.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (439/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 541).

وُقوعِه لا مَحالةَ، فهو على الانتقامِ قادرٌ، لا يَفوتُه شَيءٌ، ولا فَرْقَ بيْن وُقوعِ ما يَستَعجِلون به مِنَ العذابِ وتأخُّرِه في القُدرةِ، إلَّا أنَّه تَفضَّلَ بالإمهالِ؛ فلذلك لا يَعجَلُ بعقوبةِ مَن أرادَ عقوبتَه حتَّى يَبلُغَ غايةَ مُدَّتِه وإنْ تَطاوَلُوها، واستَبطَؤوا نُزولَ العذابِ، فإنَّ اللهَ يُمهِلُ المُدَدَ الطَّويلةَ ولا يُهمِلُ، حتَّى إذا أَخَذَ الظَّالِمينَ بعذابِه لَمْ يُفْلِتْهُم.

كما قال تعالى: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ [السجدة: 5].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((يَدخُلُ فُقَراءُ المُسلمينَ الجَنَّةَ قَبلَ أغنيائِهم بنصفِ يومٍ، وهو خَمسُ مئةِ عامٍ)).(123)

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48).

أي: وكَثيرٌ مِن القُرى أمهَلْتُ أهلَها، ولم أُعاجِلْهم بالعُقوبةِ، مع ظُلمِهم بالشِّركِ والعِصيانِ، ثُمَّ عاقَبْتُهم في الدُّنيا، ومَرجِعُهم في الآخرةِ إليَّ، فأُعَذِّبُهم فيها أيضًا؛ فلْيَحذَرْ هؤلاء الظَّالِمونَ مِن ذلك، ولا يَغتَرُّوا بإمهالِ اللهِ لهم.

---

(123) أخرجه الترمذي (2354) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11348)، وابن ماجه (4122)، وأحمد (9823) صححه الترمذي، وابن حبان في ((الصحيح)) (676)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (9823)، وقال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (138/4): رواته محتجٌّ بهم في الصحيح، وقال ابن كثير في ((نهاية البداية والنهاية)) (345/2): (مرفوعٌ، إسنادُه على شرطِ مسلمٍ)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2354): (حسن صحيح).

كما قال تعالى: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ [الغاشية: 25–26].

سورةُ الحَجِّ

الآيات (49-51)

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51)

غريب الكلمات:

سَعَوْا: السَّعْيُ: المشيُ السَّريعُ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمرِ، خيرًا كان أو شرًّا، يُقالُ: سعَى في الأمرِ: إذا جَدَّ فيه لقصدِ إصلاحِه أو إفسادِه.

مُعَاجِزِينَ: أي: مُشاقِّينَ مُعانِدينَ مُغالِبينَ، ومعنى المعاجَزةِ في اللُّغةِ: مُحاولةُ عَجْزِ المغالَبِ، يُريدُ كُلُّ واحدٍ أن يُظهِرَ عَجْزَ صَاحِبِه، وأصلُ (عجز): يدُلُّ على ضَعفٍ.

تفسير الآيات:

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49).

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ-: يا أيُّها النَّاسُ،[124] إنَّما أنا لكم نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ، أُخَوِّفُكم عذابَ اللهِ، ولا أملِكُ تَعجيلَ العَذابِ عن وَقتِه ولا تأخيرَه، وليس عليَّ حِسابُكم.[125]

---

(124) قيل: المرادُ بهم هنا: مُشركو قريشٍ.

وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/600)، ((تفسير القرطبي)) (12/78).

وقيل: المرادُ بهم: جميعُ النَّاسِ.

وممن قال بذلك: البقاعي، والسعدي.

يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (13/67)، ((تفسير السعدي)) (ص: 541).

(125) وممَّن قال بأنَّ مُبِينٌ بمعنى بيِّنِ النِّذارةِ وظاهِرِها، في الجملةِ: مقاتلُ بن سليمان، وجلال الدين المحلي، والسعدي، واستظهره الشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/131)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 440)، ((تفسير السعدي)) (ص: 541)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (5/281).

قال ابن جرير: (مُبِينٌ يقول: أبيِّنُ لكم إنذاري ذلك، وأظهِرُه).

((تفسير ابن جرير)) (16/600).

وذهب القرطبيُّ والشوكانيُّ إلى أنَّ معنى مُبِينٌ أي: أُبَيِّنُ لكم ما تحتاجونَ إليه من أمرِ دينِكم.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (12/78)، ((تفسير الشوكاني)) (3/545).

قال الشنقيطيُّ: (قولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: مُبِينٌ الظَّاهِرُ أنَّه الوصفُ مِن «أبان» الرُّباعيَّةِ اللازمةِ التي بمعنى «بان»، والعربُ تقول: أبانَ فهو مُبِينٌ، بمعنى بانَ فهو بَيِّنٌ، مِن اللازمِ الذي ليس بمتعَدٍّ إلى المفعول...

ويحتمِلُ أن يكونَ قَولُه في هذه الآيةِ: مُبِينٌ: اسمَ «أبان» المتعدية، والمفعولُ محذوفٌ؛ للتَّعميمِ، أي: مُبِينٌ لكم في إنذاري كلَّ ما ينفعُكم، وما يضُرُّكم؛ لِتَجتلِبوا النَّفعَ، وتجتَنِبوا الضرَّ.

والأولُ أظهَرُ، والله تعالى أعلمُ).

((أضواء البيان)) (5/281).

كما قال تعالى: إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ [ص: 70].

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50).

أي: فالذين آمنوا بكُلِّ ما وجب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ؛ لهم مِنَ اللهِ سَترٌ لذُنوبِهم، وتَجاوُزٌ عن مُؤاخَذتِهم بها، ولهم رِزْقٌ حَسَنٌ.(126)

كما قال تعالى:... لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [سبأ: 4].

---

(126) ممَّن قال بأنَّ الرِّزقَ الكريمَ لهم في الجنَّة: ابنُ جرير، وابن عطية، والشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (600/16)، ((تفسير ابن عطية)) (128/4)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (281/5).
قال ابنُ كثير: (قال محمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظي: إذا سَمِعتَ اللهَ تعالى يقولُ: وَرِزْقٌ كَرِيمٌ فهو الجنَّةُ).
((تفسير ابن كثير)) (441/5).
وقيل: المرادُ: رِزقٌ في الدُّنيا، ورزقٌ في الآخرة.
وممَّن قال بذلك: البقاعي، وابن عاشور.
يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (13/ 67، 68)، ((تفسير ابن عاشور)) (295/17).
إلَّا أنَّ ابنَ عاشور جعَلَ رِزقَ الدُّنيا مَعنويًّا.
وقولُه: وَرِزْقٌ كَرِيمٌ فيه وَصْفُ الرِّزقِ بالكريمِ، وهو يَجمَعُ وَفْرَتَه وصَفاءَه مِن المُكدِّراتِ.
يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (294/17).

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51).

أي: والذين سَعَوْا في إبطالِ آياتِ القُرآنِ وردِّها، مُعانِدين ومُشاقِّين لله وظانِّين أنَّهم يُعجِزون اللهَ فلا يَقدِرُ عليهم، أو يَغلِبون أولياءَه فلا يَنصُرُهم؛ أولئك في الآخرةِ سُكَّانُ الجحيمِ.(127)

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ [سبأ: 5].

وقال سُبحانَه: وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ [سبأ: 38].

وقال عزَّ وجلَّ: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [العنكبوت: 4].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

(127) قال الشِّنقيطي: (الظَّاهِرُ بحَسَبِ الوَضعِ العربيِّ في قراءة الجمهورِ مُعَاجِزِينَ: هو اقتِضاءُ طَرَفينِ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ لا يُعدَلُ عنه إلَّا لدليلٍ يجِبُ الرجوعُ إليه، والمفاعلةُ تقتضي الطَّرفَينِ إلَّا لدليلٍ يَصرِفُ عن ذلك، واقتِضاءُ المفاعلةِ الطَّرفينِ في الآيةِ مِن طَريقَينِ: الأولى: هي ما قاله ابنُ عَرَفةَ مِن أنَّ معنى مُعَاجِزِينَ في الآية: أنَّهم يُعاجِزون الأنبياءَ وأتباعَهم، فيُحاوِلُ كُلُّ واحدٍ منهما إعجازَ الآخَرِ، فالأنبياءُ وأتباعُهم يُحاوِلون إعجازَ الكُفَّارِ وإخضاعَهم لِقَبولِ ما جاء عن اللهِ تعالى، والكُفَّارُ يُقاتِلون الأنبياءَ وأتباعَهم ويُمانِعونهم؛ لِيُصَيِّروهم إلى العَجزِ عن أمرِ الله، وهذا الوجهُ ظاهِرٌ، كما قال تعالى: وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا [البقرة: 217] ؛ وعليه فمَفعولُ مُعَاجِزِينَ محذوفٌ، أي: مُعاجِزينَ الأنبياءَ وأتباعَهم، أي: مُغالِبينَ لهم؛ لِيُعجِزوهم عن إقامةِ الحَقِّ.

الطريقةُ الثانيةُ: هي التي ذكَرْناها آنفًا عن الزَّجَّاجِ أنَّ معنى مُعاجِزين: ظانِّين أنَّهم يُعجِزونَ رَبَّهم، فلا يَقدِرُ عليهم؛ لِزَعمِهم أنَّه لا يَقدِرُ على بَعثِهم بعد الموتِ...

والوجهُ الأوَّلُ أظهرُ).

((أضواء البيان)) (5/282).

1- قِراءةُ مُعَجِّزِينَ بتشديدِ الجيمِ، قيل معناه: مُبَطِّئِينَ مُثَبِّطِينَ، أي: يُثَبِّطونَ النَّاسَ عن اتِّباعِ الحقِّ. وقيل: معناه: يَنسُبونَ المؤمنينَ إلى العَجزِ.(128)

2- قِراءةُ مُعَاجِزِينَ بالتَّخفيفِ والألف، قيل: معناه: مُعانِدينَ. وقيل: معناه: ظانِّينَ أنَّهم يَغلِبونَ الرَّسولَ وأتباعَه. وقيل معناه: يَحسَبونَ أنَّهم يَفوتونَنا لإنكارِهم البَعثَ والثَّوابَ والعِقابَ، فلا نَقدِرُ على إعادتِهم ومُعاقَبَتِهم!(129)

---

(128) قرأ بها: ابنُ كثير، وأبو عمرو.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (327/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 254)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (284/5)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 481).

(129) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (327/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 254)، ((معاني القراءات)) للأزهري (185/2)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (284/5).
قال ابنُ جريرٍ: (الصَّوابُ مِن القولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّهما قِراءتانِ مَشهورتان؛ قد قَرأَ بكلِّ واحدةٍ منهما علماءُ مِنَ القرَّاءِ، مُتقارِبَتا المعنى؛ وذلك أنَّ مَن عَجَّزَ عن آياتِ اللهِ، فقد عاجزَ اللهَ، ومِن معاجزةِ اللهِ التَّعجيزُ عن آياتِ اللهِ، والعملُ بمعاصيه، وخلافُ أمْرِه.
وكان مِن صِفَةِ القومِ الذين أنزلَ اللهُ هذه الآياتِ فيهم أنَّهم كانوا يُبطِّئون الناسَ عن الإيمانِ باللهِ، واتِّباعِ رسولِه، ويُغالِبون رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَحسَبون أنَّهم يُعجِزونه، ويَغلِبونه، وقد ضَمِن اللهُ له نصْرَه عليهم، فكان ذلك مُعاجزتَهُمُ اللهَ.
فإذْ كان ذلك كذلك، فبأيِّ القِراءتَينِ قَرأَ القارئُ فمُصيبٌ الصَّوابَ في ذلك.
وأمَّا المُعاجَزةُ فإنَّها المُفاعَلةُ، مِنَ العَجْزِ، ومعناه: مغالبةُ اثنَينِ أحدِهما صاحبَه، أيُّهما يُعجِزه فيَغلِبُه الآخرُ ويَقهَرُه.
وأمَّا التَّعجيزُ: فإنَّه التَّضعيفُ، وهو التَّفعيلُ مِنَ العَجْزِ).
((تفسير ابن جرير)) (602/16).

سورةُ الحَجِّ

الآيات (52–54)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54)

غريب الكلمات:

تَمَنَّى: أي: تلا القُرآنَ وقَرَأه، وأُمْنِيَّتِهِ: أي: تِلاوَته، وأصلُ (مني): يدُلُّ على تَقديرِ شَيءٍ؛ لأنَّ القِراءةَ تَقديرٌ ووَضعُ كلِّ آيةٍ مَوضِعَها. وقيل: تَمَنَّى مِنَ التَّمَنِّي المعروفِ.

فَيَنْسَخُ: أي: يُبطِلُ ويُزيلُ، وأصلُ النَّسخِ: يدُلُّ على إزالةِ شَيءٍ بشَيءٍ يتعَقَّبُه.

يُحْكِمُ أي: يخلِّصُ أو يُثبِتُ، وأصلُ (حكم): هو المنعُ.

فَتُخْبِتَ: أي: تخضَعَ وتَلِينَ، وأصلُ (خبت): يدُلُّ على خُشوعٍ.

تفسير الآيات:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52).

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ.

أي: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك –يا مُحمَّدُ– مِن رَسولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تلا وقرَأ[130] ألقَى الشَّيطانُ في قراءتِه الشُّبَهَ والوَساوِسَ؛ لِيَصُدَّ النَّاسَ عن اتِّباعِ ما يَقرَؤُه ويَتْلوه.[131]

---

(130) نسبَ ابنُ الجوزي، والخازنُ، والشنقيطي معنى التمنِّي المذكورِ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/246)، ((تفسير الخازن)) (3/261)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (5/284).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرسعني)) (5/80).

قال ابنُ القيم: (والسَّلَفُ كُلُّهم على أنَّ المعنى: إذا تلا ألقَى الشَّيطانُ في تلاوتِه).

((إغاثة اللهفان)) (1/93).

وممن قال به مِن السلفِ: مجاهدٌ، والضحَّاكُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/609، 610).

ونسَبه الرسعنيُّ لابنِ عباسٍ.

يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (5/80).

وقال ابنُ جرير: (فتأويلُ الكلامِ إذَنْ: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك مِن رَسولٍ ولا نَبيٍّ إلَّا إذا تلا كتابَ اللهِ وقرَأَ، أو حدَّث وتكلَّم؛ ألقى الشَّيطانُ في كتابِ الله الذي تلاهُ وقرأه، أو في حديثِه الذي حدَّث وتكلَّم).

((تفسير ابن جرير)) (16/610).

وقيل: تَمَنَّى في الآيةِ مِنَ التَّمَنِّي المعروف، وهو تمنِّيه إسلامَ أُمَّتِه وطاعتَهم لله ولرُسُلِه.

وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الخازن، والقاسمي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير الخازن)) (3/261)، ((تفسير القاسمي)) (7/254)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/298).

وممن قال مِن السلفِ إنَّ التمنِّي مِن الأمنيَّةِ: محمدُ بن كعب القُرَظي.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/246).

قال الشنقيطي: (ومفعولُ أَلْقَى محذوفٌ؛ فعلى أنَّ تَمَنَّى بمعنى: أحبَّ إيمانَ أمَّتِه وعَلَّقَ أمَلَه بذلك؛ فمفعولُ أَلْقَى يظهَرُ أنَّه من جنسِ الوَساوِسِ، والصَّدِّ عن دينِ اللهِ؛ حتى لا يَتِمَّ للنبيِّ أو الرَّسولِ ما تمنَّى.

ومعنى كونِ الإلقاءِ في أمنيَّتِه على هذا الوجهِ: أنَّ الشَّيطانَ يُلقي وساوِسَه وشُبَهَه؛ لِيَصُدَّ بها عمَّا تَمَنَّاه الرسولُ أو النبيُّ، فصار الإلقاءُ كأنَّه واقعٌ فيها بالصَّدِّ عن تمامِها والحيلولةِ دونَ ذلك).

((أضواء البيان)) (5/284).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (للنَّاسِ فيها قولانِ مَشهوران؛ بَعدَ اتِّفاقِهم على أنَّ التَّمنِّي هو التِّلاوةُ والقرآنُ كما عليه المفسِّرون مِنَ السَّلفِ، كما في قوله: وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ [البقرة: 78] ، وأمَّا مَن أوَّلَ التمنِّي على تَمَنِّي القلبِ، فذاكَ فيه كلامٌ آخَرُ؛ وإنْ قيل: إنَّ الآيةَ تَعُمُّ النَّوعينِ؛ لكنَّ الأوَّلَ هو المعروفُ المشهورُ في التَّفسيرِ، وهو ظاهرُ

القرآنِ، ومُرادُ الآيةِ قَطْعًا؛ لقولِه بَعدَ ذلك: فَيَنْسَــخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّــيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ [الحج: 52، 53].

وهذا كلُّه لا يَكونُ في مُجرَّدِ القلبِ إذا لمْ يتكلَّمْ به النَّبيُّ).

((مجموع الفتاوى)) (15/190، 191).

وممَّن جَمع بين المعاني السَّــابقة: البقاعيُّ؛ حيث قال: (إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أي: تلا على النَّاسِ ما أمرَه اللهُ به، أو حَدَّثَهم به، واشــتهى في نفسِه أن يَقبَلوه؛ حِرصًا منه على إيمانِهم، وشَفَقةً عليهم أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ أي: ما تلاه أو حَدَّث به واشتهى أن يُقبَلَ، مِن الشُّبَهِ والتخيُّلاتِ ما يتلقَّفُه منه أولياؤُه فيُجادِلون به أهلَ الطَّاعةِ؛ لِيُضِلُّوهم).

((نظم الدرر)) (13/70).

وقال الراغب: (لمَّا كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كثيرًا ما كان يبادرُ إلى ما نزَل به الرُّوحُ الأمينُ على قلبِه حتى قيل له: وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ [طه: 114]، وَلَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ [القيامة: 16] ؛ سمَّى تلاوتَه على ذلك تمنِّيًا، ونبَّه أنَّ للشيطانِ تسلُّطًا على مثلِه في أمنيَّتِه، وذلك من حيث بيَّن أنَّ العجلةَ مِن الشَّيطانِ).

((المفردات في غريب القرآن)) (ص: 780).

(131) قال الشـنقيطي: (الذي يَظهَرُ لنا أنَّه الصَّوابُ، وأنَّ القُرآنَ يدُلُّ عليه دَلالةً واضِحةً، وإن لم يَنتَبِهْ له مَن تكلَّم على الآيةِ من المفَسِّرينَ: هو أنَّ ما يلقيه الشَّيطانُ في قراءةِ النبيِّ: الشكوكُ والوساوِسُ المانِعةُ من تصديقِها وقَبولِها، كإلقائِه عليهم أنَّها سِحرٌ أو شِعرٌ، أو أساطيرُ الأوَّلِينَ، وأنَّها مُفتراةٌ على اللهِ ليست مُنزَّلةً مِن عنده.

والدَّليلُ على هذا المعنى: أنَّ اللهَ بَيَّنَ أنَّ الحِكمةَ في الإلقاءِ المذكورِ امتِحانُ الخَلقِ؛ لأنَّه قال تعالى: لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّــيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، ثمَّ قال: وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ؛ فقولُه: وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ الآيةَ، يدُلُّ على أنَّ الشَّــيطانَ يُلقي عليهم أنَّ الذي يَقرَؤه النبيُّ ليس بحَقٍّ، فيُصَــدِّقُه الأشقياءُ، ويكونُ ذلك فِتنةً لهم، ويكَذِّبُه المؤمِنونَ الذين أوتوا العِلمَ، ويَعلَمونَ أنَّه الحَقُّ لا الكَذِبُ، كما يزعم لهم الشَّيطانُ في إلقائِه، فهذا الامتحانُ لا يُناسِبُ شَيئًا زاده الشَّيطانُ مِن نَفْسِه في القراءةِ، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى).

((المصدر السابق)).

وقال ابن تيميَّةَ: (وإذا كان التَّمنِّي لا بدَّ أنْ يَدخُلَ فيه القولُ، ففيه قولان: «الأوَّل»: أنَّ الإلقاءَ هو في سمْعِ المُستَمعينَ، ولمْ يتكلَّمْ به الرَّسولُ.

وهذا قولُ مَن تأوَّلَ الآيةَ بمنعِ جَوازِ الإلقاءِ في كلامِه.

و«الثاني» -وهو الذي عليه عامَّةُ السَّلفِ ومَنِ اتَّبعَهم-: أنَّ الإلقاءَ في نفْسِ التلاوةِ، كما دلَّتْ عليه الآيةُ وسياقُها مِن غيرِ وجهٍ، كما ورَدَتْ به الآثارُ المتعدِّدةُ، ولا مَحذورَ في ذلك إلَّا إذا أُقِرَّ عليه، فأمَّا إذا نَســخَ اللهُ ما أَلْقى الشَّــيطانُ وأَحكَمَ آياتِه فلا مَحذورَ في ذلك).

((مجموع الفتاوى)) (15/191).

فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ.

أي: فيُذهِبُ اللهُ ويُزيلُ ما يُلقيه الشَّيطانُ مِن الباطِلِ في قراءةِ نبيِّه، ولا يتأثَّرُ بباطِله المُؤمنونَ.

ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ.

وقد رُوِيَ في سببِ نُزولِ هذه الآيةِ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرأ بمكَّةَ: وَالنَّجْمِ ، فلمَّا بَلَغَ: أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى [النجم: 19، 20]، أَلْقى الشَّيطانُ على لسانِه: تلك الغَرانيقُ [أي: الأصنامُ] العُلى، وإنَّ شَفاعتَهُنَّ لتُرتَجى! فقال المشركون: ما ذَكَرَ آلهتَنا بخَيرٍ قَبلَ اليومِ! فسَجَد وسَجَدوا؛ فنزلتْ هذه الآيةُ.

قال القرطبي عن هذه الروايةِ وغيرِها: (الأحاديثُ المرويَّةُ في نزولِ هذه الآيةِ ليس منها شَيءٌ يَصِحُّ).

((تفسير القرطبي)) (80/12).

وقال ابنُ كثير: (قد ذكر كثيرٌ مِنَ المفَسِّرينَ هاهنا قِصَّةَ الغرانيقِ، وما كان من رجوعِ كثيرٍ مِنَ المُهاجرةِ إلى أرضِ الحَبَشةِ؛ ظنًّا منهم أنَّ مُشركي قريشٍ قد أسلموا، ولكِنَّها من طرقٍ كُلُّها مُرسَلةٌ، ولم أرَها مُسندَةً مِن وَجهٍ صَحيحٍ، واللهُ أعلمُ).

((تفسير ابن كثير)) (441/5).

وقال الشَّوكانيُّ: (لم يَصِحَّ شيءٌ مِن هذا، ولا ثَبتَ بوجهٍ مِنَ الوُجوهِ، ومع عدَمِ صِحَّتِه –بل بُطلانِه– فقد دفعَه المُحقِّقون بكِتابِ اللهِ سُبحانَه؛ قال اللهُ: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ [الحاقة: 44 – 46]، وقولُه: وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى [النجم: 3] ، وقولُه: وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ [الإسراء: 74]، فنفى المقاربةَ للرُّكونِ، فضْلًا عن الرُّكونِ.

قال البَزَّارُ: هذا حديثٌ لا نَعلَمُه يُروى عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإسنادٍ مُتَّصِلٍ.

وقال البَيهقيُّ: هذه القِصَّةُ غيرُ ثابتةٍ مِن جهةِ النَّقلِ.

ثُمَّ أخَذ يتكلَّمُ أنَّ رُواةَ هذه القِصَّةِ مَطعونٌ فيهم.

وقال إمامُ الأئمَّةِ ابنُ خُزيمةَ: إنَّ هذه القِصَّةَ مِن وضعِ الزَّنادقةِ.

قال القاضي عِياضٌ في الشِّفا: إنَّ الأُمَّةَ أجمَعَتْ فيما طريقُه البَلاغُ أنَّه معصومٌ فيه مِنَ الإخبارِ عن شيءٍ بخلافِ ما هو عليه، لا قصْدًا ولا عَمْدًا، ولا سَهْوًا ولا غلَطًا).

((تفسير الشوكاني)) (546/3).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (237/23).

ويُنظَرُ الكلامُ عن رواياتِ هذه القِصَّةِ وعِلَلِها في: ((نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق)) للألباني (ص: 10) فما بعدها.

أي: ثمَّ يُخَلِّصُ اللهُ آياتِ كِتابِه مِنَ الباطلِ الذي ألقاه الشَّيطانُ، ويَحفَظُها ويُبَيِّنُها، ويُظهِرُ أنَّها وحيٌ مُنزَّلٌ منه بحَقٍّ.(132)

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

أي: واللهُ عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، فيَعلَمُ ما يكونُ مِن الأمورِ، وما يَحدُثُ في خَلْقِه، ومِن جملةِ ذلك عِلمُه بما يُوحيه إلى نبيِّه، وبقَصدِ الشَّيطانِ؛ حَكيمٌ في كُلِّ ما يفعَلُه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللائِقِ به، ومِن جُملةِ ذلك حِكمَتُه في تمكينِ الشَّيطانِ مِن إلقاءِ الباطِلِ، ومِن حِكمَتِه أنَّه لا يَدَعُه حتى يَكشِفَه ويُزيلَه.

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53).

(132) قال الشــــنقيطي: (معنى يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ: يُتقِنُها بالإحكامِ، فيُظهِرُ أنَّها وَحيٌ مُنَزَّلٌ منه بحَقٍّ، ولا يُؤَثِّرُ في ذلك محاولةُ الشيطانِ صَدَّ النَّاسِ عنها بإلقائِه المذكورِ).
((أضواء البيان)) (5/288).

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ.

أي: مِن كَمالِ حِكمَتِه سُبحانَه أنْ مكَّن الشَّيطانَ مِن الإلقاءِ المَذكورِ؛ ليَجعَلَ إلقاءَه فِتنةً للذينَ في قُلوبِهم شَكٌّ ونفاقٌ، ولأصحابِ القُلوبِ القاسيةِ التي لا تَلينُ للحقِّ، ولا تَرْجِعُ إلى الصَّوابِ، وهم المشركونَ.[133]

كما قال تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ [البقرة: 26].

وقال سُبحانَه: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ [الأنعام: 112-113].

---

(133) قيل: المرادُ بالفتنةِ: الاختبارُ، وممن اختاره: ابن جرير، ومكي، والبقاعي، والعليمي.
ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/ 611)، ((الهداية)) لمكي (7/ 4917)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (13/ 72)، ((تفسير العليمي)) (4/ 441).
وقيل: المرادُ بها الضلالةُ، وممن اختاره: القرطبي، والشوكاني.
ينظر: ((تفسير القرطبي)) (12/ 86)، ((تفسير الشوكاني)) (3/ 547).
وقال الشنقيطي: (ومعنَى كونِه: فِتْنَةً لهم أنَّه سَبَبٌ لِتَماديهم في الضَّلالِ والكفرِ).
((أضواء البيان)) (5/ 289).

وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ.

أي: وإنَّ هذَينِ الفريقَينِ لَفي خِلافٍ ومُعانَدةٍ لأمرِ اللهِ، وضَلالٍ بَعيدٍ عن الحقِّ والصَّوابِ؛ بسَبَبِ ظُلمِهم.

كما قال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ [البقرة: 176].

وقال سُبحانَه: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ [فصلت: 52].

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54).

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ.

أي: ولِيَعلَمَ الذين آتاهم اللهُ العِلمَ النَّافِعَ الذي يُفَرِّقونَ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ أنَّ ما أنزَلَه اللهُ هو الحَقُّ لا غيرُه مِمَّا ألقاه الشَّيطانُ، فيُؤمِنوا بالقُرآنِ، ويَعمَلوا به، ويَزدادوا هُدًى.

فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ.

أي: فتَخضَعَ وتَلينَ قلوبُهم للحَقِّ الذي جاء مِن عِندِ اللهِ، وتَطمَئِنَّ به، وتُذعِنَ إليه وتُقِرَّ.

وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

أي: وإنَّ اللهَ لَمُرشِدُ المؤمنينَ إلى طريقِ الحَقّ، ومُوَفِّقُهم لاتِّباعِه واجتِنابِ الباطِلِ، فلا يَضُرُّهم كَيدُ الشَّيطانِ وإلقاؤه الباطِلَ.(134)

كما قال تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ [البقرة: 257].

وقال سُبحانَه: وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى [مريم: 76].

---

(134) قال ابنُ كثير: (وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ أي: في الدُّنيا والآخرة؛ أمَّا في الدنيا فيُرشِدُهم إلى الحَقِّ واتِّباعِه، ويوَفِّقُهم لمخالفةِ الباطِلِ واجتنابِه، وفي الآخرةِ يهديهم إلى الصِّراطِ المُستقيمِ المُوصِلِ إلى دَرَجاتِ الجنَّاتِ، ويُزَحزِحُهم عن العذابِ الأليمِ والدَّرَكاتِ).

((تفسير ابن كثير)) (446/5).

ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 542).

سورةُ الحَجِّ

الآيات (55–57)

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ
(55) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ
(56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (57)

غريب الكلمات:

مِرْيَةٍ: أي: شكٍّ، وقيل: المِرْيةُ: التردُّدُ في الأمرِ، وهو أخصُّ مِن الشَّكِّ.

بَغْتَةً: أي: فجأَةً، وكلُّ ما جاءَ فجأةً فقد بَغتَ، يقال: قد بَغَتَه الأمرُ يَبْغَتُه بغْتًا وبَغتةً، إذَا أتاه فجأةً، وأصْلُ (بغت): مُفاجأةُ الشَّيءِ مِن حيث لا يحتسِبُ.

عَقِيمٍ: أي: لا خَيْرَ فيه للكافرينَ، كأنَّ ذلك اليومَ عليهم يومٌ لا ليلَ لهم بَعدَه؛ مِن العُقمِ: وهو القَطعُ والمَنعُ، يُقالُ: رجُلٌ عَقيمٌ: إذا مُنِعَ مِن الوَلَدِ.

تفسير الآيات:

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55).

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ.

أي: ولا يَزالُ الذين كفَروا في شَكٍّ وريبٍ مِنَ القُرآنِ؛ لإعراضِهم وعنادِهم.

حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ.

أي: هم مُستَمِرُّونَ على تلك الحالِ إلى أن يأتيَهم يومُ القيامةِ فَجأةً، أو يأتيَهم عذابُ يَومٍ عقيمٍ.(135)

---

(135) اختلف المفسِّرون في المرادِ بقَولِه تعالى: عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ فقيل: المرادُ به يومُ القيامةِ.

وممن قال بذلك: أبو حيان، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (528/7)، ((تفسير ابن كثير)) (446/5- 447)، ((تفسير الشوكاني)) (547/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 542)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (291/5).

وممن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الضَّحَّاكُ، وعِكرمةُ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في رواية عنه، والحَسَنُ البصري.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (616/16)، ((تفسير ابن الجوزي)) (246/3)، ((تفسير ابن كثير)) (446/5).

قال الزمخشريُّ: (عن الضَّحَّاكِ أنَّه يومُ القيامةِ، وأنَّ المرادَ بالسَّاعةِ مُقَدِّماتُه، ويجوزُ أن يرادَ بالسَّاعةِ وبِيَومٍ عَقيمٍ: يومُ القيامةِ، وكأنَّه قيل: حتى تأتيَهم الساعةُ أو يأتيَهم عذابُها، فوُضِعَ يَوْمٍ عَقِيمٍ موضِعَ الضَّميرِ).

((تفسير الزمخشري)) (166/3).

وقال ابنُ كثير: (وهذا القَولُ هو الصَّـــحيحُ، وإن كان يومُ بدرٍ مِن جملةِ ما أُوعِدوا به، لكِنَّ هذا هو المرادُ؛ ولهذا قال: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ).

((تفسير ابن كثير)) (446/5، 447).

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56).

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ.

وقال الشنقيطيُّ: (القرينةُ القُرآنيَّةُ هنا دلَّت على أنَّ المرادَ باليَومِ العَقيمِ: يومُ القيامةِ، لا يومُ بَدرٍ، وذلك أنَّه تعالى أتبَعَ ذِكرَ اليَومِ العَقيمِ بقَولِه: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ، وذلك يومُ القيامةِ، وقَولُه: يَوْمَئِذٍ أي: يومَ إذْ تأتيهم السَّاعةُ، أو يأتيهم عذابٌ عَقيمٌ، وكلُّ ذلك يومَ القيامةِ.

فظهر أنَّ اليَومَ العَقيمَ: يومُ القيامةِ، وإن كان يومُ بَدرٍ عَقيمًا على الكُفَّارِ؛ لأنَّهم لا خيرَ لهم فيه، وقد أصابهَم ما أصابهم).

((أضواء البيان)) (5/291).

قيل: سُمِّيَ يومُ القيامةِ عَقيمًا؛ لأنَّه لا ليلةَ بعدَه ولا يومَ، والأيَّامُ كأنَّها نتائجُ؛ لمجيءِ واحدٍ إثرَ واحدٍ، فكأنَّ آخِرَ يومٍ قد عُقِمَ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/130).

وقيل: المرادُ باليَومِ العَقيمِ: يومُ بَدرٍ.

وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والزمخشري، والرسعني -ونسبه لجمهور المفسرين-، وابن جزي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/616، 617)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 738)، ((تفسير الزمخشري)) (3/166)، ((تفسير الرسعني)) (5/83)، ((تفسير ابن جزي)) (2/44)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/308).

ومن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: أُبَيُّ بنُ كعبٍ، وابنُ عبَّاس، وسعيدُ بنُ جُبَير، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وعِكرمةُ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، والسُّدِّي، وابنُ جُرَيج.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/616)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/246)، ((تفسير ابن كثير)) (5/446).

قيل: إنَّما قيل له: يومٌ عَقيمٌ؛ لأنَّهم لم يُنظَروا إلى اللَّيلِ، ولم يُؤَخَّروا فيه إلى المساءِ، لكِنَّهم قُتِلوا قبلَ المساءِ؛ فكان لهم عقيمًا.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/616، 617)، ((تفسير ابن عطية)) (4/130).

وقيل: يومُ بَدرٍ كان عقيمًا عن أن يكونَ للكافرينَ فيه فَرَحٌ أو راحةٌ.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 738).

وقيل غيرُ ذلك.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/166).

أي: السُّلطانُ يومَ القيامةِ لله وَحْدَه، لا مُنازِعَ له فيه، يحكُمُ فيه بالعَدلِ بينَ عِبادِه المؤمنينَ والكافرينَ.(136)

كما قال تعالى: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ [الفاتحة: 4].

وقال سُبحانَه: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ [الفرقان: 26].

وقال عزَّ وجَلَّ: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [غافر: 16].

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

أي: فالذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه وما جاء به مِن عندِ اللهِ تعالى، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحَةَ؛ يكونونَ يومَ القيامةِ في جنَّاتِ النَّعيمِ، يَتنعَّمونَ فيها بأرواحِهم وأبدانِهم.

(136) قال ابنُ عاشور: (الحُكمُ بينهم: الحُكمُ فيما اختَلَفوا فيه مِن ادِّعاءِ كُلِّ فريقٍ أنَّه على الحَقِّ، وأنَّ ضِدَّه على الباطِلِ... فقد يكونُ الحُكمُ بالقولِ، وقد يكونُ بظهورِ آثارِ الحَقِّ لفَريقٍ، وظهورِ آثارِ الباطِلِ لفريقٍ، وقد فصَّلَ الحُكمَ بقَولِه تعالى: فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ، وهو تفصيلٌ لأثَرِ الحُكمِ يَدُلُّ على تفصيلِ أصلِه، أي: ذلك حُكمُ اللهِ بيْنَهم في ذلك اليومِ).
((تفسير ابن عاشور)) (309/17).

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (57).

أي: والذينَ كَفَروا باللهِ ورَسولِه وكذَّبوا بآياتِ القُرآنِ، فأولئك لهم يومَ القيامةِ عَذابٌ مُخْزٍ ومُذِلٌّ في النَّارِ؛ جزاءً لهم على استِكبارِهم عن الحَقِّ، واستِهانتِهم بآياتِ اللهِ ورُسُلِه.[137]

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [غافر: 60].

(137) قال ابنُ جرير: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا باللهِ ورَســولِه وَكَذَّبُوا بآياتِ كتابِه وتَنزيلِه، وقالوا: ليس ذلك مِن عندِ اللهِ، إنَّما هو إفكٌ افتراه مُحَمَّدٌ، وأعانه عليه قَومٌ آخَرون).

((تفسير ابن جرير)) (618/16).

وقال السعدي: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا باللهِ ورُسُلِه وَكَذَّبُوا بآياتِه الهاديةِ للحَقِّ والصَّوابِ، فأعرَضوا عنها، أو عاندوها).

((تفسير السعدي)) (ص: 543).

سورةُ الحَجِّ

الآيات (58–60)

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60)

غريب الكلمات:

مُدْخَلًا: أي: الجنةَ، والمُدخلُ: مكانٌ أو مصدرُ (أدْخَل) أي: إدخالًا، يُقالُ: أدخلتُه مُدْخَلًا، وهذا مُدْخلُه، أي: المكانُ الذي يدخلُ منه وقتَ إدخالِه، والدُّخولُ: نقيضُ الخروجِ، ويُستعمَلُ ذلك في المكانِ، والزَّمانِ، والأعمالِ.

بُغِيَ عَلَيْهِ: أي: ظُلِم، وتُعُدِّي عليه، يُقالُ بَغَى الجرحُ: تجاوَزَ الحدَّ في فسادِه، وأصلُ (بغي): هنا جِنسٌ مِن الفسادِ.

تفسير الآيات:

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58).

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا.

أي: والذين فارَقوا دِيارَهم وأهلِيهم؛ طلبًا لِرضا اللهِ وطاعَتِه، ثُمَّ قُتِلوا أو ماتوا دُونَ قَتلٍ؛ فإنَّ اللهَ سيُثيبُهم رِزقًا كريمًا.(138)

---

(138) قيل: الرزقُ الحَسَنُ يكونُ في الجنَّة.

وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/618، 619)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 739)، ((تفسير ابن كثير)) (5/447).

وممن قال بهذا القول من السلف: السُّدِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/247).

وقيل: الرزقُ الحسنُ: الحلالُ.

وممن قال به مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/247).

قال السعدي: (يحتملُ أنَّ المعنى أنَّ المُهاجِرَ في سبيلِ الله قد تكفَّلَ اللهُ برزقِه في الدُّنيا رِزقًا واسِعًا حَسَنًا، سواءٌ عَلِمَ اللهُ منه أنَّه يموتُ على فِراشِه، أو يُقتَلُ شَهيدًا؛ فكُلُّهم مضمونٌ له الرِّزقُ، فلا يُتوَهَّمُ أنَّه إذا خرج مِن ديارِه وأموالِه سيَفتَقِرُ ويحتاجُ؛ فإنَّ رازِقَه هو خيرُ الرَّازِقينَ، وقد وقع كما أخبَرَ؛ فإنَّ المهاجِرينَ السَّابِقينَ ترَكوا ديارَهم وأبناءَهم وأموالَهم؛ نُصرةً لدينِ اللهِ، فلم يَلبَثوا إلَّا يَسيرًا، حتى فتحَ اللهُ عليهم البلادَ، ومكَّنَهم مِنَ العبادِ، فاجتَبَوا مِن أموالِها ما كانوا به مِن أغنى النَّاسِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 543).

كما قال تعالى: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ [آل عمران: 169].

وقال سُبحانَه: فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ [آل عمران: 195].

وقال تبارك وتعالى: وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ [النساء: 100].

وعن سَلمانَ الفارسيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((رِباطُ[139] يومٍ ولَيلةٍ خَيرٌ مِن صِيامِ شَهرٍ وقِيامِه، وإنْ مات جرى عليه عَمَلُه الذي كان يَعمَلُه، وأُجرِيَ عليه رِزقُه، وأَمِنَ الفَتَّانَ))[140].[141]

---

(139) الرِّباطُ: مُراقبةُ العَدُوِّ في الثُّغورِ المُتاخِمةِ لِبلادِهم بحِراسةِ مَن بها مِن المُسلمينَ.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (5/89).

(140) الفتَّان: الذي يَفتِنُ المقبورَ بالسُّؤالِ فيُعَذِّبُه.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (6/2458).

(141) رواه مسلم (1913).

وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.

أي: وإنَّ اللهَ لَهُو أفضَلُ مَن يَرزُقُ عِبادَه، ويُعطيهم مِن فَضْلِه.(142)

لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59).

لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ.

أي: ليُدخِلَنَّ اللهُ المُهاجِرينَ -الذين قُتِلوا أو ماتوا في سَبيلِه- الجنَّةَ، فيَرضَونَ بذلك، ولا يَبغُونَ بها بَدَلًا؛ جزاءً لهم على خُروجِهم مِن ديارِهم وأوطانِهم في سَبيلِه.(143)

---

(142) قال البقاعي: (لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ يَرزُقُ الخَلقَ عامَّةً؛ البَرَّ منهم والفاجِرَ، فكيف بمَن هاجَرَ إليه؟! ويُعطي عطاءً لا يَدخُلُه عَدٌّ، ولا يَحويه حَدٌّ).

((نظم الدرر)) (77/13).

(143) وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالمُدخَلِ الذي يَرضَونَه: الجنَّةُ: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (620/16)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 739)، ((تفسير ابن كثير)) (447/5).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلف: السُّدِّيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2503/8).

وقال الألوسي: (ومُدْخَلًا: إمَّا اسمُ مكانٍ، أُريدَ به الجَنَّةُ، كما قال السُّدِّيُّ وغيرُه...

أو مَصدرٌ ميميٌّ، وهو على الاحتمال الأوَّلِ مفعولٌ ثانٍ للإدخال، وعلى الثاني مفعولٌ مُطلَقٌ، ووصْفُه بـ يَرْضَوْنَهُ على الاحتمالَينِ لِما أنَّهم يَرَون إذا أُدخِلوا ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلْبِ بشَرٍ.

وقيل على الثاني: إنَّ رِضاهُم لِما أنَّ إدخالَهم مِن غيرِ مَشقَّةٍ تَنالُهم، بل براحةٍ واحترامٍ).

((تفسير الألوسي)) (180/9).

وذهب السعديُّ إلى أنَّ قولَه: لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ إمَّا ما يَفتَحُه اللهُ عليهم مِنَ البُلدانِ، خُصوصًا فتحَ مَكَّةَ المُشَرَّفةِ؛ فإنَّهم دَخَلوها في حالةِ الرِّضا والسُّرورِ، وإمَّا المرادُ به رِزقُ الآخرةِ، وأنَّ ذلك دُخولُ الجَنَّةِ، فتكونُ الآيةُ جَمَعت بينَ الرِّزقَينِ؛ رِزقِ الدُّنيا، ورِزقِ الآخرةِ، وذهب إلى أنَّ اللَّفظَ صالحٌ لذلك كُلِّه، وأنَّ المعنى صَحيحٌ، فلا مانِعَ مِن إرادةِ الجَميعِ.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 543).

وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ.

أي: وإنَّ اللهَ لَعليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بنِيَّةِ مَن يُهاجِرُ ويُجاهِدُ، حَليمٌ لا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ مَن عصاه مِن خَلْقِه، بل يُواصِلُ لهم مِن رِزْقِه، ويَمنَحُهم مِن فَضْلِه.

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60).

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ.

أي: ذلك ومَن عاقَبَ مِن العِبادِ مَن اعتَدَى عليه بمِثلِ اعتِدائِه بالعَدلِ دُونَ زِيادةٍ، ثمَّ ظُلِمَ بالمُعاوَدةِ إلى عُقوبتِه؛ فإنَّ اللهَ يَنصُرُه على مَن ظَلَمَه.

إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.

أي: إنَّ اللهَ كثيرُ العَفوِ والغُفرانِ لعِبادِه المُؤمنينَ.

سورةُ الحَجِّ

الآيتان (61–62)

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)

غريب الكلمات:

يُولِجُ: أي: يُدخِلُ، وأصلُ (وِلج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ.

تفسير الآيتين:

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61).

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ.

أي: ذلك[144] النَّصرُ المَذكورُ كائِنٌ بسَبَبِ أنَّه سُبحانَه قادِرٌ لا يَعجِزُ عن نُصرةِ مَن شاء نُصرتَه، ومِن علاماتِ قُدرتِه الباهِرةِ أنَّه يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ، فيَزيدُ في أحَدِهما ما يَنقُصُه مِنَ الآخَرِ، وبالعَكسِ؛ فتارةً يَطولُ النَّهارُ ويَقصُرُ اللَّيلُ، وتارةً يكونُ بعَكسِ ذلك.[145]

---

(144) ممَّن اختار أنَّ الإشارةَ بـــ ذَلِكَ إشارةٌ إلى نَصرِ المَظلومِ على الظَّالِمِ، المذكورِ في الآياتِ السَّابقةِ: ابنُ جرير، وابن الجوزي، والرسعني، والرازي، والقرطبي، والشوكاني، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/621)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/248)، ((تفسير الرسعني)) (5/87)، ((تفسير الرازي)) (23/245)، ((تفسير القرطبي)) (12/90)، ((تفسير الشوكاني)) (3/550)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/315).

وقيل: المرادُ بالإشارةِ: مَعرِفةُ اتِّصافِه سُبحانَه بالوَصفَينِ المَذكورينِ في الآيةِ السَّابقةِ: إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.

وممَّن قال بهذا المعنى: البقاعي.

يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (13/80).

وقيل: المرادُ: ذلك الذي شرَعَ لكم تلك الأحكامَ الحَسَنةَ العادِلةَ، هو حَسَنُ التصَرُّفِ في تقديرِه وتَدبيرِه، الذي يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ.

وممن قال بهذا المعنى: السعديُّ.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 543).

واختار الشنقيطيُّ أنَّ الإشارةَ ترجِعُ لقولِه: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ [الحج: 56] ، إلى ما ذَكَره مِن نُصرةِ المظلومِ، أي: ذلك المذكورُ مِن كونِ الملكِ له وحْدَه يومَ القيامةِ، وأنَّه الحاكمُ وحْدَه بيْن خَلْقِه، وأنَّه المُدخِلُ الصَّالحين جنَّاتِ النَّعيمِ، والمُعذِّبُ الَّذين كفَروا العذابَ المُهينَ، والنَّاصرُ مَن بُغيَ عليه مِن عِبادِه المؤمنين؛ بسببِ أنَّه القادرُ على كلِّ شَيءٍ، ومن أدلَّةِ ذلك: أنَّه يولِجُ الليلَ في النهارِ.

يُنظر: ((أضواء البيان)) (5/293).

(145) وممَّن اختار المعنى المذكورَ لإيلاجِ كلٍّ مِن اللَّيلِ والنَّهارِ في الآخَرِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، واستظهره الشنقيطي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المراد: إدخالُ ظُلْمةِ هذا في مكانِ ضياءِ ذاك بغيبوبةِ الشَّمسِ، وضياءِ ذاك في مكانِ ظُلمةِ هذا بطُلوعِها.

وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، وابن جزي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/167، 168)، ((تفسير ابن جزي)) (2/45)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/315).

وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ.

أي: وذلك أيضًا بسَبَبِ أنَّه سَميعٌ لِما يقولُ عِبادُه، بَصيرٌ بأحوالِهم وأعمالِهم، حافِظٌ لكُلِّ ذلك، ثمَّ يجازيهم جَميعًا على ما قالوا وما عَمِلوا.(146)

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62).

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ.

أي: ذلك الفِعلُ الذي فعَل -مِن إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ-، واتِّصافُه سبحانَه بكمالِ القدرةِ وتمامِ العلمِ؛ بسَبَبِ أنَّ اللهَ هو الإلهُ الحَقُّ الثَّابِتُ الإلهيَّةِ، الذي يَستحِقُّ العِبادةَ وَحْدَه دونَ ما سِواه.(147)

(146) قال البِقاعي: (وَأَنَّ اللَّهَ بجَلالِه وعظَمتِه سَميعٌ لِما يُمكِن أنْ يُسمع، بَصِيرٌ أي: مُبصِرٌ عالِمٌ لِما يُمكِنُ أنْ يُبصَر، دائمُ الاتِّصافِ بذلك، فهو غَيرُ مُحتاجٍ إلى سُكونِ اللَّيلِ ليَسمعَ، ولا لضياءِ النَّهارِ ليُبصِرَ...
وهو لتَمامِ قُدرتِه وعِلمِه لا يَخافُ في عَفْوِه غائلةً، ولا يُمكِنُ أنْ يَفوتَه أمْرٌ).
((نظم الدرر)) (80/13).

(147) قال القرطبيُّ: (قولُه تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ أي: ذو الحَقِّ، فدِينُه الحَقُّ، وعِبادتُه حَقٌّ.
والمؤمِنون يستحِقُّون منه النَّصرَ بحُكمِ وعْدِه الحَقِّ).
((تفسير القرطبي)) (91/12).

وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ.

أي: وأنَّ ما يَدْعوه المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ مِن الأصنامِ وغَيرِها: هو الباطلُ الذي لا يَنفَعُ ولا يَستَحِقُّ العِبادةَ.(148)

وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.

أي: وأنَّ اللهَ هو العالي على كُلِّ شَيءٍ بذاتِه وقَهرِه وقَدْرِه، الكبيرُ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه، وكلُّ شَيءٍ دُونَه.

كما قال تعالى: وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقرة: 255].

وقال سُبحانَه: الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ [الرعد: 9].

(148) قال ابن تيميَّة: (الآلهةُ موجودةٌ، ولكِنْ عِبادتُها ودعاؤُها باطِلٌ لا ينفَعُ، والمقصودُ منها لا يَحصُلُ؛ فهو باطِلٌ، واعتِقادُ ألوهيَّتِها باطِلٌ، أي: غيرُ مُطابقٍ، واتِّصافُها بالإلهيَّةِ في أنفُسِها باطِلٌ لا بمعنى أنَّه معدومٌ).

((مجموع الفتاوى)) (516/5).

وقال أيضًا: (هو مِن جِهةِ كونِه مَعبودًا: باطِلٌ لا يُنتَفَعُ به، ولا يحصُلُ لعابِدِه مَقصودُ العبادةِ، وإنْ كان مِن جهةٍ أخرى هو شَمسٌ وقَمرٌ يُنتفَعُ بضيائِه ونُورِه، وهو يَسجُدُ لله ويُسَبِّحُه).

((الرد على الإخنائي)) (ص: 493).

سورةُ الحَجِّ

الآيات (63-69)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) لَهُ مَا
فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا
فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ
اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ
(66) لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى
هُدًى مُسْتَقِيمٍ (67) وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69)

غريب الكلمات:

وَالْفُلْكَ: أي: السُّفنَ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (الفلك): الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفن سُمّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ.

لَرَءُوفٌ: أي: شديدُ الرَّحمةِ، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، والرَّأفةُ أعلَى معاني الرَّحمةِ، وأصلُ (رأف): يدلُّ على رِقَّةٍ ورَحمةٍ.

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً.

أي: ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنزلَ المطرَ مِنَ السَّماءِ، فتَصيرُ به الأرضُ اليابِسةُ خَضراءَ بالنَّباتِ.(149)

كما قال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [فصلت: 39].

وقال سُبحانَه: وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ [ق: 9-11].

إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.

أي: إنَّ اللهَ لَطيفٌ في فِعلِ ما يشاءُ، ومِن ذلك إنباتُ الأرضِ بالماءِ، خَبيرٌ يَعلَمُ خَفايا كُلِّ شَيءٍ، ومن ذلك أنَّه لا تخفَى عليه الحَبَّةُ التي في باطِنِ الأرضِ، فيَسوقُ إليها الماءَ بلُطفِه لِيُنبِتَها به.

---

(149)قال الشنقيطي: (الظَّاهِرُ: أنَّ تَرَ هنا مِنْ «رأى» بمعنى: «عَلِم»؛ لأنَّ إنزالَ المطرِ وإن كان مشاهَدًا بالبصرِ فكونُ اللهِ هو الَّذي أنزَلَه، إنَّما يُدرَكُ بالعلمِ لا بالبصرِ، فالرُّؤيةُ هنا علميَّةٌ على التَّحقيقِ). ((أضواء البيان)) (294/5).

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64).

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.

أي: لله وَحْدَه مُلكُ جَميعِ ما في السَّمَوات ومُلكُ جَميعِ ما في الأرضِ مِنَ الخَلقِ؛ فكُلُّهم عَبيدُه، وتحتَ تَدبيرِه، لا شَريكَ له في ذلك.

وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

أي: وإنَّ اللهَ لَهُو الغنيُّ عن كُلِّ ما سِواه، المحمودُ في أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ.

أي: ألم تَرَ أنَّ اللهَ ذلَّل لكم جميعَ ما في الأرضِ، كالحَيَوانات والأشجارِ والأنهارِ، وسهَّل لكم أنواعَ الانتِفاعِ بها.

وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ.

أي: وذلَّل لكم السُّفُنَ تجري في البِحارِ بقُدرتِه وتَيسيرِه، فتَحمِلُكم وتَحمِلُ بَضائِعَكم مِن مَوضِعٍ إلى آخَرَ.

وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

أي: ويُمسِكُ اللهُ السَّماءَ بقُدرتِه؛ كيْ لا تَسقُطَ على الأرضِ فيَهلِكَ مَن فيها، إلَّا إذا أذِنَ اللهُ لها بالوُقوعِ، فتَقَعُ بإذنِه.(150)

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ [فاطر: 41].

إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لَذُو رأفةٍ ورَحمةٍ، ومِن رأفتِه ورَحمتِه بهم سَخَّر لهم جميعَ تلك الأشياءِ.

وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (66).

وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ.

أي: واللهُ هو الذي أحياكم وأوجَدَكم مِنَ العَدَمِ، ثُمَّ يُميتُكم عندَ انقضاءِ آجالِكم، ثمَّ يُحييكم يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ.

كما قال تعالى: قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ [الجاثية: 26].

---

(150) قيل: قولُه: إِلَّا بِإِذْنِهِ أي: يومَ القيامةِ، كأنَّ طَيَّ السَّماءِ بَعْضُ هذه الهيئةِ لوُقوعِها، ويجوزُ أنْ يكونَ ذلك وَعيدًا لهم في أنَّه إنْ أذِنَ في سُقوطِها كِسفًا عليكم سقَطَتْ.
يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (7/533، 534).

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ.

أي: إنَّ الإنسانَ لَجَحودٌ لآياتِ اللهِ فلا يُؤمِنُ بها، جَحودٌ لنِعَمِ اللهِ فلا يَشكُرُ اللهَ عليها، ولا يُخلِصُ عِبادَتَه له وَحْدَه!

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (67).

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ.

أي: لكلِّ جماعةٍ مُؤمِنةٍ ممَّن قَبْلَكم وضَعْنا شريعةً، هم عاملونَ بها.

فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ.

أي: فلا يُجادِلُنَّك[151] –يا مُحَمَّدُ– فيما شرَعَ اللهُ لك.[152]

---

(151) قال الشوكاني: (والضَّميرُ راجعٌ إلى الأُممِ الباقيةِ آثارُهم، أي: قد عَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ شَرِيعَةً، ومِن جملةِ الأُممِ هذه الأمَّةُ المحَمَّديَّةُ، وذلك مُوجبٌ لعدمِ منازعةِ مَن بَقِي منهم لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ومُستلْزِمٌ لطاعَتِهم إيَّاه في أمرِ الدِّين). ((تفسير الشوكاني)) (3/553).

وقيل: الضميرُ يرجعُ إلى المشركين.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/627).

(152) قال القاسمي: (فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ أي: في ذلك الجَعْلِ والوَضعِ والحوارِ في تنوُّعِه في كلِّ أُمَّةٍ، وعدَمِ وحْدَتِه. أو في أمرِ ما جِئتَهُم به، زعمًا بأنَّه يُستغنى عنه بما شُرِع قَبْلَه؛ لأنَّه جهْلٌ بحكمتِه تعالى في تكوينِ الأُممِ وتربيتِها بالشَّرائعِ المناسبةِ لِزَمنِها ومكانِها، وحياتِها ومَنشئِها؛ ولذلك كانت هذه الشَّريعةُ أَهدى الشَّرائعِ للامتِنانِ بها، حينما بَلَغ الإنسانُ أعلى طَورِ الرُّشدِ؛ ولذلك وجَبَت الدَّعوةُ إليها خاصَّةً).

كما قال تعالى: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ [الروم: 60].

وقال سُبحانَه: ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ [الجاثية: 18].

((تفسير القاسمي)) (273/7).

وذهَبَ ابنُ جَريرٍ إلى أنَّ المعنى: فلا يُنازعنَّكَ المُشــركون في ذبحِكَ، بقولِهم: أتأكُلون ما قَتَلْتُم، ولا تأكُلون المَيْتةَ التي قَتَلَها اللهُ؟! فإنكَ أَوْلى بالحقِّ منهم؛ لأنَّك مُحِقٌّ، وهُم مُبْطِلون.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (627/16).

وذهَبَ الزَّجَّاجُ إلى أنَّ المعنى: لا يُجادِلُنَّكَ، ولا تُجادِلَنَّهُم.

يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (437/3).

قال الزمخشريُّ: (هو نَهيٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: لا تَلتَفِتْ إلى قولِهم، ولا تُمَكِّنْهم مِن أنْ يُنازِعوك.

أو هو زجْرٌ لهم عنِ التَّعرُّضِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمُنازعةِ في الدِّينِ وهُم جُهَّالٌ لا عِلمَ عِندَهم).

((تفسير الزمخشري)) (169/3).

وقال ابن كثير: (إنْ كان...

المراد: «لِكُلِّ أُمَّةٍ نبيٍّ جَعَلْنا مَنْسَكًا»؛ فيكونُ المرادُ بقوله: فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ أي: هؤلاء المشركونَ.

وإنْ كان المرادُ: لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَــكًا جعلًا قَدَريًّا –كما قال: وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا [البقرة: 148]، ولهذا قال هاهنا: هُمْ نَاسِكُوهُ أي: فاعِلوه– فالضَّـميرُ هاهنا عائدٌ على هؤلاءِ الَّذين لهم مناسِـكُ وطرائِقُ، أي: هؤلاء إنَّما يفعلونَ هذا عن قَدَرِ اللَّهِ وإرادتِه، فلا تَتَأَثَّرْ بمنازعَتِهم لك، ولا يَصْـرِفْكَ ذلك عمَّا أنت عليه مِنَ الحقِّ؛ ولهذا قال: وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ أي: طريقٍ واضحٍ مستقيمٍ موصِلٍ إلى المقصودِ.

وهذه كقولِه: وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ [القصص: 87]).

((تفسير ابن كثير)) (451/5).

وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ.

أي: وادْعُ –يا مُحمَّدُ– إلى عبادةِ رَبِّك وَحْدَه، والإيمانِ به، واتِّباعِ شَريعَتِه.

كما قال تعالى: وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [القصص: 87].

إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ.

أي: داوِمْ على هذه الدَّعوةِ ولا يَثنِينَّك عنها شَيءٌ؛ فإنَّك على طريقٍ مُستقيمٍ لا عِوَجَ فيه، مُوصلٍ إلى المَقصودِ.

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68).

أي: وإنْ جادَلَك كُفَّارُ قومِك –يا مُحمَّدُ– فقُلْ لهم: اللهُ أعلَمُ بما تَعمَلونَه مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ، وهو مُجازيكم على ذلك، ففَوِّضْ أمْرَهم إلى اللهِ، وأعرِضْ عنهم، ولا تُجادِلْهم.(153)

---

(153) قال الرسعني: (أكثرُ المفسرينَ يقولون: هذا منسوخٌ بآيةِ السيفِ.
وبعضُهم يقولُ: هذا في حقِّ المنافقين، وكانت تظهرُ منهم فَلَتاتٌ، فإذا عُوتِبوا أنكروا وحلَفوا وجادَلوا.
فعلى هذا: لا نسخَ).
((تفسير الرسعني)) (5/90).
وقال أبو الحسن السخاوي: (وقالوا في قولِه عزَّ وجلَّ: وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ نسَخَها آيةُ السَّيفِ.
وقد قُلْنا: إنَّ آيةَ السَّيفِ لا يَصِحُّ أن تكونَ ناسِخةً لِشَيءٍ من هذا؛ لأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكن قادِرًا على القِتالِ مَنهيًّا عنه، وإنَّما تنسَخُ آيةُ السَّيفِ آيةً يكونُ فيها نَهيُه عن القِتالِ، ولا نجِدُ ذلك في القُرآنِ؛ لأنَّ العاجِزَ عن القِتالِ لا يُنهى عنه، أفَتَرى أنَّه بعد آيةِ السَّيفِ لا يجوزُ له أن يقولَ لهم: اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ؟! وما يُروى عن السَّلَفِ –رَحِمَهم اللهُ– مِثلِ ابنِ

كما قال تعالى: وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ [يونس: 41].

وقال سُبحانه وتعالى: هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ [الأحقاف: 8].

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69).

أي: اللهُ يَقضي ويَفصِلُ بينكم يومَ القيامةِ فيما كُنتُم فيه تَختَلِفونَ مِن أمرِ دينِكم، ويتبَيَّنُ حِينَئذٍ المُحِقُّ مِن المُبطِلِ.(154)

عبَّاسٍ وغيرِه مِن إطلاقِ النَّسخِ في هذا إنَّما يريدونَ به: الانتِقالَ مِن حالٍ الى أُخرى؛ فأطلقوا على ذلك النَّسخَ، ونحن نريدُ بالنَّسخِ: رَفْعَ الحُكمِ الثَّابتِ نَصًّا بنصٍّ آخَرَ لولاه لكان الأوَّلُ ثابتًا، وابنُ عبَّاسٍ وغيرُه لا يريدونَ بالنَّسخِ هذا).

((جمال القراء وكمال الإقراء)) (763/2).

(154) قيل: هذا خِطابٌ مِنَ اللهِ للمُؤمنينَ والكافرينَ، أي: يَفصِلُ بينكم بالثَّوابِ والعِقابِ.

قاله الزمخشري.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (170/3).

وقيل: هذا مِن ضِمنِ ما أُمِرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَقولَه على معنى أنَّ اللهَ يَحكُمُ بين المُسلِمينَ والكافرينَ يومَ القيامةِ.

قاله الشوكاني.

يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (553/3).

وقيل: جملة اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كلامٌ مستأنفٌ ليس مِن المقولِ، فهو خطابٌ للنبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وليس خطابًا للمشركين؛ بقرينةِ قولِه: بَيْنَكُمْ.

والمقصودُ: تأييدُ الرسولِ والمؤمنينَ.

قاله ابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (331/17).

كما قال الله تعالى: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [الشورى: 15].

سورةُ الحَجِّ

الآيات (70-72)

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ
(70) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
نَصِيرٍ (71) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ
يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72)

غريب الكلمات:

سُلْطَانًا: أي: حُجَّةً، وأصْلُ السُّلطانِ: القُوَّةُ والقَهرُ.

يَسْطُونَ: أي: يَبطِشونَ ويَقَعونَ، والسَّطوةُ: البَطشُ برَفعِ اليَدِ، وأصلُ (سطو): يدُلُّ على القَهرِ والعُلوِّ.

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ

(70).

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

أي: ألم تعلَمْ –يا مُحَمَّدُ– أنَّ اللهَ يَعلَمُ كُلَّ ما في السَّموات وما في الأرضِ، ويَعلَمُ أعمالَ عِبادِه واختلافَهم، فمُجازيهم على ذلك؟

إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ.

أي: إنَّ عِلمَ اللهِ بكلِّ ما يكونُ في السَّماءِ والأرضِ قد أثبَتَه اللهُ في اللَّوحِ المَحفوظِ.

كما قال تعالى: وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ [القمر: 53].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((كتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قَبلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألْفَ سَنةٍ)).[155]

إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ.

(155) رواه مسلم (2653).

أي: إنَّ إحاطةَ عِلمِ اللهِ بجميعِ ذلك وكتابتَه في كتابٍ[156] هَيِّنٌ سَهلٌ على اللهِ.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71).

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا.

أي: ويَعبُدُ المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ أصنامًا لم يُنَزِّلِ اللهُ على رُسُلِه حُجَّةً على صِحَّةِ عبادتِها!

---

(156) قيل: الإشارةُ بـ ذَلِكَ إلى كَتبِ المعلوماتِ في كتابٍ.

وممن قال بذلك المعنى: ابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زمنين، والرازي، واستظهرَه ابنُ جزي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (631/16)، ((تفسير السمرقندي)) (469/2)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (189/3)، ((تفسير الرازي)) (250/23)، ((تفسير ابن جزي)) (46/2).

وقيل: المراد: إنَّ ذَلِكَ أي: علمَه بجميعِ ذلك.

وممن قال بذلك: الثعلبيُّ، والبغوي، والنسفي.

يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (33/7)، ((تفسير البغوي)) (350/3)، ((تفسير النسفي)) (454/2).

وممن جمع بين المعنيين السابقين: السعديُّ، فقال: (إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ وإن كان تصوُّرُه عندكم لا يُحاطُ به، فالله تعالى يسيرٌ عليه أن يُحيطَ عِلمًا بجميعِ الأشياءِ، وأن يكتُبَ ذلك في كتابٍ مُطابقٍ للواقعِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 545).

وقال الزمخشري: (والإحاطةُ بذلك وإثباتُه وحفظُه عليه يَسيرٌ).

((تفسير الزمخشري)) (170/3).

وقيل: المراد: إنَّ الفَصلَ بين المختَلِفَين على الله يسيرٌ.

وممن قال بذلك: القرطبيُّ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (95/12).

كما قال تعالى: وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ [المؤمنون: 117].

وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ.

أي: وليس للمُشرِكِينَ عِلمٌ يَقينِيٌّ بجَوازِ وصِحَّةِ عِبادةِ الأصنامِ، وإنَّما يَعبُدونَها تقليدًا لآبائِهم!

كما قال تعالى: وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ [يونس: 66].

وقال سُبحانَه: إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى [النجم: 23].

وقال تبارك وتعالى: وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا [النجم: 28].

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ.

أي: وما للمُشرِكِينَ بسَبَبِ ظُلمِهم مِن ناصرٍ يَنصُرُهم ويُنقِذُهم مِن عذابِ اللهِ، ويَدفَعُ عنهم عِقابَه.

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72).

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ.

أي: وإذا تُتلى على المُشرِكينَ آياتُ القُرآنِ، والحالُ أنَّها واضِحاتُ الحُجَجِ والدَّلالةِ على توحيدِ اللهِ، وصِدقِ رَسولِه، تتبَيَّنُ في وجوهِهم الغَمَّ والكراهيَةَ، والعُبوسَ والغَضَبَ!

يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا.

أي: يَكادُ المُشرِكونَ يَبطِشونَ بالذينَ يَتلونَ عليهم القُرآنَ، ويَبْسُطونَ إليهم أيدِيَهم وألسِنَتَهم بالسُّوءِ؛ لشِدَّةِ كراهتِهم وبُغضِهم آياتِ اللهِ وما فيها مِنَ الدَّعوةِ إلى الحَقِّ.(157)

كما قال تعالى: كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ [الشورى: 13].

---

(157) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (632/16)، ((تفسير الثعالبي)) (136/4)، ((تفسير القرطبي)) (95/12، 96)، ((تفسير ابن كثير)) (453/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 545).

قال ابن عاشور: («الَّذِينَ يَتْلُونَ» يجوزُ أنْ يكونُ مُرادًا به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن إطلاقِ اسمِ الجمعِ على الواحدِ، كقولِه: وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ [الفرقان: 37] ، أي: كَذَّبوا الرَّسولَ.

ويَجوزُ أنْ يُرادَ به مَن يَقرأُ عليهمُ القرآنَ مِنَ المُسلِمينَ والرَّسولِ، أمَّا الذين سَطَوا عليهم مِنَ المؤمنين فلعلَّهم غيرُ الذين قرَؤوا عليهمُ القرآنَ، أو لعلَّ السَّطوَ عليهم كان بعدَ نُزولِ هذه الآيةِ؛ فلا إشكالَ في ذِكرِ فِعْلِ المُقارَبةِ).

((تفسير ابن عاشور)) (335/17).

وقال سُبحانَه: لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ [الزخرف: 78].

قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا.

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– للمُشرِكينَ: أفأُخبِرُكم بما هو أشَدُّ عليكم وأكرَهُ إليكم مِمَّا سَمِعتُموه مِنَ القُرآنِ؟ هو النَّارُ التي وعَدَها اللهُ الكُفَّارَ يومَ القيامةِ![158]

وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

---

(158) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (351/3)، ((تفسير الرسعني)) (92/5)، ((تفسير القرطبي)) (96/12)، ((تفسير ابن عاشور)) (336/17، 337).

وممَّن قال بأنَّ الإشارةَ في ذَلِكُمُ تعودُ إلى القرآنِ: الواحديُّ، والبغوي، والرسعني، والقرطبي، وابن عاشور.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 740)، ((تفسير البغوي)) (351/3)، ((تفسير الرسعني)) (92/5)، ((تفسير القرطبي)) (96/12)، ((تفسير ابن عاشور)) (336/17، 337).

وقيل: الإشارةُ تعودُ إلى التَّالينَ عليهم القُرآنَ.

قاله ابن جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (634/16).

قال ابن جرير: (أفأُنبِّئُكم أيُّها المشركونَ بأكرَهَ إليكم مِن هؤلاء الذين تتكرَّهون قراءتَهم القرآنَ عليكم؟).

((تفسير ابن جرير)) (634/16).

وقيل: الإشارة بـ ذَلِكُمُ إلى السطوِ.

وممن اختاره: الزمخشريُّ، وابن عطية.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (170/3)، ((تفسير ابن عطية)) (133/4).

وقال البقاعي: (قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ أي: أتَعُونَ فأُخبِرَكم خبرًا عظيمًا بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ الأمرِ الكبيرِ مِنَ الشَّرِّ الذي أردتُموه بعبادِ اللهِ التَّالينَ عليكم للآياتِ، وما حصَلَ لكم من الضَّجَرِ مِن ذلك؟).

((نظم الدرر)) (94/13).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (96/12)، ((تفسير ابن كثير)) (453/5).

أي: وبِئسَ المكانُ الذي يصيرُ إليه هؤلاء المُشرِكونَ يومَ القيامةِ: النَّارُ!

سورةُ الحَجِّ

الآيات (73-76)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ
اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73)
مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ
النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
(76)

غريب الكلمات:

يَسْلُبْهُمُ: أي: يختَطِفْ منهم، والسَّلبُ: نزعُ الشَّيءِ مِن الغَيرِ على القَهْرِ، وأصلُ (سلب): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بخِفَّةٍ واختِطافٍ.

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ: أي: ما أجلُّوا اللهَ حَقَّ إجلالِه، ولا عَظَّموه حقَّ تعظيمِه، ولا عَرَفوه حقَّ مَعرِفتِه. والقَدْرُ: العَظَمةُ. يُقالُ لكُلِّ مَن عَرَف شَيئًا: هو يَقدُرُ قَدْرَه. وإذا لم يَعرِفْه بصِفاتِه: لا يَقدُرُ قَدْرَه، وحَقَّ قَدْرِهِ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: ما قدَروا اللهَ قَدْرَه الحَقَّ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ وكُنْهِه.

يَصْطَفِي: أي: يختارُ ويُخْلِصُ، والاصطِفاءُ: تَناوُلُ صَفْوِ الشَّيءِ، وتخيُّرُ الأصفَى، وأصلُ (صفو): يدُلُّ على خُلوصٍ مِن كُلِّ شَوبٍ.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ.

أي: يا أيُّها النَّاسُ(159) ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا للآلِهةِ التي يَعبُدُها المُشرِكونَ، فأنصِتُوا لهذا المَثَلِ، وتفهَّموا ما احتَوى عليه.(160)

---

(159) قال ابنُ عطية: (الخطابُ بقولِه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قيل: هو خِطابٌ يعُمُّ العالَم، وقيل: هو خِطابٌ للمُؤمنينَ حينئذٍ، الذين أراد اللهُ تعالى أن يبيِّنَ عِندَهم خطأَ الكافرينَ، ولا شَكَّ أنَّ المُخاطَبَ هم، ولكنَّه خِطابٌ يعُمُّ جَميعَ النَّاسِ).

((تفسير ابن عطية)) (133/4).

وقال ابن عاشور: (المرادُ بالنَّاسِ هنا المُشرِكونَ، على ما هو المُصطلَحُ الغالِبُ في القرآنِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالنَّاسِ جميعَ النَّاسِ مِن مُسلِمينَ ومُشرِكينَ).

((تفسير ابن عاشور)) (338/17).

ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 546).

(160) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (46/2)، ((تفسير ابن كثير)) (453/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 546).

وممن قال بهذا المعنى في الجملة: ابنُ جُزَي، وابن كثير، والسعدي.

يُنظر: المصادر السابقة.

ويُنظر أيضًا: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (466/2)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (139/1).

وقيل: المرادُ: أنَّ المشركين شَبَّهوا الأصنامَ بالله، فعبَدوها معه، وأَشرَكوها في عِبادتِه.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والسمعانيُّ، والبغويُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (635/16)، ((تفسير السمعاني)) (455/3)، ((تفسير البغوي)) (351/3).

قال ابنُ عطية: (واختلَفَ المُتأوِّلون في فاعل ضُرِبَ، مَن هو؟ فقالت فِرقةٌ: المعنى: ضَرَبَ أهلُ الكفرِ مَثَلًا للهِ أصنامَهم وأوثانَهم، فاستَمِعوا أنتم أيُّها النَّاسُ لأمْرِ هذه الآلهةِ.

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ.

أي: إنَّ الذين تَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ مِنَ الأصنامِ وغَيرِها، لن يَقدِروا على خَلقِ ذُبابةٍ واحِدةٍ، ولو تَعاونوا جميعًا على ذلك.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ [النحل: 20].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النبيَّ - ﷺ - يقولُ: ((قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ومَن أظلَمُ مِمَّن ذهَبَ يَخلُقُ كخَلْقي، فلْيَخلُقوا ذَرَّةً، أو لِيَخلُقوا حَبَّةً أو شَعيرةً!)).(161)

وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ.

أي: وإنْ يَختَطِفِ الذُّبابُ ويَختَلِسْ مِنَ الأصنامِ شيئًا ممَّا عليها مِن طِيبٍ أو مما يُجعَلُ لها مِن طَعامٍ ونحوِه، لا تَستطِعِ الأصنامُ أن تَرُدَّ ما استَلَبَه الذُّبابُ، مع ضَعفِه وحَقارتِه!(162)

وقالت فِرقةٌ: ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لهذه الأصنام، وهو كذا وكذا).

((تفسير ابن عطية)) (133/4).

(161) رواه البخاري (7559) واللفظ له، ومسلم (2111).

(162) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (635/16)، ((تفسير ابن الجوزي)) (250/3)، ((تفسير القرطبي)) (97/12)، ((تفسير ابن كثير)) (454/5).

قال ابنُ الجوزي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: كانوا يَطلُونَ أصنامَهم بالزَّعفرانِ فيَجِفُّ، فيأتي الذبابُ فيَختَلِسُه.

وقال ابنُ جُريج: كانوا إذا طَيَّبوا أصنامَهم عَجَنوا طِيبَهم بشيءٍ مِن الحلواءِ، كالعَسَلِ ونحوِه، فيقَعُ عليها الذُّبابُ فيَسلُبُها إيَّاه، فلا تَستطيعُ الآلهةُ ولا مَن عبَدَها أن يمنَعَه ذلك!).

((تفسير ابن الجوزي)) (250/3).

ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ.

أي: ضعُفَت الآلِهةُ المعبودةُ مِن دُونِ اللهِ -كالأصنامِ- وعَجَزت عن استِنقاذِ ما يَسلُبُه الذُّبابُ منها، وضعُفَ الذُّبابُ، وضَعُفَ العابِدُ لغيرِ اللهِ، وضعُف معبودُه، فكيف يَعبُدُ المُشرِكونَ ما لا قُدرةَ له على خَلقِ ذُبابٍ، ولا على رَدِّ ما استَلَبَه منه؟![163]

---

(163) وممَّن قال بأنَّ الطَّالِبَ هو الأصنامُ، والمطلوبَ هو الذُّبابُ: مقاتِلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، والنسفي، وابن جُزَي، وابن كثير، والنيسابوري، والشوكاني، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (139/3)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (389/1)، ((تفسير ابن جرير)) (636/16)، ((تفسير النسفي)) (455/2)، ((تفسير ابن جزي)) (46/2)، ((تفسير ابن كثير)) (454/5)، ((تفسير النيسابوري)) (101/5)، ((تفسير الشوكاني)) (555/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 546).

قال الشوكاني: (فالصَّنَمُ كالطَّالِبِ؛ من حيثُ إنَّه يَطلُبُ خَلْقَ الذُّبابِ، أو يَطلُبُ استِنقاذَ ما سَلَبَه منه، والمطلوبُ الذُّبابُ). ((تفسير الشوكاني)) (555/3).

وقيل: الطالبُ: هو الدَّاعي المُشرِكُ، والمطلوبُ: الأصنامُ المدعُوَّةُ.

أي: ضَعُفتُم أنتم في دعوتِهم آلهةً، وضَعُفَت الأصنامُ عن صِفاتِ الإله.

وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (342/17).

قال ابنُ الجوزيِّ: (فيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: أنَّ الطَّالِبَ: الصَّنَمُ، والمطلوبَ: الذُّبابُ.

رواه عطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثاني: الطالِبُ: الذُّبابُ يَطلُبُ ما يَسلُبُه مِنَ الطِّيبِ الذي على الصَّنمِ، والمطلوبُ: الصَّنَمُ يطلُبُ الذُّبابُ منه سَلْبَ ما عليه.

رُوِيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ أيضًا.

والثالثُ: الطَّالِبُ: عابِدُ الصَّنمِ يَطلُبُ التقرُّبَ بعبادتِه، والمطلوبُ: الصَّنَمُ.

هذا معنى قَولِ الضَّحَّاكِ، والسُّدِّي).

((تفسير ابن الجوزي)) (250/3).

وممن اختار الجَمْعَ: ابنُ القيم، والبِقاعي؛ فقال ابن القيم: (الصَّحيحُ أنَّ اللَّفظَ يتناوَلُ الجَميعَ، فضَعُفَ العابِدُ والمعبودُ، والمُستَلِبُ والمُستَلَبُ؛ فمَن جعَلَ هذا إلهًا مع القويِّ العزيزِ فما قَدَره حَقَّ قَدْرِه، ولا عَرَفَه حَقَّ معرفتِه، ولا عَظَّمَه حَقَّ تَعظيمِه!).

((إعلام الموقعين)) (139/1، 140).

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74).

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ.

أي: ما عظَّمَ المُشرِكونَ اللهَ حَقَّ تعظيمِه، ولا عَرَفوا صفاتِ كَمالِه حينَ جَعَلوا الأصنامَ الضَّعيفةَ شُرَكاءَ له، فلم يُخلِصوا له العِبادةَ!

كما قال تعالى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [الزمر: 67].

إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.

أي: إنَّ اللهَ لَقَويٌّ قادِرٌ على خَلْقِ ما يَشاءُ، مَنيعٌ في مُلكِه، غالِبٌ وقاهِرٌ لكُلِّ شَيءٍ، لا يَقدِرُ شَيءٌ دُونَه أن يَسلُبَه مِن مُلكِه شَيئًا، وليس كآلهتِكم -أيُّها المُشرِكونَ- التي لا تَقدِرُ على خَلقِ ذبابٍ، ولا على الامتناعِ منه إذا استَلَبها شيئًا، فكيف تَدْعُونها مِن دونِ اللهِ؟!

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75).

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ.

وقال البِقاعي: (ضَعُفَ الطَّالِبُ أي: للاستِنقاذِ مِن الذُّبابِ، وهو الأصنامُ وعابِدوها وَالْمَطْلُوبُ أي: الذُّبابُ والأصنامُ اجتَمَعوا في الضَّعفِ، وإن كان الأصنامُ أضعَفَ بدَرَجاتٍ!).

((نظم الدرر)) للبقاعي (13/96).

أي: اللهُ يَختارُ مِنَ المَلائِكةِ رُسُلًا، كالذين يُرسِلُهم إلى أنبيائِه ومَن شاء مِن عِبادِه، ويَختارُ مِن النَّاسِ أيضًا رُسُلًا يُبَلِّغونهم وَحْيَه.

كما قال تعالى: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [الأنعام: 124].

وقال عزَّ وجلَّ: جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا [فاطر: 1].

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ.

أي: إنَّ اللهَ سَميعٌ لكُلِّ شَيءٍ، بصيرٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك سَماعُه لأقوالِ عِبادِه، ورُؤيتُه لهم، فهو يَعلَمُ مَن يَستَحِقُّ مِن خَلْقِه اصطِفاءَه لرِسالتِه؛ فاختيارُه لهم عن عِلمٍ منه بأنَّهم أهلٌ لهذه الرِّسالةِ.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76).

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ.

أي: يَعلَمُ اللهُ ما بين أيدِي الرُّسُلِ مِنَ الملائكةِ والنَّاسِ، وما خَلْفَهم.(164)

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه لا إلى غَيرِه تُرجَعُ جَميعُ أمورِ عِبادِه، فيَحكُمُ بيْنَهم يومَ القيامةِ، ويُجازيهم على ذلك.(165)

---

(164) قيل المراد: يعلَمُ ما كان قبْلَ خَلقِ الملائكةِ والأنبياءِ، ويعلَمُ ما يكونُ مِن بَعدِهم.

قاله مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والثعلبي، وابن عطية.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/139)، ((تفسير ابن جرير)) (16/638)، ((تفسير الثعلبي)) (7/35)، ((تفسير ابن عطية)) (4/134).

وقيل: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِن أمرِ الآخرةِ.

وَمَا خَلْفَهُمْ مِن أمرِ الدُّنيا.

وممن اختاره: يحيى بنُ سلام، والسمرقندي.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (1/390)، ((تفسير السمرقندي)) (2/471).

وقيل: يعلَمُ ما قَدَّموا مِن الأعمالِ، وما أخَّروا منها فتركوه ولم يَعمَلوه.

وممن ذهب إلى ذلك: السمعانيُّ، والقرطبي، الشوكاني، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (3/457)، ((تفسير القرطبي)) (12/98)، ((تفسير الشوكاني)) (3/556)، ((تفسير القاسمي)) (7/276).

(165) قال السعدي: (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ أي: هو يُرسِلُ الرُّسُلَ يَدْعونَ النَّاسَ إلى اللهِ؛ فمنهم المجيبُ، ومنهم الرادُّ لِدَعوتِهم، ومنهم العامِلُ، ومنهم النَّاكِلُ؛ فهذه وَظيفةُ الرُّسُلِ، وأمَّا الجزاءُ على تلك الأعمالِ فمَصيرُه إلى اللهِ تعالى، فلا تَعدَمُ منه فَضلًا أو عَدلًا).

((تفسير السعدي)) (ص: 546).

كما قال تعالى في خاتمةِ سورةِ هُودٍ: وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [هود: 123].

سورةُ الحَجِّ

الآيتان (77–78)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77)
وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ
إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى
وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)

غريب الكلمات:

اجْتَبَاكُمْ: أي: اختارَكم واصطَفاكم واستخلَصَكم، وأصلُ (جبي): يدُلُّ على الجَمعِ على طَرِيقِ الاصطِفاءِ.

مِلَّةَ: أي: دِينَ وطَرِيقةَ، وإنَّما سُمِّيَ الدِّينُ مِلَّةً؛ لأنَّه يُمَلُّ، أي: يُملَى على المَدعُوِّ إليه، فالمِلَّةُ تُبنَى على مَسموعٍ ومتلوٍّ.

وَاعْتَصِمُوا: أي: استَمسِكوا وامتنِعوا، وأصلُ العَصْمِ: المنعُ، فكلُّ مانعٍ شيئًا فهو عاصِمُه، والمُمتنِعُ به مُعتصِمٌ به، يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ؛ أي: مَنَعَه مِن الجوعِ، وأصلُ (عصم) أيضًا: يَدُلُّ على إمساكٍ ومُلازمةٍ، والمعنَى في ذلك كُلِّه معنًى واحِدٌ.

تفسير الآيتين:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ.

أي: يا أيُّها الذينَ آمَنوا، اركَعوا واسجُدوا لله في صَلاتِكم، وذِلُّوا واخضَعوا لرَبِّكم بطاعتِه، مُخلِصينَ له في عبادتِه.

وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أي: وافعَلوا -أيُّها المُؤمِنونَ- أنواعَ الخَيراتِ مِمَّا أمَرَكم اللهُ به؛ لعَلَّكم تفوزونَ بما تَرغَبونَ فيه في الدُّنيا والآخِرةِ، وتنجَوْنَ ممَّا ترهبونَه.[166]

كما قال تعالى: إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [الأعراف: 56].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى [الليل: 5-7].

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا

---

(166) قال الثعالبي: (هذه الآيةُ الكريمةُ عامَّةٌ في أنواعِ الخَيراتِ، ومِن أعظَمِها الرَّأفةُ والشَّفقةُ على خَلقِ اللهِ، ومُواساةُ الفُقَراءِ وأهلِ الحاجةِ).

((تفسير الثعالبي)) (4/138).

شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78).

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ.

أي: جاهِدوا -للهِ ومِن أجْلِه- أنفُسَكم، وجاهِدوا الشَّيطانَ والكفَّارَ وأهلَ الظُّلمِ والزَّيغِ والهوَى جهادًا خالصًا لوجهِ الله؛ بأموالِكم وأنفُسِكم وألسِنَتِكم، مُستَفرِغينَ فيه طاقتَكم.(167)

---

(167) قال القرطبي: (قَولُه تعالى: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ قيل: عَنى به جِهادَ الكُفَّارِ.

وقيل: هو إشارةٌ إلى امتِثالِ جميعِ ما أمَرَ اللهُ به، والانتهاءِ عن كُلِّ ما نهى اللهُ عنه، أي: جاهِدوا أنفُسَكم في طاعةِ اللهِ، ورُدُّوها عن الهوى، وجاهِدوا الشَّيطانَ في رَدِّ وَسوَستِه، والظَّلَمةَ في رَدِّ ظُلْمِهم، والكافِرينَ في رَدِّ كُفرِهم).

((تفسير القرطبي)) (99/12).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (640/16)، ((تفسير الشوكاني)) (556/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (347/17).

قال ابنُ جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك: قَولُ مَن قال: عنى به الجِهادَ في سَبيلِ اللهِ؛ لأنَّ المعروفَ مِن الجِهادِ ذلك، وهو الأغلَبُ على قَولِ القائلِ: جاهَدْتُ في اللهِ).

((تفسير ابن جرير)) (640/16).

قال ابن عطية: (والعمومُ حسَنٌ، وبيِّنٌ أنَّ عرفَ اللفظةِ تقتضي القتالَ في سبيلِ الله).

((تفسير ابن عطية)) (135/4).

وممن اختار القولَ الثانيَ -وهو العمومُ-: الزمخشريُّ، والرازي، وأبو حيان، والبقاعي، والسيوطي، والقاسمي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (173/3)، ((تفسير الرازي)) (255/23)، ((تفسير أبي حيان)) (539/7).

وعزا ابنُ الجوزي القولَ بأنَّ معناه: فعلُ جميعِ الطاعاتِ، إلى الأكثرين.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (252/3، 253).

قال الرازي: (والأَوْلَى أن يُحملَ ذلك على كلِّ التكاليفِ، فكلُّ ما أُمِر به ونُهِي عنه فالمحافظةُ عليه جهادٌ).

((تفسير الرازي)) (255/23).

وقال ابنُ الجوزي: (فأمَّا حَقُّ الجِهادِ ففيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحَدُها: أنَّه الجِدُّ في المجاهَدةِ، واستيفاءُ الإمكانِ فيها.

كما قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ [التوبة: 73].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: ((جاهِدوا المُشرِكينَ بأموالِكم وأنفُسِكم وألسِنَتِكم)).[168]

وعن فَضالةَ بنِ عُبَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((المجاهِدُ مَن جاهَدَ نَفسَه)).[169]

والثَّاني: أنَّه إخلاصُ النيَّةِ لله عزَّ وجلَّ.
والثَّالِثُ: أنَّه فِعلُ ما فيه وَفاءٌ لحَقّ اللهِ عزَّ وجلَّ).
((تفسير ابن الجوزي)) (253/3).
وقال البغوي: (قال أكثَرُ المفَسّرينَ: حَقُّ الجهادِ أن تكونَ نيَّتُه صادِقةً خالِصةً لله عَزَّ وجلَّ).
((تفسير البغوي)) (354/3).
وممَّن اختار أنَّ معنى حَقَّ جِهَادِهِ: استفراغُ الوسعِ والطاقةِ: ابنُ جرير، وأبو حيان، وجلال الدين المحلي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (640/16)، ((تفسير أبي حيان)) (539/7)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 445).
قال البقاعي: (حَقَّ جِهَادِهِ باستِفراغِ الطَّاقةِ في إيقاعِ كُلِّ ما أمَرَ به؛ مِن جِهادِ العَدُوِّ والنَّفسِ على الوَجهِ الذي أمَرَ به من الحَجّ والغَزْوِ وغيرِهما جِهادًا يليقُ بما أفهَمَته الإضافةُ إلى ضميرِه سُبحانَه مِن الإخلاصِ والقُوَّةِ؛ فإنَّه يُهلِكُ جَميعَ مَن يَصُدُّكم عن شَيءٍ منه).
((نظم الدرر)) للبقاعي (101/13).
وقال مكّي: (وأكثَرُ النَّاسِ على أنَّه غيرُ منسوخٍ، وواجِبٌ على كلِّ مُسلمٍ أن يجاهِدَ في اللهِ حَقَّ جهادِه على قَدْرِ استطاعتِه، ويكونُ قولُه: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [التغابن: 16] بيانًا لهذا، وليس بناسِخٍ له).
((الهداية)) (4937/7).

(168) أخرجه أبو داود (2504)، والنسائي (3096) واللفظُ له، وأحمد (12268).
أخرجه ابنُ حبَّان في ((صحيحه)) (4708)، وقال ابن حزم في ((أصول الأحكام)) (27/1): (في غاية الصحَّة)، وصحَّح إسناده النووي في ((رياض الصالحين)) (437)، وصحَّحَ الحديثَ ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (114)، وقال محمد ابن عبد الهادي في ((المحرر)) (286): (إسناده على رسم مُسلِم)، وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (27/8): (رجالُه رجال الصحيح)، وصَحَّحه ابن باز في ((مجموع فتاواه)) (296/4)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (3096).
(169) أخرجه الترمذي (1621)، وأحمد (23951).

هُوَ اجْتَبَاكُمْ.

أي: اللهُ هو الذي اختاركم –أيُّها المؤمِنونَ– لاتِّباعِ دينه، ونَصْرِه، والجِهادِ في سَبيلِه.

كما قال تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ [آل عمران: 110].

وعن أبي عِنَبةَ الخَوْلانيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النبيَّ – ﷺ – يقولُ: ((لا يَزالُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يَغرِسُ في هذا الدِّينِ بغَرسٍ يَستَعمِلُهم في طاعتِه)).[170]

وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ.

أي: وما جعل اللهُ عليكم –أيُّها المؤمِنونَ– مِن ضِيقٍ وعُسرٍ ومشقَّةٍ في دِينِ الإسلامِ، بل يسَّرَ لكم هذا الدِّينَ غايةَ التيسيرِ.

كما قال تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [البقرة: 185].

وقال عزَّ وجَلَّ: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ [النساء: 28].

قال الترمذي: (حسن صحيح)، وأخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (4624)، وقال ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (635/10): (ثابت)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (1621).

(170) أخرجه ابن ماجه (8)، وأحمد (17787) واللفظ له.

أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (326)، وصحَّح إسنادَه ووثَّق رِجالَه البوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (44/1)، وحَسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (8).

وقال تبارك وتعالى: مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ [المائدة: 6].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا نزلَت هذه الآيةُ: وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ [البقرة: 284] ، قال: دخَلَ قُلوبَهم منها شَيءٌ لم يَدخُلْ قُلوبَهم مِن شَيءٍ، فقال النبيُّ – ﷺ –: قولوا: سَمِعْنا، وأطَعْنا، وسَلَّمْنا. قال: فألقى اللهُ الإيمانَ في قُلوبِهم، فأنزل اللهُ تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا [البقرة: 286] ، قال: قد فعَلْتُ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا [البقرة: 286]، قال: قد فعَلْتُ، وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا [البقرة: 286] ، قال: قد فعَلْتُ)).[171]

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قيل لِرَسولِ الله – ﷺ –: ((أيُّ الأديانِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ قال: الحَنيفيَّةُ السَّمْحةُ)).[172]

مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ.

أي: وما جعَلَ عليكم في الدِّينِ مِن حَرَجٍ، بل وسَّعه كمِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ.[173]

---

(171) رواه مسلم (126).

(172) أخرجه البخاري معلَّقًا بصيغة الجزم قبل حديث (39) باختلاف يسيرٍ، وأخرجه موصولًا في ((الأدب المفرد)) (287)، وأحمد (2107)، والطبراني (11/227) (11572).

قال ابن الملقِّن في ((شرح البخاري)) (3/80): (إسنادُه لا بأس به)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (1/116)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (3/355)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (160).

(173) ممن اختار المعنى المذكورَ: الفرَّاءُ، وابن جرير، والعليمي.

كما قال تعالى: وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [البقرة: 135].

وقال سُبحانَه: فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [آل عمران: 95].

يُنظر: ((المصادر السابقة)).

وقيل: المعنى: وَسَّع عليكم دينَكم توسعةَ مِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ.

وممَّن اختاره: الشوكانيُّ.

يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (3/557)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (3/173).

وقيل: المرادُ: اتَّبِعوا والْزَموا مِلَّةَ أبيكم إبراهيمَ.

وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزجَّاجُ، وابن أبي زمنين، والواحديُّ، والسمعاني، والسعديُّ.

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (3/440)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (3/191)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 742)، ((تفسير السمعاني)) (3/459)، ((تفسير السعدي)) (ص: 546).

ونسبه الواحديُّ لأكثرِ النحْويِّينَ.

يُنظر: ((البسيط)) (15/508).

وقيل: قوله: مِلَّةَ منصوبةٌ على الاختصاصِ، أي: أعني الدينَ ملةَ أبيكم.

وممَّن اختاره: النيسابوريُّ.

يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (5/103).

قال الشِّنقيطيُّ: (ولا يَبعُدُ أنْ يكونَ قولُه: مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ [الحج: 78] شامِلًا لما ذُكِر قَبْلَه مِنَ الأوامرِ في قَولِه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [الحج: 77]، ويُوضِّحُ هذا قولُه تعالى: قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا [الأنعام: 161]، والدِّينُ القَيِّمُ الذي هو مِلَّةُ إبراهيمَ: شاملٌ لما ذُكر كله).

((أضواء البيان)) (5/302).

وقال السَّمعاني: (وقَولُه: مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ فيه قَولانِ: أحَدُهما: أنَّ الآيةَ خِطابٌ مع العَرَبِ، وقد كان إبراهيمُ أبًا لهم.

والقَولُ الثَّاني: أنَّ الآيةَ خِطابٌ مع جميعِ المُسلِمينَ، وجَعْلُ إبراهيمَ أباهم على معنَى وُجوبِ احترامِه وحِفظِ حَقِّه، كما يَجِبُ احترامُ الأبِ وحِفظُ حَقِّه).

((تفسير السمعاني)) (3/458).

وقال عزَّ وجلَّ: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [النحل: 123].

هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا.

أي: اللهُ سمَّاكم المُسلِمينَ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ في كُتُبِ الأنبياءِ السَّابقةِ، وسمَّاكم المُسلِمينَ أيضًا في هذا القُرآنِ.(174)

---

(174) قال الواحدي: (قال جماعةُ المُفَسِّــرينَ وأهلُ المعاني: هو كنايةٌ عن اللهِ تعالى، أي: اللهُ تعالى سَمَّاكم المُســلِمين قبلَ إنزالِ القُرآنِ في الكُتُبِ التي أُنزِلَت قَبْلَه).

((البسيط)) (511/15).

ونَسَبه البغوي لأكثرِ المفَسِّرين.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (355/3).

وقيل: المعنى: إبراهيمُ سَمَّاكم المُسلِمينَ.

وهو قَولُ عبدِ الرَّحمنِ بنِ زَيدِ بنِ أسـلَمَ، قال ابنُ جريرٍ: (ولا وَجْهَ لِما قال ابنُ زيدٍ مِن ذلك؛ لأنَّه معلومٌ أنَّ إبراهيم لم يُسَـمِّ أمَّةَ مُحمَّدٍ مُسلِمينَ في القُرآنِ؛ لأنَّ القُرآنَ أُنزِلَ مِن بَعدِه بدَهرٍ طويلٍ، وقد قال الله تعالى ذِكرُه: هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا [الحج: 78]، ولكِنَّ الذي سَمَّانا مُسلِمينَ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ وفي القُرآنِ: اللهُ الذي لم يَزَلْ ولا يَزالُ).

((تفسير ابن جرير)) (646/16).

وذكَرَ الشنقيطيُّ قرينةً أُخرى تدُلُّ على أنَّ هذا القَولَ غيرُ صَوابٍ، وهي (أنَّ الأفعالَ كُلَّها في السِّياقِ المذكورِ راجِعةٌ إلى اللهِ تعالى لا إلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فقَولُه: هُوَ اجْتَبَاكُمْ أي: اللهُ.

وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ أي: اللهُ.

هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ أي: اللهُ.

فإنْ قيل: الضَّميرُ يَرجِعُ إلى أقرَبِ مَذكورٍ، وأقرَبُ مَذكورٍ للضَّميرِ المذكورِ هو إبراهيمُ؛ فالجوابُ: أنَّ مَحَلَّ رُجوعِ الضَّميرِ إلى أقرَبِ مَذكورٍ مَحَلُّه ما لم يَصرِفْ عنه صارِفٌ، وهنا قد صَرَف عنه صارِفٌ).

((أضواء البيان)) (302/5).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (456/5).

كما قال تعالى: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [البقرة: 136].

وقال سُبحانَه: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [آل عمران: 64].

وعن الحارِثِ الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله – ﷺ – قال: ((... ومَن دعا بِدَعوى الجاهليَّةِ، فهو مِن جُثا جهنَّمَ. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، وإنْ صام وإن صلَّى؟ قال: وإن صام وإن صَلَّى وزعَمَ أنَّه مُسلِمٌ، فادْعُوا المُسلِمينَ بأسمائِهم؛ بما سَمَّاهم اللهُ عَزَّ وجَلَّ: المُسلِمينَ المُؤمِنينَ عبادَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ)). (175)

لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ.

أي: اجتَباكم اللهُ وفضَّلَكم، ونَوَّه باسمِكم؛ لِيَكونَ الرَّسولُ –الذي هو خَيرُكم– شَهيدًا عليكم يومَ القيامةِ أنَّه قد بلَّغكم رسالةَ ربِّه، وتكونوا شُهَداءَ على جَميعِ الأُمَمِ أنَّ رُسُلَهم قد بلَّغُوهم ما أرسَلَهم اللهُ به.

---

(175) أخرجه مطوَّلًا الترمذي (2863)، وأحمد (17170) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11349) باختلافٍ يسيرٍ.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ غريب)، وأخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (6233)، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (8/6)، وابن القيم في ((أعلام الموقعين)) (208/1)، وحسنه ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (87/1)، وقال ابن باز في ((الفوائد العلمية)) (264/6): (جيد عظيمٌ جدًّا؛ جيد الإسناد جيدُ المعنى)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2863).

كما قال سُبحانَه: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [البقرة: 143].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((يُدعَى نوحٌ يومَ القيامةِ، فيَقولُ: لبَّيكَ وسَعْديكَ[176] يا ربِّ، فيقولُ: هل بلَّغتَ؟ فيقولُ: نعَمْ، فيُقالُ لأُمَّتِه: هل بلَّغكم؟ فيقولونُ: ما أتانا مِن نَذيرٍ! فيقولُ: مَن يَشهَدُ لك؟ فيقولُ: مُحَمَّدٌ وأمَّتُه. فتَشهَدونَ أنَّه قد بلَّغَ: وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [البقرة: 143])).[177]

فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ.

أي: قابِلُوا تلك النِّعمةَ العَظيمةَ بالقيامِ بشُكرِها، فأقيمُوا -أيُّها المُسلِمونَ- الصَّلاةَ للهِ بحُدودِها وأركانِها، وأعطُوا زَكاةَ أموالِكم لِمُستحقِّيها.

---

(176) لبَّيك: أي: أدومُ على طاعتِك دوامًا بعد دوامٍ، وأُقيمُ على طاعتِك إقامةً بعد إقامةٍ، مِن: ألَبَّ بالمكانِ: إذا أقام به.
وسعديك: أي: ساعدتُ طاعتَك يا ربِّ مساعدةً بعد مساعدةٍ، وهي الموافقةُ والمسارعةُ، أو أسعدُ بإقامتي على طاعتِك وإجابتي لدعوتِك سعادةً بعد سعادةٍ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (673/2).

(177) رواه البخاري (4487).

وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ.

أي: وثِقُوا باللهِ وتوَكَّلوا عليه في جَميعِ أمورِكم، واعمَلوا بوَحْيِه وتمَسَّكوا به؛ لأنَّه وليُّكم وحافِظُكم، ومُدَبِّرُ أمورِكم، وناصِرُكم على أعدائِكم.

كما قال تعالى: وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [آل عمران: 101].

وقال سُبحانَه: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [الطلاق: 3].

فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

أي: فنِعْم المَولى هو سُبْحانَه، ونِعْمَ النَّاصِرُ.

تَفْسِيرُ
سُورَةِ المؤمِنونَ

سُورةُ المُؤْمِنونَ

سورةُ المُؤْمِنونَ

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسورةِ (المؤمنون).[178]

فعن عبدِ الله بنِ السَّائبِ رضي الله عنه، قال: ((صلَّى لنا النبيُّ – ﷺ – الصبحَ بمكةَ، فاستفتح سورةَ المؤمنينَ حتَّى جاء ذِكرُ موسَى وهارونَ أو ذِكرُ عيسَى –محمدُ بنُ عبَّادٍ[179] يشكُّ، أو اختلفوا عليه– أخَذَتِ النبيَّ – ﷺ – سَعْلَةٌ[180] فركع، وعبدُ الله بنُ السَّائبِ حاضرٌ ذلك)).[181]

سورةُ (المؤمنون) مكيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ من المفسِّرين.[182]

---

(178) وسمِّيت هذه السورةُ بـ «المؤمنون»؛ لافتتاحِها بفلاحِ المؤمنينَ، واشتمالِها على أوصافِهم وجزائِهم في الآخرة.
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروابادي (329/1)، ((تفسير القاسمي)) (280/7).

(179) هو أحدُ رجالِ الإسنادِ.

(180) السَّعلةُ: فَعلةٌ مِن السُّعالِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (693/2).

(181) أخرجه مسلم (455).

(182) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، وأبو حيانَ، والفيروزابادي، والبقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (254/3)، ((تفسير القرطبي)) (102/12)، ((تفسير أبي حيان)) (545/7)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (329/1)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (302/2).

مِن أهمِّ مقاصدِ هذه السورةِ:

1- تحقيقُ الوحدانيَّةِ، وإبطالُ الشِّركِ.

2- تقريرُ النُّبوةِ للنَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والردُّ على مَن ينكرونَها مِن الكفَّارِ.

3- الدَّلالةُ على أخلاقِ أهلِ الإسلامِ.

مِن أبرزِ المَوضوعاتِ التي تناولَتْها هذه السُّورةُ:

1- بيانُ صِفاتِ المؤمنينَ، وما أعدَّه اللهُ لأصحابِ هذه الصِّفاتِ.

2- ذِكرُ أطوارِ خَلقِ الإنسانِ الدالِّ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وقُدرتِه على البَعثِ.

3- بيانُ بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ في هذا الكَونِ.

4- ذِكرُ جانبٍ مِن قَصَصِ بَعضِ الأنبياءِ، ومَوقِفِ أقوامِهم منهم، وكيف كانت العاقبةُ.

5- توجيهُ الرُّسُلِ إلى أكلِ الحَلالِ الطَّيِّبِ، والمداومةِ على العَمَلِ الصَّالحِ؛ وبيانُ وَحدةِ دينِ الأنبياءِ جَميعًا.

6- بيانُ مَوقفِ المُشرِكينَ مِن الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، ومَصيرِهم يومَ القيامةِ، مع الرَّدِّ على شُبُهاتِهم الفاسِدةِ، وتسليةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما يُثَبِّتُ قَلبَه.

7- ذِكرُ بَعضِ الأدِلَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِه؛ كخَلقِ سَمعِهم وأبصـــارِهم وأفئِدتِهم، ونَشـــأتِهم مِن الأرضِ، وإشهادِهم على أنفُسِهم بأنَّ الخالِقَ هو اللهُ.

8- إرشادُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى أن يغُضَّ عن سوءِ مُعاملةِ المُشرِكينَ، ويَدفعَها بالتي هي أحسَنُ، وأن يستعيذَ باللهِ مِن الشَّياطينِ.

9- ذِكرُ أحَدِ مَشاهِدِ يومِ القيامةِ وما يَنتظِرُ المُشرِكينَ في هذا اليومِ، وحالِهم عند نُزولِ الموتِ بهم.

10- خُتِمت السُّورةُ بأمرِ اللهِ لِنَبيِّه بالتوجُّهِ إليه طلَبًا للرَّحمةِ والغُفرانِ.

سورةُ المُؤْمِنونَ

الآيات (1–11)

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ
(3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7)
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ
هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)

غريب الكلمات:

أَفْلَحَ: أي: فازَ وسعِد، والفَلاحُ: الظَّفَرُ وإدراكُ البُغيةِ، والبقاءُ، وأصلُ (فلح): يدلُّ على فوزٍ وبقاءٍ.

خَاشِعُونَ: أي: ساكِنونَ مُتواضِعونَ، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ الخشوعُ فيما يُوجَدُ على الجوارِحِ، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التطامُنِ.

اللَّغْوِ: أي: الباطِلِ، وما يجبُ أن يُلغَى مِن اللعبِ والهزلِ والمعاصي، واللَّغْوُ مِن الكلامِ: ما لا يُعتدُّ به، وأصلُه يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به.

مُعْرِضُونَ: أي: مُنصَرِفونَ، والإعراضُ: هو أن تولِّيَ الشَّيءَ عُرضَك، أي: جانِبَك، ولا تُقبِلَ عليه.

الْعَادُونَ: أي: المجاوِزونَ الحَدَّ، والمُعتَدونَ، وأصلُه: يدُلُّ على تَجاوُزِ الحَدّ.

رَاعُونَ: أي: قائِمونَ بالحِفظِ والإصلاحِ، وأصلُ (رعي): يدلُّ على مُراقَبةٍ وحِفْظٍ.

الْفِرْدَوْسَ: أي: أعلَى الجنَّةِ، وأوسطَها، وقيل: هو البستانُ المخصوصُ بالحسنِ وذلك بلسانِ الرُّومِ، وأصلُ الفردوسِ: البستانُ الواسعُ الجامعُ لأصنافِ الثَّمَرِ.

تفسير الآيات:

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1).

أي: قد فاز وظفِر بخَيرِ الدُّنيا والآخرةِ المُؤمِنونَ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجبَ عليهم الإيمانُ به.

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2).

أي: الذينَ مِن صِفاتِهم أنَّهم في صَلاتِهم خاضِعونَ، مُتَذلِّلونَ لله ساكِنونَ، مُتدَبِّرونَ لِما يقولونَ فيها.[183]

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3).

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم معرِضونَ عن الباطِلِ وجميعِ ما يَكرَهُه اللهُ؛ كالمعاصي وما لا فائِدةَ ولا خَيرَ فيه؛ تَنزيهًا لأنفُسِهم عنه، وانشِغالًا منهم بما يَنفَعُ مِن الحَقِّ والخَيرِ.[184]

---

(183) اختُلِف في الذي عُنِي به في هذا الموضع من الخشوع؛ فقال بعضهم: عني به: سكون الأطراف في الصلاة.

وقال آخرون: الخوف.

ورجَّح ابنُ جرير (١٧/ ١٠) صوابَ كلا القولين للعموم، فقال -بعد أن ذكر أن الخشوع: التذلل والخضوع-: «وإذ كان ذلك كذلك، ولم يكن الله -تعالى ذكره- دلَّ على أن مراده مِن ذلك معنًى دون معنًى في عقل ولا خبر؛ كان معلومًا أن معنى مراده من ذلك العموم.

وإذ كان ذلك كذلك فتأويل الكلام ما وصفتُ مِن قبلُ مِن أنه: والذين هم في صلاتهم متذللون لله بأداء ما ألزمهم مِن فرضه وعبادته، وإذا تذلل لله فيها العبد رُئيت ذلة خضوعه في سكون أطرافه، وشغله بفرضه، وتركه ما أمر بتركه فيها».

وعلَّق ابنُ تيمية (٤/ ٤٥٤) بقوله: «الخشوع يتضمن السكينة والتواضع جميعًا».

(184) قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ باللَّغوِ هاهنا خمسةُ أقوالٍ: أحدُها: الشِّركُ.

رواه أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثاني: الباطِلُ.

رواه ابنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثالثُ: المعاصي.

قاله الحَسَنُ.

والرابعُ: الكَذِبُ.

قاله السُّدِّيُّ.

والخامسُ: الشَّتمُ والأذى الذي كانوا يَسمَعونَه مِن الكُفَّارِ.

قاله مقاتِلٌ.

قال الزَّجَّاج: واللَّغوُ: كُلُّ لَعِبٍ ولَهوٍ، وكلُّ مَعصيةٍ فهي مُطَّرَحةٌ مُلغاةٌ، فالمعنى: شَغَلَهم الجِدُّ فيما أمَرَهم اللهُ به عن اللَّغوِ).

((تفسير ابن الجوزي)) (256/3).

ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (152/3)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (6/4).

وممَّن قَصَر اللَّغوَ على ساقِطِ الكلامِ: السمرقندي، وابن عطية، والنَّسَفي.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (473/2)، ((تفسير ابن عطية)) (136/4)، ((تفسير النسفي)) (459/2)، ((تفسير ابن جزي)) (48/2).

قال ابنُ جُزَي: (اللَّغوُ هنا: السَّاقِطُ مِن الكلامِ؛ كالسَّبِّ واللَّهوِ، والكلامِ بما لا يَعني، وعددُ أنواعِ المنهيِّ عنه من الكلامِ عِشرون نوعًا، ومعنى الإعراضِ عنه: عدمُ الاستماعِ إليه والدُّخولِ فيه، ويحتَمِلُ أن يريدَ أنَّهم لا يتكلَّمونَ به، ولكِنَّ إعراضَهم عن سَماعِه يقتضي ذلك من بابِ أَولى وأحرى).

((تفسير ابن جزي)) (48/2).

وقيل: اللَّغوُ هو ما لا يَعنيك مِن قَولٍ أو فِعلٍ؛ كاللَّعِبِ والهَزَلِ.

وممَّن اختاره: الزمخشري، والبيضاوي، وأبو السعود، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (175/3)، ((تفسير البيضاوي)) (82/4)، ((تفسير أبي السعود)) (123/6)، ((تفسير القاسمي)) (281/7).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: الباطِلُ وما يَكرَهُه اللهُ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (10/17)، ((الهداية)) لمكي (4943/7)، ((تفسير ابن كثير)) (462/5).

قال ابن كثير: (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ أي: عن الباطِلِ، وهو يَشمَلُ: الشِّركَ -كما قاله بعضُهم-، والمعاصيَ -كما قاله آخرون-، وما لا فائدةَ فيه من الأقوالِ والأفعالِ، كما قال تعالى: وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا [الفرقان: 72]).

((تفسير ابن كثير)) (462/5).

وقال النيسابوري: (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ اللَّغوُ...

يَشمَلُ كُلَّ ما كان حرامًا، أو مكروهًا، أو مباحًا لا ضرورةَ إليه ولا حاجةَ قَولًا أو فِعلًا).

((تفسير النيسابوري)) (109/5).

كما قال سُبحانَه: وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ [القصص: 55].

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4).

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم لزَكاةِ أموالِهم مُؤَدُّون.[185]

وقال الواحدي: (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ عن كلّ ما لا يَجمُلُ في الشَّرعِ مِن قَولٍ وفِعلٍ).

((الوجيز)) (ص: 743).

(185) وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالزَّكاةِ هنا: زكاةُ الأموال: ابنُ جريرٍ، والبقاعي، وابنُ عاشور، ونسبه ابنُ كثير إلى الأكثرينَ.

يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: سعيدُ بنُ جُبيرٍ.

يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (6/87).

واللَّامُ على هذا القَولِ للتعَدِّي؛ لأنَّ اسمَ الفاعِلِ لا تبلُغُ قُوَّتُه قوَّةَ الفِعلِ، فقَوِيَ باللَّامِ، كقَولِه: لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ.

يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (2/770).

قال الشوكاني: (ومعنى فِعلِهم للزَّكاةِ تأديتُهم لها، فعبَّرَ عن التَّأديةِ بالفِعلِ؛ لأنَّها ممَّا يَصدُقُ عليه الفِعلُ، والمرادُ بالزَّكاةِ هنا المصدَرُ؛ لأنَّه الصَّادرُ عن الفاعِلِ.

وقيل: يجوزُ أن يرادَ بها العينُ على تقديرِ مُضافٍ، أي: والذين هم لتأديةِ الزَّكاةِ فاعِلونَ).

((تفسير الشوكاني)) (3/561).

واختار الرَّاغبُ أنَّ الزَّكاةَ بمعنى الطَّهارةِ، واللَّامَ للتَّعليلِ، والمعنى: والذين يَفعَلونَ ما يَفعَلونَ مِن العبادةِ؛ لِيُزَكِّيَهم اللهُ تعالى، أو لِيُزكُّوا أنفُسَهم.

يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: 381).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (9/208).

وقيل: المرادُ: زكاةُ الأموالِ وزكاةُ النُّفوسِ، بتطهيرِها مِن مساوي الأخلاقِ والأعمال.

وممن قال بذلك: السعدي.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 548).

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5).

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم صائِنونَ لفُروجِهم مِن الحَرامِ، فلا يَقَعونَ فيما نَهاهم اللهُ عنه مِنَ الفواحِشِ.

إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6).

أي: هُم يَحفَظونَ فُروجَهم إلَّا مِن زَوجاتِهم أو مِن إمائِهم اللَّاتي يَملِكونَهنَّ؛ فإنَّهم لا يُلامُونَ على وَطْئِهنَّ على الوَجهِ المَشروعِ.(186)

قال ابنُ كثير: (قولُه: وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ: الأكثرونَ على أنَّ المرادَ بالزكاةِ هاهنا زكاةُ الأموال، مع أنَّ هذه الآيةَ مكيَّةٌ، وإنَّما فُرِضَت الزكاةُ بالمدينةِ في سنة اثنتينِ مِن الهجرة، والظاهِرُ أنَّ التي فُرِضَت بالمدينةِ إنَّما هي ذاتُ النُّصُبِ والمقاديرِ الخاصَّةِ، وإلَّا فالظاهِرُ أنَّ أصلَ الزَّكاةِ كان واجبًا بمكَّةَ، كما قال تعالى في سورة «الأنعامِ»، وهي مكيَّةٌ: وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ [الأنعام: 141].

وقد يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بالزَّكاةِ هاهنا: زكاةُ النَّفسِ مِنَ الشِّركِ والدَّنَس، كقولِه تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [الشمس: 9–10]، وكقولِه تعالى: وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ [فصِّلت: 6– 7]، على أحَدِ القولَينِ في تفسيرِها، وقد يحتَمِلُ أن يكون كِلا الأمرينِ مُرادًا، وهو زكاةُ النُّفوسِ وزكاةُ الأموالِ؛ فإنَّه من جملةِ زكاةِ النُّفوسِ، والمؤمِنُ الكامِلُ هو الذي يتعاطَى هذا وهذا، واللهُ أعلم).

((تفسير ابن كثير)) (462/5).

ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (307/5، 308).

(186) قال الواحدي: (قولُه: إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ قال الفرَّاءُ: معناه: إلَّا مِن أزواجِهم.

وعلى هذا القَولِ عَلَى بمعنى: مِن.

وحروفُ الصِّفاتِ مُتعاقِبةٌ.

وقال الزَّجَّاجُ: دخلت عَلَى هاهنا؛ لأنَّ المعنى: أنَّهم يُلامُونَ في إطلاقِ ما حُظِرَ عليهم إلَّا على أزواجِهم؛ فإنَّهم لا يُلامُونَ، والمعنى: أنَّهم يُلامُونَ على سِوى أزواجِهم ومِلْكِ أيمانِهم).

((البسيط)) (524/15).

وقيل: ضَمَّنَ حَافِظُونَ معنَى: مُمْسِكونَ أو قاصِرونَ، وكِلاهما يتعدَّى بـ (على).

واختاره: أبو حيان.

فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7).

أي: فمَنِ التَمَس التمَتُّعَ بفَرجِه فيما سِوى زَوجتِه وأمَتِه، فأولئك هم المُعتدونَ، المتعَدُّونَ حُدودَ اللهِ، المجاوِزونَ ما أحلَّه لهم إلى ما حرَّمَه عليهم.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8).

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم لِمَا ائتَمَنَهم اللهُ والنَّاسُ عليه، ولِعُهودِهم مع اللهِ وعبادِه مُراعونَ، قائِمونَ بحِفظِها، والوَفاءِ بها، فلا يَخونونَ الأماناتِ، ولا يَنقُضونَ العُهودَ.[187]

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا [النساء: 58].

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (548/7).

وقيل غيرُ ذلك.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (176/3)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (319/5).

قال أبو حيان: (وفي قَولِه أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ دَلالةٌ على تعميمِ وطْءِ ما مُلِكَ باليمينِ، وهو مختَصٌّ بالإناثِ بإجماعٍ، فكأنَّه قيل: أو ما مَلَكت أيمانُهم مِنَ النِّساءِ).

((تفسير أبي حيان)) (549/7).

وقال الشنقيطي: (أهلُ العِلمِ أجمَعوا على أنَّ حُكمَ هذه الآيةِ الكريمةِ في التمَتُّعِ بمِلْكِ اليَمينِ في قَولِه تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ خاصٌّ بالرِّجالِ دونَ النِّساءِ، فلا يَحِلُّ للمرأةِ أن تتسَرَّى عبدَها وتتمَتَّعَ به بمِلْكِ اليَمينِ، وهذا لا خِلافَ فيه بين أهلِ العِلمِ).

((أضواء البيان)) (316/5).

ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (314/3).

(187) قال ابنُ جُزي: (لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ يحتَمِلُ أن يريدَ أمانةَ النَّاسِ وعَهدَهم، وأمانةَ اللهِ وعَهدَه في دينِه، أو العُمومَ، والأمانةُ أعَمُّ مِن العَهدِ؛ لأنَّها قد تكونُ بعَهدٍ وبغيرِ عَهدٍ).

((تفسير ابن جزي)) (48/2).

وقال سُبحانَه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ [المائدة: 1].

وقال عزَّ وجلَّ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [الأنفال: 27].

وقال تبارك وتعالى: وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا [النحل: 91].

وقال سُبحانَه: وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا [الإسراء: 34].

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9).

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم مُواظِبونَ على أداءِ صَلَواتِهم في أوقاتِها، بأركانِها وشُروطِها وواجِباتِها.

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10).

أي: أولئك المُؤمِنونَ المَوصوفونَ بتلك الصِّفاتِ هم الوارِثونَ يَومَ القيامةِ مَنازِلَ أهلِ النَّارِ مِن الجَنَّةِ.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومَنزِلٌ في النَّارِ، فإذا مات فدخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذلك قَولُه تعالى: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ)).(188)

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11).

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ.

أي: أولئك المُؤمِنونَ يَرثونَ يومَ القيامةِ جَنَّاتِ الفِردَوسِ.

كما قال تعالى: تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا [مريم: 63].

وقال سُبحانَه: وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الزخرف: 72].

---

(188) أخرجه ابن ماجه (4341)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (377) واللفظ لهما، والبزار (9152) مختصرًا.
صحَّح إسنادَه البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (266/4)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (451/11) وقالا: (على شرطِ الشَّيخين)، وذكر الشوكاني في ((تفسيره)) (673/3) أنَّ له شاهدًا في مسلم، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4341).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((فإذا سألتُمُ اللهَ فسَلُوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفَوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ)).(189)

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ أمَّ الرُّبَيِّعِ بِنتَ البراءِ –وهي أمُّ حارِثةَ ابنِ سُراقةَ– أتَتِ النبيَّ – ﷺ –، فقالت: ((يا نبيَّ اللهِ، ألَا تُحَدِّثُني عن حارِثةَ –وكان قُتِلَ يومَ بَدرٍ؛ أصابَه سَهمٌ غَرْبٌ(190) – فإن كان في الجنَّةِ صَبَرتُ، وإن كان غيرَ ذلك اجتَهَدْتُ عليه في البُكاءِ؟ قال: يا أُمَّ حارِثةَ، إنَّها جِنانٌ في الجنَّةِ، وإنَّ ابنَك أصاب الفِردَوسَ الأعلى!!)).(191)

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: هم في تلك الجنَّاتِ ماكِثونَ لا يَخرُجونَ منها أبَدًا؛ فهم في خُلودٍ لا مَوتَ معه، ولذَّةٍ ونَعيمٍ لا انقِطاعَ له، ومُلكٍ عَظيمٍ لا زَوالَ عنه.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا [الكهف: 107– 108].

---

(189) رواه البخاري (7423).

(190) سهمٌ غَرْبٌ: أي: لا يُدرى مَن رماه.

يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: 605).

(191) رواه البخاري (2809).

سورةُ المُؤْمنونَ

الآيات (12–16)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)

غريب الكلمات:

سُلَالَةٍ: أي: ما يُسَلُّ مِن كُلِّ تُربةٍ، والسُّلالةُ: فُعالةٌ مِن السَّلِّ، وهو استخراجُ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، ومنه قولُهم: سلَلْتُ الشَّعرَ من العَجينِ فانسَلَّ.

نُطْفَةً: النُّطفةُ: هي المنيُّ، وقيل: الماءُ الصَّافي، وقيل: الماءُ القليلُ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ.

قَرَارٍ مَكِينٍ: أي: مُستقَرٍّ حصينٍ، وهو الرَّحِمُ، وأصلُ (قرر): يدلُّ على تمكُّنٍ، والمكينُ: المتمكِّنُ.

عَلَقَةً: العَلَقةُ: الدَّمُ الجامِدُ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ.

مُضْغَةً: المُضْغةُ: القِطعةُ الصَّغيرةُ مِن اللَّحمِ قَدْرَ ما يُمضَغُ، وأصلُها: مِن المَضْغِ.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12).

أي: ولقد خلَق اللهُ تعالَى آدَمَ عليه السلامُ[192] مِن طينٍ أُخِذ مِن جميعِ الأرضِ.[193]

---

(192) اختُلِف في المعنِيّ بالإنسان في قوله تعالى: ﴿ولَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ﴾ على قولين: أحدهما: أنه آدم – عليه السلام –، وإنما قيل: ﴿مِن سُلالة﴾ لأنه استُلّ من كل الأرض.

والثاني: أنه ابن آدم، والسُّلالة: النطفة استُلَّت من الطين، والطين: آدم – عليه السلام –.

ورجَّح ابنُ جرير (١٧/ ١٩) مستندًا إلى السياق واللغة القولَ الثاني الذي قاله ابن عباس مِن طريق أبي يحيى، ومجاهد، والكلبي «لدلالة قوله: ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ على أنّ ذلك كذلك؛ لأنّه معلوم أنّه لم يَصِر في قرار مكين إلا بعد خلقه في صُلْب الفحل، ومِن بعد تَحَوُّلِه مِن صلبه صار في قرار مكين، والعرب تسمي ولد الرجل ونطفته: سليله وسلالته.

لأنهما مسلولان منه».

وعلَّق ابنُ عطية (٦/ ٢٨١) على القول الثاني بقوله: «وهذه الفرقة يَتَرَتَّب مع قولها عود الضمير في ﴿جعلناه﴾، ﴿وأنشأنه﴾».

ورجَّح ابنُ كثير (١٠/ ١١٢) القول الأول مستندًا إلى السياق، ودلالة القرآن، فقال: «وهذا أظهر في المعنى، وأقرب إلى السياق، فإنّ آدم – عليه السلام – خُلِق مِن طين لازب، وهو الصلصال مِن الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [الروم: ٢٠]».

(193) وممن اختار أنَّ المرادَ بالإنسانِ: آدمُ: مقاتلُ بنُ سليمان، ويحيى بن سلام، والزجَّاج، والسمرقندي، والقصَّاب، وابن أبي زمنين، وابن كثير، وابن القيم، والعُليمي، والسعدي، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (153/3)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (394/1)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (8/4)، ((تفسير السمرقندي)) (475/2)، ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (345/2)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (196/3)، ((تفسير ابن كثير)) (465/5)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: 263)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (582/2)، ((تفسير العليمي)) (460/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 548)، ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات – الحديد)) (ص: 272).

قال ابن كثير: (وقال قتادةُ: استُلَّ آدمُ مِنَ الطِّينِ.

وهذا أظهرُ في المعنَى، وأقربُ إلى السِّياقِ، فإنَّ آدَمَ عليه السَّلامُ خُلِقَ مِن طينٍ لازِبٍ، وهو الصَّلصالُ مِنَ الحمَأِ المسنونِ، وذلك مخلوقٌ مِنَ التُّرابِ، كما قالَ تعالَى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [الروم: 20]).

((تفسير ابن كثير)) (465/5).

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ [الحج: 5].

وقال ابنُ عاشور في معنى السُّلالةِ بناءً على هذا القولِ: (السُّلالةُ: الطِّينَةُ الخاصَّةُ الَّتي كَوَّنَ اللَّهُ منها آدمَ، وهي الصَّلْصالُ الَّذي مَيَّزَه مِنَ الطِّينِ في مبدأِ الخليقةِ، فتلك الطِّينةُ مسلولةٌ سَلًّا خاصًّا مِنَ الطِّينِ ليتكَوَّنَ منها حَيٌّ).

((تفسير ابن عاشور)) (18/23).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: ابنُ آدمَ.

وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والثعلبي، والسمعاني، والواحدي، والبغوي، والخازن، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/19)، ((تفسير الثعلبي)) (7/42)، ((تفسير السمعاني)) (3/466)، ((الوسيط)) للواحدي (3/285)، ((تفسير البغوي)) (3/361)، ((تفسير الخازن)) (3/269)، ((تفسير الشوكاني)) (3/564).

قال ابنُ الجوزي: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فيه قولان: أحدُهما: أنَّه آدمُ عليه السَّلامُ، وإنَّما قيل: مِنْ سُلَالَةٍ؛ لأنَّه استُلَّ مِن كُلِّ الأرضِ.

هذا مذهبُ سلمانَ الفارسيِّ، وابنِ عبَّاسٍ في روايةٍ، وقتادةَ.

والثاني: أنَّه ابنُ آدم، والسُّلالةُ: النُّطفةُ استُلَّت من الطينِ، والطينُ: آدمُ عليه السلامُ.

قاله أبو صالحٍ عن ابن عباسٍ.

قال الزجَّاج: والسُّلالةُ: فُعالةٌ، وهي القليلُ مما يَنسَلُ).

((تفسير ابن الجوزي)) (3/257).

وقال السمعاني: (وقولُه: مِنْ طِينٍ الطينُ هاهُنا هو آدمُ، وعليه الأكثرونَ).

((تفسير السمعاني)) (3/466).

وقال ابن جُزي: (ويحتملُ عندي أن يرادَ بالإنسانِ الجنسُ الذي يعُمُّ آدمَ وذريتَه، فأجمَلَ ذِكرَ الإنسانِ أوَّلًا، ثم فصَّلَه بعد ذلك إلى الخِلقةِ المختصَّةِ بآدمَ: وهي من طينٍ، وإلى الخِلقةِ المختصَّةِ بذريَّتِه، وهي النطفةُ).

((تفسير ابن جزي)) (2/49).

وقولُه: مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (مِن) الأولى ابتدائيَّةٌ متعلِّقةٌ بالخَلقِ، و(مِنْ) الثانية بيانيَّةٌ متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقَعَ صفةً لسُلالة، أي: خلقناهُ مِن سُلالةٍ كائنةٍ مِن طينٍ.

ويجوزُ أنْ تتعلَّق بسُلالة على أنَّها بمعنى مسلولةٍ؛ فهي ابتدائيَّةٌ كالأُولى.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/178)، ((تفسير البيضاوي)) (4/83)، ((تفسير أبي حيان)) (7/550، 551)، ((تفسير أبي السعود)) (6/126).

وقال سُبحانَه: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ [السجدة: 7، 8].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((إنَّ اللهَ تعالى خلَقَ آدَمَ مِن قَبضَةٍ قبَضَها مِن جَميعِ الأرضِ،[194] فجاء بنو آدَمَ على قَدْرِ الأرضِ، فجاء منهم الأحمَرُ والأبيَضُ، والأسْوَدُ وبيْنَ ذلك، والسَّهلُ والحَزْنُ،[195] والخَبيثُ والطَّيِّبُ)).[196]

---

(194) على قَدْرِ الأرضِ، أي: مَبْلَغِها من الألوانِ والطِّباعِ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (176/1).

(195) والسَّهلُ، أي: اللَّيِّنُ.

والحَزْنُ، أي: الغَليظُ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (176/1).

(196) أخرجه أبو داود (4693)، والترمذي (2955)، وأحمد (19642).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيح)، وصحَّحه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (74/6)، وابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (ص126)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4693).

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13).

أي: ثمَّ جعلْنا ابنَ آدمَ[197] نُطفةً،[198] مُستقِرَّةً محفوظةً في رَحِمِ المرأةِ.[199]

---

(197) على القولِ بأنَّ المرادَ بالإنسانِ آدمُ: فالمرادُ بقولِه: جَعَلْناه بنو آدمَ، (ويكونُ الضميرُ يعودُ على غيرِ مَن ذُكِرَ أوَّلًا، ولكن يفسِّره سياقُ الكلامِ، وإن أراد بالإنسانِ ابنَ آدم فيستقيمُ عودُ الضمير عليه، ويكون معنى خَلْقِه مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ: أي: خلْقِ أصلِه، وهو أبوه آدمُ).

((تفسير ابن جزي)) (49/2).

وقال القصَّاب: (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً الهاء: غيرُ راجعةٍ إلى آدمَ، بل راجعةٌ على ولدِه؛ لأنَّهم شاركوه باسم الإنسيَّةِ، وهي عمومٌ منهم، إلَّا عيسى صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّه غيرُ مجعولٍ نطفةً، بل مخلوقٌ بقدرةِ الربِّ في بطن أمِّه، وحواءُ خارجةٌ مِن الطينِ والنُّطفةِ معًا؛ لأنَّ خَلْقَها بعدَ خلقِ آدمَ، وبعدَ نفْخِ الرُّوحِ فيه مِن ضِلَعٍ مِن أضلاعِه، والضِّلَعُ حينئذٍ عظمٌ).

((النكت الدالة على البيان)) (345/2).

(198) قال الشنقيطي: (خُلِقَ الإنسانُ مِن نطفةٍ، وهي مَنِيُّ الرجلِ ومَنِيُّ المرأةِ...

وقال صاحبُ «الدر المنثور» بعد ذكرِ بعض الرواياتِ في تفسير الأمشاجِ بالأخلاطِ مِن ماء الرجلِ وماء المرأةِ: وأخرج الطستي عن ابنِ عباسٍ: أنَّ نافعَ بنَ الأزرق، قال: أخبِرْني عن قوله: مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ قال: اختلاطُ ماءِ الرجلِ وماء المرأةِ إذا وقع في الرحِمِ...

إذا عرَفتَ معنى ذلك، فاعلمْ أنَّه تعالى بيَّنَ أنَّ ذلك الماءَ الذي هو النطفةُ: منه ما هو خارجٌ مِن الصُّلبِ، وهو ماءُ الرجلِ، ومنه ما هو خارجٌ مِن الترائبُ، وهو: ماءُ المرأةِ، وذلك في قولِه جلَّ وعلا: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ [الطارق: 5 - 7]؛ لأنَّ المرادَ بالصُّلبِ: صُلبُ الرجلِ، وهو ظهرُه، والمرادَ بالترائبِ: ترائبُ المرأةِ، وهي موضِعُ القِلادةِ منها...

فقولُه هنا: مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ يدُلُّ على أنَّ الأمشاجَ هي الأخلاطُ المذكورةُ).

((أضواء البيان)) (330/2).

(199) قال الشنقيطي: (القرارُ هنا: مكانُ الاستقرارِ، والمكِينُ: المتمكِّنُ، وُصِفَ القرارُ به؛ لتمكُّنِه في نفْسِه، بحيث لا يَعرِضُ له اختلالٌ، أو لتمكُّنِ مَن يَحُلُّ فيه، قاله أبو حيانَ في «البحر».

وقال الزمخشري: القرارُ: المستقرُّ، والمراد به: الرَّحِمُ، وصِفَت بالمكانةِ التي هي صفةُ المستقِرِّ فيها، أو بمكانتِها في نفْسِها؛ لأنَّها مَكُنَت بحيث هي وأُحرِزت).

((أضواء البيان)) (324/5).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (178/3)، ((تفسير أبي حيان)) (551/7).

كما قال سُبحانَه: أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ [المرسلات: 20- 22].

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14).

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً.

أي: ثمَّ صيَّرْنا النُّطْفةَ قِطعةَ دَمٍ تعْلَقُ في الرَّحِمِ.

فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً.

أي: فجعَلْنا قِطعةَ الدَّمِ قِطعةَ لَحمٍ صَغيرةً، لا شَكلَ فيها ولا تَخطيطَ.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ [الحج: 5].

وقال البقاعي: (فِي قَرَارٍ أي: مِن الصُّلبِ والترائبِ ثمَّ الرَّحِمِ).
((نظم الدرر)) (115/13).

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ - ﷺ -، وهو الصَّادِقُ المَصدوقُ، قال: ((إنَّ أحدَكم يُجمَعُ خَلقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك)).[200]

فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا.

أي: فجعَلْنا قِطعةَ اللَّحمِ عِظامًا مُختَلِفةً، شَكَّلْناها ذاتَ رأسٍ ويدينِ ورِجلَينِ.

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا.

أي: فألبَسْنا تلك العِظامَ لَحمًا.

ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ.

أي: ثمَّ نفَخْنا فيه الرُّوحَ، فتحوَّلَ إنسانًا حَيًّا، وبشَرًا سَوِيًّا.[201]

---

(200) رواه البخاري (3208) واللفظ له، ومسلم (2643).

(201) اختُلِف في الخلق الآخر على أقوال: الأول: نفخ الروح فيه.

الثاني: تصريفه إياه في الأحوال بعد الولادة؛ في الطفولة، والكهولة، والاغتذاء، ونبات الشعر، والسن، ونحو ذلك من أحوال الأحياء في الدنيا.

الثالث: كمال الشباب.

ورجَّح ابنُ جرير (١٧/ ٢٤ - ٢٥) مستندًا إلى الدلالات العقلية القولَ الأول الذي قاله علي بن أبي طالب، وابن عباس من طريق عطاء، وعكرمة، والشعبي، ومجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وابن زيد، والحسن، والكلبي، ومقاتل، فقال: «وذلك أنه بِنَفْخِ الروحِ فيه يتحول خلقًا آخر إنسانًا، وكان قبل ذلك بالأحوال التي وصفه الله أنه كان بها؛ من نطفة وعلقة ومضغة وعظم، وبنفخ الروح فيه؛ يتحول عن تلك المعاني كلها إلى معنى الإنسانية، كما تَحول أبوه آدم بنفخ الروح في الطينة التي خلق منها إنسانًا وخلقًا آخر غير الطين الذي خُلِق منه».

فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

أي: فتعاظَمَ وكثُرَ خيرُ اللهِ أتقنِ الصَّانِعينَ، الذي أتْقَنَ كلَّ شَيءٍ خلَقَه![202]

كما قال تعالى: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ [السجدة: 7].

وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه، عن رَسولِ اللهِ - ﷺ -: أنَّه كان إذا سجَدَ قال: ((اللهمَّ لك سجَدْتُ، وبك آمَنْتُ، ولك أسلَمْتُ، سَجَد وَجْهي للَّذي خلقَه وصَوَّره، وشقَّ سَمْعَه وبصَرَه، تبارك اللهُ أحسَنُ الخالقِينَ)).[203]

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15).

ولم ير ابنُ كثير (١٠/ ١١٤) منافاة بين هذا القول والقول الثاني الذي قاله ابن عباس من طريق العوفي، وقتادة، والضحاك، فقال: «ولا منافاة؛ فإنه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع في هذه التنقلات والأحوال».

وساق ابنُ عطية (٦/ ٢٨٣) الأقوال، ثم انتقد ما فيها من تخصيص، مستندًا إلى دلالة العموم، فقال: «وهذا التخصيص كله لا وجه له، وإنما هو عامٌّ في هذا وغيرِه مِن وجوه النطق والإدراك وحسن المحاولة؛ هو بها آخَرَ، وأول رتبة من كونه آخَرَ هي نفخ الروح فيه، والطرف الآخر من كونه آخَرَ تحصيله المعقولات».

(202) قال الراغب: (كلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه لفظُ «تبارك» فهو تنبيهٌ على اختِصاصِه تعالى بالخَيراتِ المذكورةِ مع ذِكرِ «تبارك»).

((المفردات)) (ص: 120).

وقال ابنُ جُزي: (أي: أحسنُ الخالقينَ خَلقًا، فحُذِف التمييزُ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه.

وفسَّرَ بعضُهم الخَالِقِينَ بالمقَدِّرينَ؛ فرارًا مِن وصفِ المخلوقِ بأنَّه خالقٌ، ولا يجِبُ أن يُنفَى عن المخلوقِ أنَّه خالقٌ بمعنى صانعٍ، كقولِه: وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ [المائدة: 110]، وإنما الذي يجِبُ أن يُنفَى عنه: معنى الاختراعِ والإيجادِ مِن العدَمِ؛ فهذا هو الذي انفردَ الله به).

((تفسير ابن جزي)) (49/2).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (258/3)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 131، 132).

(203) رواه مسلم (771).

أي: ثمَّ إنَّكم –أيُّها النَّاسُ– بعد أنْ خلَقْناكم وأحيَيناكم ستَموتونَ، فتَعودونَ تُرابًا كما كُنتُم.

كما قال تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [آل عمران: 185].

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16).

أي: ثمَّ إنَّكم –أيُّها النَّاسُ– ستُبعَثونَ يومَ القيامةِ مِنَ التُّرابِ؛ للحِسابِ والجَزاءِ.

كما قال تعالى: أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى [القيامة: 36 – 40].

سورةُ المُؤْمِنونَ

الآيات (17-22)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ
نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ
تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (20) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ
فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22)

غريب الكلمات:

طَرَائِقَ: أي: سموات، كُلُّ سماءٍ طَرِيقةٌ، وسُمِّيت طرائِقَ؛ لأنَّ بَعضَها فوقَ بَعضٍ، يُقالُ: طارقتُ الشَّيءَ: إذا جعلتَ بعضَه فوقَ بعضٍ.

طُورِ سَيْنَاءَ: اسمُ جبلٍ معروفٍ، وهو الجَبَلُ الذي كَلَّمَ اللهُ مُوسى عليه.

وَصِبْغٍ: أي: زيتٍ يُغمَسُ فيه للائتدامِ، وأصلُ الصِّبغِ: ما يلَوَّنُ به الثَّوبُ، فشُبِّه به ما يُصطَبَغُ به؛ وذلك أنَّ الخبزَ يُلوَّنُ بالصِّبغِ إذا غُمِرَ فيه.

الْفُلْكِ: أي: السُّفنِ، واحدُه وجمعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (الفلك): الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلكًا؛ لأنها تُدارُ في الماءِ.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17).

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ.

أي: ولقدْ خلقْنا فوقكم -أيُّها النَّاسُ- سبعَ سَمواتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ.(204)

كما قال تعالى: الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا [الملك: 3].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا [نوح: 15].

وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ.

أي: أحاط عِلمُنا بكلِّ مخلوقٍ، فلا نخلقُ مخلوقًا ونغفُلُ عنه أو ننساه، بل نحفظُه وندبِّرُ أمرَه، ونقومُ بمصالحِه، ومِن ذلك حفظُ السمواتِ مِن السقوطِ على الأرضِ.(205)

---

(204) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (26/17)، ((تفسير القرطبي)) (111/12)، ((تفسير ابن كثير)) (469/5).
قال ابن جرير: (العَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ شَيءٍ فوقَ شَيءٍ طَرِيقةً، وإنَّما قيل للسَّمواتِ السَّبعِ سَبعَ طرائِقَ؛ لأنَّ بَعضَهنَّ فَوقَ بعضٍ، فكُلُّ سَماءٍ منهنَّ طَرِيقةٌ).
((تفسير ابن جرير)) (26/17).
وقيل: سمِّيت طرائقَ؛ لأنها طُرُقُ الملائكةِ.
وقيل غيرُ ذلك.
يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (49/4)، ((تفسير الرسعني)) (109/5)، ((تفسير الألوسي)) (220/9)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (327/5).

(205) قال القرطبي: (وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ قال بعضُ العُلَماءِ: أي: عن خَلقِ السَّماءِ.

وقال أكثَرُ المفسِّرينَ: أي: عن الخَلقِ كُلِّهم مِن أن تَسقُطَ عليهم فتُهلِكَهم.

قلتُ: ويحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ أي: في القيامِ بمَصالِحِهم وحِفظِهم، وهو معنى الحيِّ القَيُّومِ).

((تفسير القرطبي)) (111/12).

وقال الشنقيطي: (معناه كقوله: وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ [الحج: 65]؛ لأنَّ مَنْ يُمسِكُ السَّماءَ لو كان يغفُلُ لسقَطَتْ فأهلكَتِ الخَلقَ).

((أضواء البيان)) (327/5).

قال الشوكاني: (وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ المرادُ بالخَلقِ هنا المخلوقُ، أي: وَمَا كُنَّا عن هذه السَّبعِ الطَّرائِقِ وحِفظِها عن أن تَقَعَ على الأرضِ بِغافِلِينَ).

((تفسير الشوكاني)) (565/3).

وقال ابن جرير: وقَولُه: وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ يقولُ: وما كُنَّا في خَلْقِنا السَّمَواتِ السَّبعَ فَوقَكم عن خَلْقِنا الذي تحتَها غافِلينَ، بل كُنَّا لهم حافِظينَ مِن أن تَسقُطَ عليهم فتُهلِكَهم).

((تفسير ابن جرير)) (27/17).

ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (9/4)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (4953/7)، ((تفسير البغوي)) (362/3).

واختار يحيى بن سلام أنَّ معنى: وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ أي: عن أن نُنزِّلَ عليهم ما يُحييهم وما يُصلِحُهم مِن هذا المطَرِ.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (396/1).

وممن اختارَ عمومَ المعنى: أبو حيانَ، والبقاعي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (554/7)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (120/13)، ((تفسير السعدي)) (ص: 549).

وقال السعدي: (وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ فكما أنَّ خَلْقَنا عامٌّ لكلِّ مخلوقٍ، فعِلمُنا أيضًا محيطٌ بما خلَقْنا، فلا نُغفِلُ مخلوقًا ولا ننساه، ولا نخلُقُ خَلقًا فنضَيِّعُه، ولا نَغفُل عن السَّماءِ فتقَعُ على الأرض، ولا ننسى ذرَّةً في لُجَجِ البحار وجوانبِ الفَلَوات، ولا دابَّةً إلا سُقْنا إليها رزقَها وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا).

((تفسير السعدي)) (ص: 549).

وقال البقاعي في قوله: وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ: (بل دبَّرْناه تدبيرًا محكمًا ربطْناه بأسبابٍ تنشأ عنها مُسَبَّباتٌ يكونُ بها صلاحُه، وجعَلْنا في كلِّ سماءٍ ما ينبغي أن يكونَ فيها مِن المنافِعِ، وفي كلِّ أرضٍ كذلك، وحَفِظناه من الفسادِ إلى الوقتِ الذي نريدُ فيه طيَّ هذا العالمِ وإبرازَ غيره، ونحن مع ذلك كلَّ يومٍ في شأنٍ، وإظهارِ برهانٍ، نعلَمُ ما يلِجُ في الأرضِ وما يخرجُ منها، وما ينزِلُ من السماءِ وما يعرُجُ فيها، إذا شِئْنا أنفَذْنا السَّبَبَ فنشأ عنه المسَبَّبُ، وإذا شِئْنا منعناه ممَّا هُيِّئ له، فلا يكونُ شيءٌ مِن ذلك إلا بخلقٍ جديدٍ، فكيف يُظَنُّ بنا أنَّا نترُكُ الخَلقَ بعد موتهم سُدًى، مع أنَّ فيهم المطيعُ الذي لم نوَفِّه ثوابَه، والعاصي الذي لم نُنزِلْ به عقابَه؟! أم كيف لا نقدِرُ على إعادتِهم إلى ما كانوا عليه بعد ما قدَرْنا على إبداعِهم ولم يكونوا شيئًا؟!).

((نظم الدرر)) (120/13).

وقال ابن عطية: (قولُه تعالى: وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ نفيٌ عامٌّ في إتقانِ خَلْقِهم، وعن مصالحِهم، وعن أعمالِهم).

كما قال تعالى: وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [الأنعام: 59].

وقال سُبحانَه: وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [يونس: 61].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [هود: 6].

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18).

((تفسير ابن عطية)) (139/4).

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ.

أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بحَسَبِ حاجةِ الخَلقِ وما يَكفيهم، على المِقدارِ الذي يُصلِحُ ولا يُفسِدُ، فجعَلْناه محفوظًا في الأرضِ.(206)

كما قال تعالى: وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ [الحجر: 21].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ [الزمر: 21].

وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ.

أي: وإنَّا على إذهابِ الماءِ الذي أسكَنَّاه في الأرضِ لَقادِرونَ، ولو وقَعَ ذلك لهَلَكَ النَّاسُ وهلَكَت أراضيهم وزُروعُهم وماشيَتُهم.(207)

---

(206) قال البقاعي: (فَأَسْكَنَّاهُ بعظمتِنا فِي الْأَرْضِ بعضَه على ظهرِها وبعضَه في بطنِها، ولم نعُمَّها بالذي على ظهرِها، ولم نغوِّرْ ما في بطنِها؛ ليَعُمَّ نفعُه، وليَسهُلَ الوصولُ إليه).

((نظم الدرر)) (121/13).

وقال ابن عاشور: (هذا الإقرارُ على نوعينِ: إقرارٌ قصيرٌ، مثلُ: إقرارِ ماءِ المطرِ في القشرةِ الظَّاهرةِ مِن الأرضِ عَقِبَ نزولِ الأمطارِ، على حسَبِ ما تقتضيه غزارةُ المطرِ ورخاوةُ الأرضِ، وشِدَّةُ الحرارةِ أو شِدَّةُ البردِ، وهو ما يَنبُتُ به النباتُ في الحرثِ، والبَقلُ في الربيعِ، وتمتَصُّ منه الأشجارُ بعروقِها فتُثمِرُ إثمارَها، وتخرُجُ به عروقُ الأشجارِ وأصولُها من البزورِ التي في الأرضِ.

ونوعٌ آخَرُ: هو إقرارٌ طويلٌ، وهو إقرارُ المياه التي تنزِلُ مِن المطرِ وعن ذَوبِ الثُّلوجِ النازلةِ، فتتسَرَّبُ إلى دواخِلِ الأرضِ، فتنشأُ منها العيونُ التي تنبُعُ بنفْسِها، أو تُفجَّرُ بالحفرِ آبارًا).

((تفسير ابن عاشور)) (29/18).

(207) قال السعدي: (وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ إمَّا بألَّا نُنزِلَه، أو نُنزِلَه فيَذهبَ نازِلًا لا يُوصَلُ إليه، أو لا يُوجَدُ منه المقصودُ منه، وهذا تنبيهٌ منه لعبادِه أن يشكُروه على نِعمَتِه، ويقَدِّروا عَدَمَها، ماذا يحصُلُ به مِنَ الضَّرَرِ، كقولِه تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ [الملك: 30]).

كما قال تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ [الملك: 30].

فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19).

فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ.

أي: فأوجَدْنا لكم بسَبَبِ الماءِ بَساتينَ مِن نَخيلٍ وأعنابٍ.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [النحل: 10-11].

لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ.

أي: لكم -أيُّها النَّاسُ- في البَساتينِ فواكِهُ كثيرةٌ سِوى النَّخيلِ والأعنابِ، ولكم مِنَ البَساتينِ غذاءٌ تأكُلونَه.(208)

((تفسير السعدي)) (ص: 549).

(208) وممَّن قال بأنَّ الضميرَ في قولِه تعالى لَكُمْ فِيهَا عائدٌ إلى الجناتِ: ابنُ جريرٍ، والبغوي، والبيضاوي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (28/17)، ((تفسير البغوي)) (363/3)، ((تفسير البيضاوي)) (84/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 549).

وذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ الضميرَ في قولِه تعالى: وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ يعودُ إلى الفواكهِ الكثيرةِ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (28/17).

قال البيضاوي: (ويجوزُ أن يكونَ الضميرانِ للنخيلِ والأعنابِ، أي: لكم في ثمراتِها أنواعٌ مِن الفواكهِ: الرطبُ والعنبُ والتمرُ والزبيبُ والعصيرُ والدبسُ، وغير ذلك، وطعامٌ تأكلونه).

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [النحل: 10، 11].

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (20).

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ.

أي: وأنشَأْنا لكم -أيُّها النَّاسُ- شَجرةَ الزَّيتونِ التي تَنبُتُ في جَبَلِ سَيناءَ[209] الذي كَلَّمَ اللهُ عليه مُوسى عليه السَّلامُ.

((تفسير البيضاوي)) (84/4).

(209) اختُلِف في معنى سيناء في قوله تعالى: ﴿طور سيناء﴾ على أقوال: الأول: المبارك.

الثاني: حسن.

الثالث: جبل ذو شجر.

الرابع: اسم جبل معروف.

ورجَّح ابنُ جرير (١٧/ ٣١ بتصرف) القول الرابع الذي قاله ابن عباس من طريق عطاء الخراساني، وابن زيد.

وانتقد مستندًا للغة القولَ الأول الذي قاله ابن عباس من طريق العوفي، ومجاهد، والثاني الذي قاله قتادة، والضحاك، فقال:

«والصواب من القول في ذلك أن يُقال: إنّ سيناء اسم أضيف إليه الطور يُعرَف به، كما قيل جبلا طيء، فأضيفا إلى طيء، ولكن القول في ذلك -إن شاء الله- كما قال ابن عباس مِن أنه جبل عُرِف بذلك، وأنه الجبل الذي نودي منه موسى - ﷺ -، وهو مع ذلك مبارك، لا أنّ معنى سيناء معنى مبارك».

ثم قال: «ولو كان القول في ذلك كما قال مَن قال: معناه: جبل مبارك، أو كما قال مَن قال: معناه: حسن؛ لكان الطور مُنَوَّنًا، وكان قوله: ﴿سيناء﴾ مِن نعته.

على أن سيناء بمعنى: مبارك وحسن، غير معروف في كلام العرب، فيجعل ذلك من نعت الجبل».

وانتقدها ابنُ عطية كذلك بنحو كلام ابن جرير (٦/ ٢٨٧ - ٢٨٧).

كما قال تعالى: يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ [النور: 35].

تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ.

أي: تُخرِجُ شَجرةُ الزَّيتونِ ثَمرًا يُعصَرُ منه زَيتٌ يُدَّهَنُ به، ويجعَلُه الآكِلون إدامًا يغمِسونَ فيه خُبزَهم.(210)

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21).

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً.

أي: وإنَّ لكم -أيُّها النَّاسُ- في الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ(211) ما تَعتَبِرون به، فتَعرِفونَ أياديَ اللهِ عندَكم، وسابغَ رَحمتِه، وانفرادَه بالخَلقِ، وسَعةَ عِلمِه، وعظيمَ قُدرتِه عَزَّ وجَلَّ؛ فتَشكُرونَه ولا تكفُرونَه.

---

(210) قال ابن عاشور: (مَعْنَى تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ أَنَّهَا تَنْبُتُ مُلابِسةً للدُّهْنِ؛ فالباءُ للمُلابسةِ).

((تفسير ابن عاشور)) (38/18).

وقال الشنقيطي: (قوله: بِالدُّهْنِ: أي: تَنْبُتُ مصحوبةً بالدُّهنِ الَّذي يُستخرَجُ مِن زَيْتونِها).

((أضواء البيان)) (330/5).

وأما على القراءةِ الثانيةِ -قراءةِ ابنِ كثيرٍ وأبي عَمرٍو- بضمِّ التَّاءِ وكسرِ الباءِ تُنْبِتُ مُضارِع (أَنْبَتَ) الذي يَتعَدَّى بنفْسِه دونَ الحرفِ، فالباءُ مزيدةٌ للتَّوكيدِ.

يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (399/3).

قال العليمي: (وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ والصِّبغُ: هو الإدامُ، معطوفٌ على الدُّهنِ؛ أي: تنبتُ بالشَّيءِ الجامعِ بين كونه دُهنًا يُدَّهَنُ به ويُسرَجُ منه، وكونه إدامًا يُصبَغُ فيه الخُبزُ، أي: يُغمَسُ فيه للائتِدامِ).

((تفسير العليمي)) (465/4).

(211) وقيل: المرادُ بالأنعامِ هنا: الإبِلُ خاصَّةً.

نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا.

أي: نُسقيكم –أيُّها النَّاسُ– لبنًا ممَّا في بُطونِها.

كما قال تعالى: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ [النحل: 66].

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ.

أي: ولكم في الأنعامِ مَنافِعُ كَثيرةٌ؛ كاتِّخاذِ أوبارِها لباسًا وأثاثًا، وغيرِ ذلك مِنَ المَنافِعِ.

وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ.

أي: ومِن لُحومِ الأنعامِ وشُحومِها تأكُلونَ بعدَ ذَبحِها.

وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22).

ومِمَّن قال بذلك: الزمخشري، وابنُ جزي، والنيسابوري، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/181)، ((تفسير ابن جزي)) (2/50)، ((تفسير النيسابوري)) (5/114)، ((تفسير ابن عاشور)) (18/39).

قال النيسابوري: (لعلَّ القصدَ بالأنعامِ هاهنا الإبِلُ خاصَّةً؛ لأنَّها هي المحمولُ عليها في العادةِ، ولأنَّه قرنها بالفُلكِ، وهي سفائِنُ البَرِّ كما أنَّ الفُلكَ سفائِنُ البحرِ).

((تفسير النيسابوري)) (5/114).

أي: وعلى الإبِلِ[212] في البرِّ، وعلى السُّفُنِ في البَحرِ تَركَبونَ -أيُّها النَّاسُ- فتَحمِلُكم وتَحمِلُ مَتاعَكم.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا [الإسراء: 70].

وقال سُبحانَه: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ [غافر: 79- 80].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ [الزخرف: 12 – 14].

---

(212) ومِمَّن نصَّ هنا على أنَّ المرادَ بذلك الإبِلُ: مقاتلُ بن سليمان، ومكِّيُّ بن أبي طالب، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والرسعني، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/154)، ((الهداية)) لمكي (7/4958)، ((البسيط)) للواحدي (15/559)، ((تفسير البغوي)) (3/363)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/260)، ((تفسير الرسعني)) (5/114)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (5/331).

وقيل المرادُ: الإبِلُ والبَقَرُ.

ومِمَّن اختاره: البيضاويُّ، والبقاعي.

يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (4/85)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (13/128).

ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (2/334، 335).

سورةُ المُؤْمنونَ

الآيات (23–30)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23)
فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ
حَتَّى حِينٍ (25) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ
عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ
مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي
مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30)

غريب الكلمات:

الْمَلَأُ: أي: أشرافُ النَّاسِ ووجُوهُهم، أو الجماعةُ يجتمعونَ على رأيٍ، فيَملؤونَ العيونَ منظرًا، والنفوسَ بهاءً وجلالًا. ويُقالُ: فلانٌ مِلءُ العيونِ، أي: معظَّمٌ عندَ مَن رآه. وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم يتمالؤونَ، أي: يتظاهرونَ عليه. وأصلُ (ملأ): يدلُّ على المساواةِ، والكمالِ في الشيءِ.

جِنَّةٌ: أي: جُنونٌ، وأصلُ (جنن): السَّتْرُ والتَّسَتُّرُ.

فَتَرَبَّصُوا: أي: انتَظِروا، وأصلُ التربُّصِ: الانتظارُ والتمكُّثُ.

وَفَارَ: أي: نبَع وارتفَع، ومنه: فارت القِدرُ: إذا ارتفعَ ما فيها وغلَى، وأصلُ (فور): يدُلُّ على غَلَيانٍ.

التَّنُّورُ: أي: المكانُ الذي يُخبَزُ فيه، أو: مَكانُ النارِ، وقيل: التَّنُّورُ: وجهُ الأرضِ، وأصلُ (نور): يدلُّ على إضاءةٍ، واضطرابٍ، وقِلَّةِ ثَباتٍ.

لَمُبْتَلِينَ: أي: لَمُختَبِرينَ، وأصلُ البلاءِ: الاختبارُ والامتحانُ.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ.

أي: ولقدْ أَرسَلْنا نُوحًا إلى قَومِه، فقال لهم نُوحٌ: يا قَومِ، اعبُدُوا اللهَ وَحْدَه، وذِلُّوا بطاعتِه مُخلِصينَ له، ما لكم مِن مَعبودٍ غيرُه يَستَحِقُّ أنْ تَعبُدوه.(213)

أَفَلَا تَتَّقُونَ.

أي: أفلا تخشونَ اللهَ، وتخافونَ عقوبتَه أن تَحِلَّ بكم بسببِ عبادتِكم غيرَه، وإشراكِكم به؟!

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (24).

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ.

---

(213) قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرون: هذا تعزيةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ هذا الرَّسولِ الصابِرِ؛ ليتأسَّى به في صبرِه، وليَعلَمَ أنَّ الرُّسُلَ قَبْلَه قد كُذِّبوا).
((تفسير ابن الجوزي)) (260/3).

أي: فقال الكفارُ مِن قومِ نوحٍ مِن الأشرافِ والسَّادةِ: ما نُوحٌ إلَّا إنسانٌ مِثلُكم، وليس رَسولًا كما يَزعُمُ، وإنَّما يُريدُ أنْ يكونَ أفضَلَ منكم، فادَّعى النُّبُوَّةَ لتتَّبِعوه!

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً.

أي: ولو شاءَ اللهُ ألَّا نَعبُدَ شيئًا سِواه، لَأَنزلَ علينا ملائِكةً رُسُلًا يُبَلِّغونَنا ألَّا نَعبُدَ غيرَه.

مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ.

أي: ما سَمِعْنا في أسلافِنا مِنَ القُرونِ الماضيةِ بمِثلِ هذا الَّذي يَدْعونا إليه نُوحٌ، مِن أنَّه لا مَعبودَ لنا غيرُ اللهِ!

كما قال تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ [القصص: 36].

وقال سُبحانَه: وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ [ص: 4 – 8].

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25).

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ.

أي: ما نُوحٌ إلَّا رجُلٌ فيه شَيءٌ مِنَ الجُنونِ؛ دفعه لادِّعاءِ الرسالةِ، فلا يَدري ما يقولُ، وهو ليس رَسولًا مِن عِندِ اللهِ كما يَزعُمُ!

كما قال تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ [القمر: 9].

فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ.

أي: فانتَظِروا بنُوحٍ وَقْتًا ما حتَّى يُفيقَ مِنْ جُنونِه فيترك دعواه هذه، أو يَموتَ؛ فتَستريحوا منه.(214)

---

(214) وممن قال بأنَّ المرادَ: انتظارُ مَوتِه: الواحديُّ، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي.
يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 745)، ((تفسير القرطبي)) (119/12)، ((تفسير ابن كثير)) (473/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 550).
وقيل: المرادُ: انتَظِروا حتى حينٍ؛ لعَلَّه يُفيقُ مِمَّا هو فيه من الجُنونِ.
وممن قال بنحو ذلك: الزمخشريُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والألوسي.
يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (183/3)، ((تفسير البيضاوي)) (85/4)، ((تفسير أبي السعود)) (130/6)، ((تفسير الألوسي)) (228/9).
وقال الشوكاني: (فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ أي: انتظِروا به حتَّى يَستَبينَ أمرُه، بأنْ يفيقَ مِنْ جُنونه فيَتْرُكَ هذه الدَّعوَى، أو حتَّى يموتَ؛ فتَسْتَرِيحوا مِنه).
((تفسير الشوكاني)) (569/3).

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (26).

أي: قال نُوحٌ: رَبِّ، انصُرْني على قَومي، فأهلِكْهم بسَبَبِ تَكذيبِهم برِسالَتِي.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ [الصافات: 75].

وقال سُبحانَه: فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ [القمر: 10].

وقال عَزَّ وجَلَّ: وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا [نوح: 26– 27].

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27).

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا.

أي: فقُلْنا لنُوحٍ: اصنَعِ السَّفينةَ بمَرأًى مِنَّا، وفي حِفظِنا، وبتَعليمِنا إيَّاك كيفيَّةَ صُنْعِها.

فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ.

أي: فإذا أتَى وَقتُ إهلاكِنا لِقَومِك[215] –يا نوحُ– بالطُّوفانِ، ونَبَع الماءُ بشِدَّةٍ مِنَ المَوضِعِ الَّذي يُخبَزُ فيه؛ فأَدْخِلْ في السَّفينةِ مِن كلِّ صِنفٍ مِن أصنافِ المخلوقاتِ ذَكَرًا وأُنثى.[216]

---

(215) قال ابنُ عطية (٦/ ٢٩٠): «وقوله: ﴿أَمْرُنَا﴾ يحتمل أن يكون مصدرًا بمعنى: أن نأمر الماء بالفيض. ويحتمل أن يريد: واحد الأمور، أي: إهلاكنا للكفرة».

(216) قال ابنُ جرير: (وقولُه: وَفَارَ التَّنُّورُ [هود: 40] اختلف أهلُ التَّأويلِ في معنى ذلك؛ فقال بَعضُهم: معناه: انبَجَس الماءُ مِن وَجهِ الأرضِ، وفار التنُّورُ، وهو وَجهُ الأرضِ...

وقال آخرون: هو تنويرُ الصُّبحِ...

وقال آخرون: معنى ذلك: وفارَ أعلى الأرضِ، وأشرَفُ مكانٍ فيها بالماءِ...

وقال آخرون: هو التنُّورُ الذي يُختبَزُ فيه).

((تفسير ابن جرير)) (12/401 -404).

وقال أيضًا: (وأَولى هذه الأقوالِ عندنا بتأويلِ قَولِه: التَّنُّورُ [هود: 40] قَولُ مَن قال: هو التنُّورُ الذي يُخبَزُ فيه؛ لأنَّ ذلك هو المعروفُ مِن كلامِ العَرَبِ، وكلامُ اللهِ لا يُوجَّهُ إلَّا إلى الأغلَبِ الأشهَرِ مِن معانيه عند العَربِ إلَّا أن تقومَ حُجَّةٌ على شَيءٍ منه بخلافِ ذلك، فيُسَلَّمَ لها.

وذلك أنَّه جلَّ ثناؤه إنَّما خاطَبَهم بما خاطَبَهم به؛ لإفهامِهم معنى ما خاطَبَهم به).

((تفسير ابن جرير)) (12/406).

وقال ابن عطية: (الصَّحيحُ من الأقوالِ فيه: أنَّه تنُّورُ الخُبزِ، وأنَّها أمارةٌ كانت بيْنَ اللهِ تعالى وبيْن نوحٍ عليه السَّلامُ).

((تفسير ابن عطية)) (4/141).

ونسَبَه السمعاني للأكثرينَ.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (2/428).

وقال السعدي: (وَفَارَ التَّنُّورُ أي: فارت الأرضُ، وتفجَّرتْ عيونًا، حتى محلُّ النارِ، الذي لم تَجرِ العادةُ إلَّا ببُعدِه عن الماءِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 550).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (4/320).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ الآيةِ (40) مِن سورة (هودٍ).

كما قال تعالى: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ(217) قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ [هود: 40].

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ.

أي: وأَدخِلْ –يا نُوحُ– في السَّفينةِ أهْلَ بَيتِك، إلَّا مَن سبَقَ حُكمُ اللهِ عليه بإهلاكِه؛ لكُفرِه.

كما قال تعالى: وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ [هود: 42، 43].

وقال سُبحانَه: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ [التحريم: 10].

وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ.

أي: ولا تَسألْني –يا نُوحُ– أنْ أُنَجِّيَ الكافرينَ؛ فإنِّي قدْ حَكَمْتُ بإغراقِهم جَميعًا.

---

(217) رجَّح ابنُ عطية (٦/ ٢٩٠) أن التنور هو تنور الخبز، فقال: «والصـــحيح من الأقوال فيه: أنه تنور الخبز، وأنها أمارة كانت بين الله تعالى وبين نوح – عليه السلام –».

ولم يذكر مستندًا.

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28).

أي: فإذا استقرَرْتَ –يا نوحُ– أنتَ والمؤمنونَ الَّذين معك على السَّفينةِ، وعَلَوتُم فوقَها راكِبينَ، فقُلِ: الحَمدُ للهِ الَّذي خلَّصَنا مِنَ القومِ المُشرِكينَ.(218)

كما قال تعالى: فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الأنعام: 45].

وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29).

أي: وقُلْ –يا نُوحُ: رَبِّ أنزِلْني إنزالًا مُباركًا.(219)

قال تعالى: قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ [هود: 48].

---

(218) قال ابن عاشور: (والتَّنجيةُ مِنَ القومِ الظَّالمِينَ: الإنجاءُ مِنْ أذاهم والكونِ فيهم؛ لأنَّ في الكونِ بينَهم مُشاهدةَ كفرِهم ومناكِرِهم، وذلك مِمَّا يُؤذي المؤمنَ.
والظُّلْمُ: يجوزُ أنْ يُرادَ به الشِّركُ كما قالَ تعالَى: إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان: 13] ، ويجوزُ أنْ يُرادَ به الاعتداءُ على الحقِّ؛ لأنَّ الكافرينَ كانوا يُؤْذونَ نوحًا والمؤمنينَ بشتَّى الأذَى باطلًا وعدوانًا، وإنَّما كان ذلك إنجاءً؛ لأنَّهم قد استقلُّوا بجماعتِهم، فسَلِموا مِنَ الاختلاطِ بأعدائِهم).
((تفسير ابن عاشور)) (47/18).

(219) قال ابن الجوزي: (وفي الوقتِ الذي قال فيه نوحٌ ذاك: قولان: أحدُهما: عند نزولِه في السفينةِ.
والثاني: عند نزولِه من السفينةِ).
((تفسير ابن الجوزي)) (261/3).
وقال البغوي: (فالبَرَكةُ في السفينةِ: النجاةُ، وفي النزولِ بعدَ الخروجِ: كثرةُ النسلِ مِن أولادِه الثلاثةِ).
((تفسير البغوي)) (364/3).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: مُنْزَلًا قِراءتانِ:

1- قِراءةُ مَنْزِلًا اسمُ مَكانٍ، بمعنى مَوضِعِ النُّزولِ.(220)

2- قِراءةُ مُنْزَلًا وهو مصدرٌ بمعنى الإنزالِ، أي: أنْزِلْني إنْزالًا مُبارَكًا. وقيل: هو اسمُ مفعولٍ مِن (أنزله) على حذفِ المجرورِ، أي: مُنزلًا فيه. وقيلَ: يَرجِعُ لمعنى القِراءةِ الأُولَى، بمعنَى: مَوضِعًا مُبارَكًا يَنزِلونَ فيه.(221)

وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ.

أي: وأنتَ -يا ربَّنا- خَيرُ مَن تُنزِلُ عِبادَك.

(220) قرأ بها شعبةُ أبو بكرٍ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (328/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (38/17)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 486)، ((معاني القراءات)) للأزهري (190/2).
قال السمعاني: (وفي مَوضِعِ النُّزولِ قولانِ: أحدُهما: أنَّه السَّفينةُ بعدَ الرُّكوبِ، والآخَرُ: أنَّه الأرضُ بعدَ النُّزُولِ مِن السَّفينةِ). ((تفسير السمعاني)) (472/3).
(221) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (328/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (38/17)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 486)، ((معاني القراءات)) للأزهري (190/2)، ((تفسير ابن عاشور)) (48/18).

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30).

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ.

أي: إنَّ في إهْلاكِنا قَومَ نُوحٍ الكافرينَ وإنجائِنا المُؤمنينَ: لَدَلالاتٍ واضحاتٍ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وعِلْمِه وحِكمَتِه، وصِدْقِ أنبيائِه، وقُدْرتِه على نَصْرِ المؤمنين، وإهلاكِ أعدائِه.[222]

(222) قال ابن عاشـور: (الآياتُ: الدَّلالاتُ، أي: لَآياتٍ كثيرةً، منها ما هي دلائلُ على صـدقِ رسـالة نوحٍ، وهي إجابةُ دعوته وتصديقُ رسالتِه وإهلاكُ مكذِّبيه، ومنها آياتٌ لأمثالِ قومِ نوحٍ من الأممِ المكَذِّبين لرسُلِهم، ومنها آياتٌ على عظيمِ قدرةِ الله تعالى في إحداثِ الطوفانِ وإنزالِ مَن في الســفينةِ مَنزِلًا مُباركًا، ومنها آياتٌ على عِلمِ الله تعالى وحكمتِه؛ إذ قدَّر لتطهيرِ الأرضِ مِن الشِّـركِ مِثلَ هذا الاسـتئصـالِ العامّ لأهلِه، وإذ قدَّر لإبقاءِ الأنواعِ مِثلَ هذا الصُّـنعِ الذي أنجَى به مِن كلّ نوعٍ زوجينِ ليُعادَ التناسُلُ).
((تفسير ابن عاشور)) (48/18).

وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ.

أي: وقدْ كُنَّا مُختَبِرينَ بإرسالِ الرُّسُلِ، والتَّذكيرِ بآياتِنا قَبلَ نُزولِ عُقوبتِنا؛ لِنَنظُرَ كيف يَعمَلونَ.(223)

(223) قيل: المعنى: وقد كنَّا مُختبِرينَ قومَ نوح بإرسالِنا نوحًا إليهم، وتذكيرِهم بآياتنا قَبلَ نُزولِ عُقوبتنا بهم؛ لِنَنظرَ كيف يعملون.

وممَّن قال بذلك في الجُملة: ابنُ جَرير، والواحديُّ، وابنُ الجوزي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/38)، ((البسيط)) للواحدي (15/564)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/261).

وقيل: المعنى: ما كُنَّا إلَّا مُبتلِينَ الأممَ قَبلَكم، أي: مختبرينَ لهم بإرسالِ الرُّسلِ إليهم؛ ليَظهرَ المطيعُ والعاصي.

وممَّن قال بذلك في الجُملة: القُرطبيُّ، وابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (12/120)، ((تفسير ابن كثير)) (5/474).

وإلى نحوِ ذلك ذهَب البقاعيُّ، فقال: (لَمُبْتَلِينَ أي: فاعلين فِعلَ المختبِرِ لعبادِنا بإرسال الرُّسلِ؛ لِيَظهرَ في عالَمِ الشهادةِ الصالحُ منهم مِن غيرِه، ثمَّ نبتلي الصالحينَ منهم بما يَزيدُ حَسناتِهم، ويَنقُصُ سيِّئاتِهم، ويُعلي دَرجاتِهم، ثم نجعلُ لهم العاقبةَ؛ فنُبلي بهم الظالِمينَ بما يُوجبُ دَمارَهم، ويُخربُ دِيارَهم، ويمحو آثارَهم، هذه عادتُنا المستمرَّةُ إلى أنْ نرِثَ الأرضَ ومَن عليها، فيكونَ البلاءُ المبينُ).

((نظم الدرر)) (13/135).

سورةُ المُؤْمِنونَ

الآيات (31-43)

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (31) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (32) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ
وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ
(33) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (34) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا
وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا
نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ
بِمُؤْمِنِينَ (38) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (39) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (40)
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ
قُرُونًا آخَرِينَ (42) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (43)

غريب الكلمات:

قَرْنًا: القَرْنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المقترِنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْرَ مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّة القرنِ مئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصْلُ (قرن): يدلُّ على جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

وَأَتْرَفْنَاهُمْ: أي: نعَّمْناهم، وأبْقَيناهم في المُلْكِ، ووسَّعْنا عليهم، والمُترَفُ: المُتقلِّبُ في لِينِ العَيْشِ، وأصْلُ (ترف): التَّنعُّمُ.

هَيْهَاتَ: أي: بَعيدٌ، وهي كلمةٌ تُستعمَلُ لتبعيدِ الشيءِ، أو هي اسمُ فعلٍ بمعنَى (بعُدَ).

غُثَاءً: أي: هَلْكَى كالغُثاءِ، وهو ما علا السَّيلَ مِن الزَّبَدِ وغيرِه، أو لا بَقِيَّةَ فيهم، أو شيئًا باليًا، وأصْلُه: ارتِفاعُ شَيءٍ دَنِيٍّ فوقَ شَيءٍ.

فَبُعْدًا: أي: فهَلَاكًا، والبُعدُ أكثرُ ما يُقالُ في الهلاكِ، وأصْلُه: ضِدُّ القُرْبِ.

تفسير الآيات:

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (31).

أي: ثُمَّ أوجَدْنا مِن بَعدِ قَومِ نُوحٍ قَومًا آخَرينَ.(224)

فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (32).

فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ.

أي: فأرسَلْنا في أولئك القَومِ رَسولًا منهم، فقال لهم: اعْبُدوا اللهَ وَحْدَه وأطِيعُوه؛ ما لكمْ مِن مَعبودٍ يَستَحِقُّ العِبادةَ غَيرُه.

---

(224) قيل: المُرادُ بقولِه: قَرْنًا آخَرِينَ: ثمودُ؛ قَومُ صالحٍ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسِّعدي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (39/17)، ((تفسير السعدي)) (ص: 551)، ((تفسير ابن عاشور)) (49/18، 50).

وقيل: المُرادُ به: عادٌ؛ قومُ هودٍ.

وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابنُ الجوزي.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (564/15)، ((تفسير السمعاني)) (473/3)، ((تفسير البغوي)) (365/3)، ((تفسير الزمخشري)) (185/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (261/3).

قال ابن الجوزي: (ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ يعني: عادًا فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ وهو هودٌ. هذا قولُ الأكثرينَ).

((تفسير ابن الجوزي)) (261/3).

ونسَبه لأكثرِ المفسرينَ أيضًا: الرازيُّ، والخازن، وأبو حيان.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (275/23)، ((تفسير الخازن)) (271/3)، ((تفسير أبي حيان)) (558/7).

أَفَلَا تَتَّقُونَ.

أي: أفلا تخافونَ عقابَ الله على شركِكم؛ فتَجْتَنِبوا عبادةَ هذه الأصنامِ؟!

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33).

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أي: وقال الرُّؤساءُ والأشرافُ والسادةُ مِن قَومِ هذا الرسولِ، الَّذين كَفَروا باللهِ، وكذَّبوا بالبَعثِ والحِسابِ، ونعَّمْناهم ووَسَّعْنا عليهم الرِّزقَ في الحَياةِ الدُّنيا حتَّى بَطِروا وطَغَوا.

مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ.

أي: ما هذا الرَّسولُ إلَّا إنسانٌ مِثلُكم، يأكُلُ مِمَّا تأكُلونَ مِنَ الطَّعامِ، ويَشرَبُ مِمَّا تَشرَبونَ مِنَ الشَّرابِ، وليس رسولًا كما يَزعُمُ!

وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (34).

أي: ولئِنْ أطعْتُم إنسانًا مِثلَكم، فصَدَّقتُم أنَّه رَسولٌ واتَّبعتُموه، إنَّكم إذَن لَمَغْبونونَ.

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (35).

أي: أيَعِدُكم أنّكم إذا مِتُّم وصِرتُم تُرابًا وعِظامًا في قُبورِكم أنّكم ستُخرَجون منها أحياءً، كما كُنتُم قَبلَ مماتِكم؟!

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36).

أي: بَعيدٌ بَعيدٌ جِدًّا ما يَعِدُكم به مِنَ البَعثِ بَعدَ الموتِ؛ فلا يكونُ ذلك أبدًا!

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37).

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا.

أي: ليس هناك حَياةٌ أُخرَى سِوى حياتِنا الدُّنيا، يموتُ فيها الأحياءُ مِنَّا فلا يَحيَونَ ثانيةً، ويُولَدُ آخَرونَ فيَحيَونَ فيها!

وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ.

أي: وما نحن بمَبعوثينَ أحياءً بَعْدَ الموتِ.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38).

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا.

أي: ما هذا الَّذي يَزعُمُ أنَّه رَسولٌ سِوى رَجُلٍ يَختَلِقُ على اللهِ كَذِبًا بأنَّه أرسَلَه بالتَّوحيدِ، وأنَّه يَبعَثُ عِبادَه أحياءً بَعْدَ المَوتِ!

وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ.

أي: وما نحنُ له بمُصَدِّقينَ فيما يقولُه مِن تَوحيدِ اللهِ والبَعثِ بَعدَ المَوتِ!

قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (39).

أي: قال الرَّسولُ: ربِّ انصُرْني على قَومِي، فأَهلِكْهم بسَبَبِ تَكذيبِهم بِرِسالتي.

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (40).

أي: قال اللهُ للرَّسولِ: سنُعَذِّبُهم قَريبًا، فيُصبِحونَ نادِمينَ على كُفرِهم وتَكذيبِهم.

كما قال تعالى: فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ [الصافات: 177].

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41).

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ.

أي: فانتقَمْنا منهم بصَيحةٍ أخذَتْهم، وهم يَستَحِقُّونَ هذا العِقابَ؛ لِكُفرِهم باللهِ وتَكذيبِهم رَسولَه، فلم يَظلِمْهمُ اللهُ، ولكِنْ ظَلَموا أنفُسَهم.

فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً.

أي: فجعَلْنا الكافرينَ هَلْكى هامِدينَ، حتَّى صاروا كغُثاءِ السَّيلِ الَّذي لا مَنْفعةَ فيه.

فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

أي: فبُعدًا مِن رَحمةِ اللهِ لِلقومِ الكافرينَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ برَبِّهم، ومَعصيةِ رَسولِه.

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آَخَرِينَ (42).

أي: ثُمَّ أوجَدْنا مِن بَعدِ أولئك القَومِ الظَّالِمينَ أقوامًا آخَرينَ.

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (43).

أي: ما تَسبِقُ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ الكافِرةِ الوقتَ الَّذي قدَّره اللهُ لإهْلاكِها، وما تتأخَّرُ عن ذلك الوَقتِ المكتوبِ في اللَّوحِ المَحفوظِ.

كما قال تعالى: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ [الأعراف: 34].

وقال سُبحانَه: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ [الإسراء: 17].

وقال تعالى: وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا [الفرقان: 38- 39].

سورةُ المُؤْمنونَ

الآيات (44–50)

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (44) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ
(45) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (47) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ
وَمَعِينٍ (50)

غريب الكلمات:

تَتْرَى: أي: تتواترُ واحدًا بعدَ واحدٍ، ويتبعُ بعضُهم بعضًا، وهو مِنَ المُواتَرةِ، أي: المُتابَعةِ، أو: مِن الوِتْرِ، وهو الفَرْدُ.

أَحَادِيثَ: أي: أخبارًا وعِبرًا يُتَمَثَّلُ بهم فِي الشَّرِّ، أو يُتحدَّثُ بهلاكِهم، ولا يُقالُ: جعلتُه حديثًا في الخيرِ. وأصلُ (حدث): كونُ الشَّيءِ لم يَكُنْ، والحديثُ مِن هذا؛ لأنَّه كلامٌ يَحْدُثُ منه الشَّيءُ بعدَ الشَّيءِ.

وَسُلْطَانٍ: أي: حُجَّةٍ، وأصْلُ (سلط): القُوَّةُ والقَهْرُ؛ ولذلكَ سُمِّيَ السُّلطانُ سُلْطانًا.

آيَةً: أي: عَلَمًا ودَليلًا، وأمارةً قَاطِعةً، وهي مُشتقَّةٌ مِن التأيِّي الذي هو التثبُّتُ، والإقامةُ على الشيءِ.

رَبْوَةٍ: قِيلَ: إنَّها دِمشقُ، وقيل: أرضُ بَيتِ المَقْدِسِ، والرَّبوةُ: المكانُ المُرتفِعُ مِن الأرضِ، وأصْلُ (ربو): العُلُوُّ والزِّيادةُ والنَّماءُ.

ذَاتِ قَرَارٍ: أي: مُستقَرٍّ، أو مُستويةٍ يَستقِرُّ عليها ساكِنُوها، وأصْلُ (قرر): يدلُّ على تمكُّنٍ.

وَمَعِينٍ: أي: مَاءٍ ظَاهرٍ جَارٍ، يُقالُ: معَنَ الماءُ: أي: جرَى، وأصْلُ (معن): يدُلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ، أو غيرِ ذلك.

تفسير الآيات:

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (44).

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى.

أي: ثمَّ أرسَلْنا رُسُلَنا مُتواتِرينَ يَتبَعُ بَعضُهم بَعضًا، واحدًا بعدَ واحدٍ؛ إلى أُمَمٍ أُخرى بعد أولئك القَومِ المُهلَكينَ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل: 36].

كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ.

أي: كلَّما جاء رَسولٌ إلى أُمَّةٍ مِن تلك الأُمَمِ كَذَّبوه، فلم يَقبَلوا ما جاء به مِنَ الحَقّ.

كما قال تعالى: يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [يس: 30].

وقال سُبحانه: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [سبأ: 34].

فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا.

أي: فأهلَكْنا تِلك الأُمَمَ بعَذابِ الاستِئصالِ؛ بَعضَهم في إثْرِ بَعضٍ.

كما قال سُبحانَه: وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ [الأنبياء: 11].

وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ.

أي: وصَيَّرْناهم أخبارًا للنَّاسِ يتحَدَّثونَ بها عنهم.

فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ.

أي: فبُعدًا مِن رَحمةِ اللهِ وهَلاكًا لقَومٍ لا يُؤمِنونَ بوَحدانيَّةِ اللهِ، ويُكَذِّبونَ رُسُلَه.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (45).

أي: ثمَّ أرسَلْنا بَعدَ أولئك الرُّسُلِ مُوسى وأخاهُ هارونَ بمُعجِزاتِنا وحُجَّةٍ بَيِّنةٍ واضِحةٍ.

إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46).

أي: إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه، فاستَكبَروا عنِ الإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ الَّذي جاءَهم مِن عندِ اللهِ، وكانوا قَومًا قاهِرينَ لبني إسرائيلَ ظالِمينَ لهم، خُلُقُهم وسَجِيَّتُهم الكِبْرُ.

فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (47).

أي: فقال فِرعَونُ ومَلَؤُه: أنُصدِّقُ مُوسى وهارونَ ونُقِرُّ لهما، وهما بَشَرانِ مِثلُنا في المأكَلِ والمَشرَبِ وغَيرِهما ممَّا يَعْتري أحوالَ البَشَرِ، وقَومُهما لنا مُطيعونَ ذَليلونَ خاضِعونَ؟! فكيف نَتَّبِعُهما؟!

فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48).

أي: فكَذَّب فِرعَونُ ومَلَؤُه مُوسى وهارونَ، فأغرَقَهم اللهُ، فكانوا ممَّنْ أهلكهم اللهُ؛ لِتَكذيبِهم رُسُلَ اللهِ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا [الفرقان: 35، 36].

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49).

أي: ولقدْ آتينا مُوسى التَّوراةَ؛ كي يَهتَديَ بنو إسرائيلَ باتِّباعِها.

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50).

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً.

أي: وجعَلْنا عِيسى ابنَ مَريمَ وأُمَّه مَريمَ حُجَّةً عَجيبةً واضِحةً للنَّاسِ، تدُلُّهم على قُدرةِ اللهِ على خَلقِ ما يَشاءُ؛ حيثُ خَلَقَ عِيسى مِن أُمٍّ بلا أبٍ!

كما قال تعالى: وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا [مريم: 21].

وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ.

أي: وصَيَّرْنا عِيسى وأُمَّه مَريمَ إلى مَكانٍ مُرتَفِعٍ مِنَ الأرضِ، مُستَوٍ مُستَقِرٍّ، (225) وفيه نَهرٌ جارٍ ظاهِرٌ للعِيَانِ. (226)

---

(225) اخْتُلِفَ في موضع هذه الربوة في أي أرض هي؟ على أقوال: الأول: هي الرَّمْلة من فلسطين.

الثاني: هي دمشق.

الثالث: هي بيت المقدس.

الرابع: هي مصر.

وعلَّق ابنُ عطية (٦/ ٢٩٨ بتصرف) على القول الثاني قائلًا: «وهذا أشهر الأقوال؛ لأن صفة غوطة دمشق أنها ذات قرار ومعين على الكمال».

ورجَّح ابنُ جرير (١٧/ ٥٦) مستندًا إلى أقوال السلف أنّ الربوة: مكان مرتفع ذو استواء وماء ظاهر.

وهو قول ابن عباس من طريق العوفي، ومجاهد.

ورجَّح ابنُ عطية (٦/ ٢٩٩) مستندًا إلى التاريخ أنّ الربوة في بيت لحم من بيت المقدس، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ ولادة عيسى – عليه السلام – هنالك كانت، وحينئذٍ كان الإيواء».

ورجَّح ابنُ كثير (١٠/ ١٢٥) مستندًا إلى القرآن أنّ الربوة في بيت المقدس، وأنّ المَعين الذي وُصِفَتْ به هذه الربوة هو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]، ثم قال: «فهذا –والله أعلم– هو الأظهر؛ لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يُفَسِّر بعضه بعضًا، وهو أوْلى ما يُفَسَّر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار».

وانتقد ابنُ جرير، وابنُ عطية القولَ الأول استنادًا إلى ظاهر الآية، والواقع؛ لأنّ الرَّمْلة ليس يجري بها ماء البتّة، والله تعالى وصف هذه الربوة بأنها ذات قرار ومعين.

وانتقد ابنُ عطية مستندًا إلى مخالفة التاريخ، وكذا ابنُ كثير، القولَ الرابع، فقال ابنُ عطية: «ويُضعِف هذا القول أنه لم يُرْوَ أن عيسى – عليه السلام – ومريم كانا بأرض مصر، ولا حُفِظَت لهما بها قصة».

وقال ابنُ كثير: «وهو بعيد جِدًّا».

(226) قال البقاعي: (ذَاتِ قَرَارٍ أي: مُنبسَطٍ صالحٍ لأن يُستقَرَّ فيه؛ لِما فيه من المرافقِ، وَمَعِينٍ أي: ماءٍ ظاهرٍ للعينِ، ونافعٍ كالماعون، فرعٌ اشتُقَّ من أصلينِ).

((نظم الدرر)) (149/13).

وقال ابنُ كثير: (أقربُ الأقوالِ في ذلك ما رواه العَوفي عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِه: وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ قال: المَعِينُ: الماءُ الجاري، وهو النَّهرُ الذي قال الله تعالى: قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا [مريم: 24] ، وكذا قال الضَّحَّاكُ وقتادةُ: إِلَى رَبْوَةٍ

كما قال تعالى: فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا [مريم: 22- 25].

ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ: هو بيتُ المَقدِسِ، فهذا -واللهُ أعلم- هو الأظهرُ؛ لأنَّه المذكورُ في الآيةِ الأخرى، والقُرآنُ يُفسِّرُ بعضُه بعضًا).

((تفسير ابن كثير)) (5/477).

وقال الواحدي: (قال ابنُ عباس: يريدُ دِمشقَ.

وهو قولُ سعيدِ بنِ المسيّبِ، ومقاتلٍ، وروايةُ عِكْرِمةَ عن ابنِ عباسٍ.

وقال عطاءٌ عن ابنِ عباسٍ: يريدُ بيتَ المقدسِ.

وهو قولُ قتادةَ وكعبٍ...، وقال السُّدِّيُّ: إنها أرضُ فلسطينَ.

وهو قولُ أبي هريرةَ).

((الوسيط)) (3/291).

وقال السعدي: (وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ أي: مكانٍ مرتفعٍ، وهذا -والله أعلم- وقتُ وضعِها، وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ أي: مُستقَرٍّ وراحةٍ وَمَعِينٍ أي: ماءٍ جارٍ؛ بدليلِ قولِه: قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ [مريم: 24] أي: تحتَ المكانِ الذي أنت فيه؛ لارتفاعِه سَرِيًّا أي: نهرًا، وهو المَعِينُ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا [مريم: 25-26])، ((تفسير السعدي)) (ص: 553).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بهذا الإيواءِ وحيُ الله لمريمَ أن تنفردَ بربوةٍ حين اقترب مخاضُها لِتَلِدَ عيسَى في منعَزَلٍ من الناسِ؛ حفظًا لعيسَى من أذاهم.

والقرارُ: المكثُ في المكانِ، أي: هي صالحةٌ لأن تكونَ قرارًا، فأُضيفت الربوةُ إلى المعنى الحاصلِ فيها لأدنى ملابسةٍ، وذلك بما اشتملت عليه من النخيلِ المثمرِ، فتكونُ في ظِلِّه ولا تحتاجُ إلى طلبِ قُوتِها).

((تفسير ابن عاشور)) (18/67).

سورةُ المُؤْمِنونَ

الآيات (51–56)

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (56)

غريب الكلمات:

أُمَّتُكُمْ: أي: مِلَّتُكم ودينُكم وشريعتُكم، والأصلُ أنَّه يُقالُ للقومِ يجتمعونَ على دينٍ واحدٍ: أُمَّةٌ، فتُقامُ الأُمَّةُ مقامَ الدِّينِ، وتُطلَقُ الأُمَّةُ أيضًا على البُرْهةِ مِن الزَّمنِ، والرَّجلِ المُقتدَى به، والأصلِ، والمرجِعِ، ويُقالُ لكلِّ ما كان أصلًا لوجودِ شيءٍ أو تربيتِه أو إصلاحِه أو مبدئِه: أمٌّ.

زُبُرًا: أي: كُتبًا مُختلِفةً، جمعُ زبورٍ، وأصلُ (زبر): يدُلُّ على قراءةٍ وكتابةٍ وما أشبهَ ذلك.

حِزْبٍ: أي: طائفةٍ وفِرْقةٍ، والحزبُ: الجماعةُ مِن الناسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، والطَّائفةُ مِن كلِّ شيءٍ حزبٌ، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ.

غَمْرَتِهِمْ: أي: عَمايَتِهم وجَهْلِهم وضَلالِهم، وسُمِّيَتْ غَمْرةً؛ لأنَّها شَيءٌ يَستُرُ الحقَّ عن العينِ، وأصْلُ الغَمْرِ: إزالةُ أثَرِ الشَّيءِ، وكذلك تَغطيةٌ وسَتْرٌ.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ **(51)**.

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا.

أي: يا أيُّها الرُّسُلُ،[227] كُلُوا مِنَ الرِّزقِ الحَلالِ المُستلَذِّ النَّافِعِ، واعْمَلوا الأعمالَ الصَّالِحَةَ الخالِصةَ للهِ، المُوافِقةَ لِشَريعتِه.[228]

---

(227) اختُلِف في المخاطَب بـ «الرسل» في قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ واعْمَلُوا صالِحًا﴾ على أقوال: الأول: يعني بالرسل: جميعَهم.

الثاني: يعني بالرسل: محمدًا – ﷺ –.

الثالث: يعني بالرسل: عيسى – عليه السلام –.

وذكر ابنُ عطية (٦/ ٢٩٩) أنّ بعض القائلين بأنّ المخاطب هو النبي محمد – ﷺ – وجَّه ذلك بأنه: «أقام محمدًا – ﷺ – مقام الرسل، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»، ثم انتقد ذلك التوجيه وغيره قائلًا: «وقيل غير هذا مما لا يَثْبُت مع النظر».

ثم وجَّه ابنُ عطية هذا القول بقوله: «والوجه في هذا أن يكون الخطاب لمحمد – ﷺ –، وخرج بهذه الصيغة ليفهم وجيزًا أنّ هذه المقالة قد خُوطِب بها كلُّ نبي، أو هي طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها، وهذا كما تقول لتاجرٍ: يا تُجّار، ينبغي أن تجانبوا الربا.

فأنت تُخاطبه بالمعنى، وقد اقترن بذلك أنّ هذه المقالة تصلح لجميع صنفه».

ووجَّه القول الثالث قائلًا: «ووجه خطابه لعيسى – عليه السلام – ما ذكرناه مِن تقديره لمحمد – ﷺ –».

وقد ذكر ابنُ عطية (٦/ ٢٩٩ – ٣٠١) أن قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الرُّسُلُ﴾ يحتمل مخاطبة الرسل متفرقين، ويحتمل مخاطبتهم مجتمعين، فأمّا على احتمال مخاطبتهم متفرقين فذكر أن المعنى: وقلنا يا أيها الرسل.

ثم علَّق بقوله: «وكيف كان قول المعنى فلم يخاطبوا قطُّ مجتمعين، وإنما خُوطِب كلُّ واحد في عصره».

وأما على احتمال مخاطبتهم مجتمعين فقد ذكر أنه يقوِّيه قوله تعالى: ﴿وإنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً﴾، فقال: «هذه الآية تُقوِّي أن قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الرُّسُلُ﴾ إنما هو مخاطبة لجميعهم، بتقدير حضورهم، وتجيء هذه الآية –أي: قوله تعالى: ﴿وإنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً﴾ – بعد ذلك بتقدير: وقلنا للناس».

ثم بيَّن أن قوله: ﴿وإنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً﴾ وما بعده يجعل قولَ مَن قال: إن المخاطب في ﴿يا أيُّها الرُّسُلُ﴾ محمد – ﷺ – مُشْكِلًا، فقال: «وإذا قدرت ﴿يا أيُّها الرُّسُلُ﴾ مخاطبة لمحمد – ﷺ – قلق اتِّصال هذه واتصال قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾، أمّا إن قوله: ﴿وأَنا رَبُّكُمْ فاتَّقُونِ﴾ وإن كان قيل للأنبياء فأمتهم داخلون بالمعنى فيحسن بعد ذلك اتصال ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾».

(228) قيل: المرادُ أنَّ كُلَّ رَسولٍ في زمانِه خُوطِبَ بذلك.

وممَّن قال بهذا: ابنُ جُزي، والقاسمي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (52/2)، ((تفسير القاسمي)) (291/7)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (334/5).

وقيل: الخِطابُ للنبيِّ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [البقرة: 172].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((أيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يقبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمَرَ المُؤمِنينَ بما أمَرَ به المُرسَلينَ؛ فقال: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ [المؤمنون: 51] ، وقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ [البقرة:

وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ قتيبة، والزجَّاج.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (158/3)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 297)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (15/4).

قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ قال ابنُ عباس، والحسنُ، ومجاهدٌ، وقتادةُ في آخرين: يعني بالرُّسُلِ هاهنا محمَّدًا – صلَّى الله عليه وسلَّم– وحْدَه.

وهو مذهَبُ العربِ في مخاطبةِ الواحِدِ خِطابَ الجميعِ، ويتضَمَّنُ هذا أنَّ الرسُلَ جميعًا كذا أُمِروا.

وإلى هذا المعنى ذهَب ابنُ قتيبةَ والزجَّاجُ).

((تفسير ابن الجوزي)) (264/3).

وقيل: الخِطابُ لعيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وممن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (59/17).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (146/4).

172] ، ثمَّ ذكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أشعَثَ أغبَرَ،[229] يَمُدُّ يَدَيه إلى السَّماءِ: يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطعَمُه حَرامٌ، ومَشرَبُه حَرامٌ، ومَلبَسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ؛ فأنَّى يُستَجابُ لذلك؟!)).[230]

إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ.

أي: لا يَخْفى علَيَّ شَيءٌ مِن أعمالِكم، وسأُجازيكم عليها جَميعًا؛ فاجتَهِدوا في صالحِ الأعمالِ.

وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52).

وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً.

أي: وقُلْنا للرُّسُلِ: إنَّ دِينَكم جَميعًا دِينٌ واحِدٌ، وهو الإسلامُ.

كما قال تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ [آل عمران: 19].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: ((أنا أَولى النَّاسِ بعِيسى ابنِ مَريمَ في الدُّنيا والآخِرةِ، والأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ؛[231] أُمَّهاتُهم شَتَّى، ودِينُهم واحِدٌ)).[232]

---

(229) أشعَثَ: أي: مُتفَرِّقَ شَعرِ الرَّأسِ.
أغبَرَ: أي: مُغْبَرَّ البَدَنِ يعلوه الغُبارُ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (4024/9).

(230) رواه مسلم (1015).

(231) أولادُ العَلَّاتِ: الَّذين أُمَّهاتُهم مُختلفةٌ وأبوهُم واحِدٌ؛ أرادَ أنَّ إيمانَهم واحِدٌ، وشرائعَهُم مُختلفةٌ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (291/3).

(232) رواه البخاري (3443).

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ.

أي: وأنا ربُّكم فاتَّقوني بفعلِ أوامِري، واجتِنابِ نَواهيَّ، ولا تُشرِكوا بي شَيئًا.

كما قال تعالى: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ [الأنبياء: 92].

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53).

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا.

أي: فتفرَّقَ النَّاسُ مِن أُمَمِ الرُّسُلِ في هذا الدِّينِ الواحِدِ الَّذي شرَعَه اللهُ لهم؛ وجعلوه كُتبًا وضَعوها، دانَ كلُّ فريقٍ منهم بكتابٍ غيرِ كُتبِ الفِرَقِ الأخرَى، وجعَل كلُّ فريقٍ منهم لنفْسِه دِينًا.(233)

كما قال تعالى: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [آل عمران: 105].

وقال سبحانَه: وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ [الأنبياء: 93].

---

(233) اختُلِف في معنى: ﴿زُبُرًا﴾ في هذه الآية على ثلاثة أقوال بناءً على اختلافهم في قراءتها؛ فمن قرأها: ﴿زُبُرًا﴾ بضم الزاي والباء اختلفوا على معنيين: الأول: فتَفَرَّقوا دينهم بينهم كتبًا، فدان كلُّ فريق منهم بكتاب غير الكتاب الذي دان به الفريق الآخر.

الثاني: فتَفَرَّقوا دينهم بينهم كُتُبًا أحدثوها، يَحْتَجُّون فيها لمذاهبهم.

ومَن قرأها: (زُبَرًا) بضم الزاي وفتح الباء، ذهبوا إلى أن المعنى: فتفرقوا بينهم قطعًا كزُبَرِ الحديد.

ورجَّح ابنُ جرير (١٧/ ٦٣) مستندًا إلى الإجماع قراءة: ﴿زُبُرًا﴾ بضم الزاي والباء، وأنّ المراد بالزُّبُر: الكتب، وأن المعنى: «فتَفَرَّق الذين أمرهم الله بلزوم دينه من الأمم دينَهم بينهم كُتُبًا».

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.

أي: كلُّ فَريقٍ منهم مَسْرورونَ بما اختارُوه لأنفُسِهم، فَرِحونَ بباطِلِهم، يَعتَقِدونَ أنَّهم على الحَقِّ دونَ مَن سِواهم.

كما قال تعالى: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الروم: 32].

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54).

أي: فاتْرُكْ -يا مُحَمَّدُ- هؤلاء المُشرِكينَ المُختَلِفينَ في دِينِهم، الَّذين هم بمَنزلةِ مَن تقدَّمَ؛ اترُكْهم في حَيْرَتِهم وضَلالتِهم وغَفلَتِهم الَّتي غَرِقوا فيها، إلى أنْ يأتيَهم العَذابُ أو الموتُ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [الأنعام: 159].

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ.

أي: أيظُنُّ أولئك الَّذين فَرَّقوا دِينَهم أنَّ ما نَبسُطُه عليهم في الدُّنيا مِنَ الأموالِ والأبناءِ هو تعجيلٌ لِثَوابِهم؛ لِمَعزَّتِهم وكَرامتِهم عندنا؟! كلَّا! ليس الأمرُ كما يَزعُمونَ، بلْ هم يُسارِعونَ في أسبابِ الشُّرورِ، ولكِنْ لا يَشعُرونَ أنِّي أُعْطِيهم ذلك فِتْنةً واستِدراجًا لهم.

كما قال تعالى: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [آل عمران: 178].

وقال سُبحانه: فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ [التوبة: 55].

وقال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ [سبأ: 34 – 37].

سورةُ المُؤْمنونَ

الآيات (57–62)

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (62)

غريب الكلمات:

مُشْفِقُونَ: أي: خائِفونَ، حَذِرونَ، والإشفاقُ: عِنايةٌ مختلِطةٌ بخوفٍ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ.

وَجِلَةٌ: أي: خائفةٌ، والوَجَلُ: استِشعارُ الخَوفِ.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57).

أي: إنَّ الَّذينَ همْ -لِخَشيَتِهم مِن رَبِّهم- حَذِرونَ خائِفونَ مِن عِقابِه، يُداوِمونَ على طاعتِه، وطَلَبِ مَرضاتِه.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ [المعارج: 27-28].

وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58).

أي: والَّذين همْ بآياتِ القُرآنِ وغَيرِها مِنَ الدَّلائِلِ والبَراهينِ والحُجَجِ يُؤمِنونَ.[234]

---

(234) ممَّن قَصَر الآياتِ على القُرآنِ فقط: مقاتلُ بن سليمان، ومكِّي، واستظهره النيسابوري.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/159)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (7/4977)، ((تفسير النيسابوري)) (5/126).

وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59).

أي: والَّذين يُخلِصونَ لِرَبِّهم في عِباداتِهم كلِّها؛ فلا يُشرِكونَ به شَيئًا.(235)

ومِمَّن حَمَلَها على الآياتِ الكونيَّةِ والمخلوقاتِ الدَّالَّةِ على وُجودِ الله: الرازيُّ.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (283/23).

ومِمَّن حَمَلَها على العُمومِ، أي: الآياتِ الشَّرعيَّةِ والكونيَّةِ: ابنُ عطية، وابن كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (147/4)، ((تفسير ابن كثير)) (480/5).

قال ابن عطية: (و«الآياتُ» تعُمُّ القُرآنَ، وتعُمُّ العِبرَ والمصنوعاتِ التي لله، وغيرَ ذلك ممَّا فيه نظَرٌ واعتبارٌ، وفي كُلِّ شَيءٍ له آيةٌ).

((تفسير ابن عطية)) (147/4).

قال الشوكاني: (وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ قِيلَ: المرادُ بالآياتِ هي التَّنزيليَّةُ، وقِيلَ: هي التَّكوينيَّةُ، وقِيلَ: مجموعُهما).

((تفسير الشوكاني)) (578/3).

(235) ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: لَا يُشْرِكُونَ نفيُ الشركِ الجليِّ والخفيِّ: ابنُ جرير، والبيضاوي، والعليمي، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (66/17)، ((تفسير البيضاوي)) (90/4)، ((تفسير العليمي)) (478/4)، ((تفسير أبي السعود)) (140/6)، ((تفسير الألوسي)) (244/9)، ((تفسير القاسمي)) (293/7)، ((تفسير السعدي)) (ص: 554).

وقيل: إنَّ المرادَ به نفيُ الشركِ الأكبرِ.

وممن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي، والواحدي، والرسعني، وابن عطية، وأبو حيان، وابن كثير.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (160/3)، ((تفسير السمرقندي)) (484/2)، ((الوسيط)) للواحدي (293/3)، ((تفسير الرسعني)) (133/5)، ((تفسير ابن عطية)) (147/4)، ((تفسير أبي حيان)) (569/7)، ((تفسير ابن كثير)) (480/5).

قال أبو حيان: (ثمَّ ذكر نفيَ الإشراكِ، وهو عبادتُهم آلهتَهم التي هي الأصنامُ؛ إذ لكفارِ قريشٍ أن تقولَ: نحن نؤمِنُ بآياتِ رَبِّنا ونصَدِّقُ بأنَّه المخترِعُ الخالقُ).

((تفسير أبي حيان)) (569/7).

وقيل: إنَّ المرادَ به نفيُ الشركِ الخفيِّ.

وممن اختاره: الرازيُّ، فقال: (قَوْلُه: وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ...

المرادُ منه نَفْيُ الشِّركِ الخفِيِّ، وهو أنْ يكونَ مخلصًا في العبادةِ لا يقدِمُ عليها إلَّا لوجهِ اللهِ تعالَى وطَلَبِ رِضوانِه.

واللَّه أعلمُ).

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60).

((تفسير الرازي)) (283/23).

أي: والَّذين يُعطُونَ ما أعْطَوا مِن زَكَواتٍ وصَدَقاتٍ وغيرِ ذلك،[236] والحالُ أنَّ قُلوبَهم خائِفةٌ مِن رُجوعِهم إلى ربِّهم، وبَعْثِهم يومَ القِيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ، فيَخافونَ ألَّا يُتقبَّلَ منهم.[237]

---

(236) وممن اختار أنَّ قولَه: يُؤْتُونَ مَا آتَوْا يتعلَّق بإعطاءِ الأموالِ: ابنُ جرير، والبغوي، والرازي، والرسعني، والخازن، وابنُ كثيرٍ، والعُليمي، والقاسمي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/66)، ((تفسير البغوي)) (3/368)، ((تفسير الرازي)) (23/283)، ((تفسير الرسعني)) (5/133)، ((تفسير الخازن)) (3/273)، ((تفسير ابن كثير)) (5/480)، ((تفسير العليمي)) (4/478)، ((تفسير القاسمي)) (7/293)، ((تفسير ابن عاشور)) (18/77).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وابنُ عمر، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والضحَّاكُ، وابنُ زيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/67).

قال الرازي: (قولُه: وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ معناه: يُعطون ما أعطَوا، فدخل فيه كلُّ حَقٍّ يلزمُ إيتاؤه، سواءٌ كان ذلك مِن حَقِّ الله تعالى: كالزكاةِ والكفَّارةِ وغيرِهما؛ أو مِن حقوقِ الآدميِّينَ: كالودائعِ والديونِ، وأصنافِ الإنصافِ والعدلِ).

((تفسير الرازي)) (23/283).

وقال ابن عاشور: (ومعنَى: يُؤْتُونَ مَا آتَوْا يُعطونَ الأموالَ صدَقاتٍ وصِلاتٍ ونَفَقاتٍ في سَبيلِ اللهِ.

واستعمالُ الإيتاءِ في إعطاءِ المالِ شائعٌ في القرآنِ، مُتعَيِّنٌ أنَّه المرادُ هنا).

((تفسير ابن عاشور)) (18/77).

وممن اختار أنَّ المرادَ أعمالُ البرِّ كلُّها: الواحديُّ، واستحسنه ابنُ عطية، وهو اختيار البِقاعي، والسعدي.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (3/293)، ((تفسير ابن عطية)) (4/147)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (13/159)، ((تفسير السعدي)) (ص: 554).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عائشةُ، وابنُ عباسٍ في روايةٍ، والحسنُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/67).

قال ابن عطية: (وقولُه: وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا على قراءةِ الجُمهورِ: يُعطُونَ ما أعطَوا.

وقال الطبري: يريدُ الزَّكاةَ المفروضةَ وسائرَ الصَّدَقةِ.

ورُوِيَ نحوُه عن ابنِ عُمَرَ ومجاهدٍ.

وإنَّما ضَمَّهم إلى هذا التَّخصيصِ أنَّ العَطاءَ مُستعمَلٌ في المالِ على الأغلَبِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ وابنُ جُبيرٍ: هو عامٌّ في جميعِ أعمالِ البِرِّ.

وهذا أحسَنُ، كأنَّه قال: والذين يُعطُونَ مِن أنفُسِهم في طاعةِ اللهِ ما بَلَغه جُهدُهم...

وذهبت فِرقةٌ إلى أنَّ معناه: مِن المعاصي، وذهَبَت فِرقةٌ إلى أنَّ ذلك في جميعِ الأعمالِ؛ طاعتِها ومَعصيتِها.

أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61).

أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ.

أي: أولئك يُبادِرونَ ويُسابِقونَ في عمَلِ الطَّاعاتِ؛ تَقرُّبًا إلى اللهِ تعالى، ونَيلِ الدَّرَجاتِ.[238]

وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ.

أي: وهم إلى الخَيراتِ سابِقونَ.[239]

وهذا أمدَحُ).

((تفسير ابن عطية)) (147/4).

(237) قال أبو السعود: (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ حالٌ من فاعلِ يُؤتون...

أي يُؤتون ما آتوه...

والحالُ أنَّ قلوبَهم خائفةٌ أشدَّ الخوفِ).

((تفسير أبي السعود)) (140/6).

وقال ابن عاشور: (وجملةُ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ في موضعِ الحالِ، وحَقُّ الحالِ إذا جاءت بعد جُمَلٍ متعاطفةٍ أن تعودَ إلى جميعِ الجُمَلِ التي قبْلَها، أي: يفعلون ما ذُكِرَ من الأعمالِ الصَّالحةِ بقلوبِهم وجوارِحِهم، وهم مُضمِرون وجَلًا وخوفًا من ربِّهم أن يرجِعوا إليه فلا يجِدوه راضيًا عنهم، أو لا يجدوا ما يجِدُه غيرُهم ممَّن يفوقُهم في الصالحاتِ).

((تفسير ابن عاشور)) (77/18).

(238) قال ابنُ جُزَي: (فيه معنيانِ: أحدُهما: أنَّهم يُبادِرونَ إلى فِعلِ الطَّاعاتِ، والآخَرُ: أنَّهم يتعَجَّلونَ ثوابَ الخيراتِ، وهذا مُطابِقٌ للآيةِ المتقدِّمةِ؛ لأنَّه أثبَتَ فيهم ما نفى عن الكُفَّارِ مِن المُسارَعةِ).

((تفسير ابن جزي)) (53/2).

(239) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (369/3)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (160/13)، ((تفسير ابن عاشور)) (78/18).

ممَّن اختار المعنى المذكور: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاج، والسمعاني، والبغوي، والخازن، وأبو حيان.

يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (238/2)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (17/4)، ((تفسير السمعاني)) (481/3)، ((تفسير البغوي)) (369/3)، ((تفسير الخازن)) (273/3)، ((تفسير أبي حيان)) (570/7).

قال أبو حيان: (ومفعولُ سَــابِقُونَ محذوفٌ، أي: ســـابِقونَ النَّاسَ، وتكونُ الجُملةُ تأكيدًا للتي قَبلَها مفيدةً تجَدُّدَ الفِعلِ بقولِه يُسَارِعُونَ، وثُبوتَه بقَولِه: سَابِقُونَ).

((تفسير أبي حيان)) (570/7).

وقيل: المعنى: وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ مِن أجْلِها.

وممَّن اختاره: الأخفش، وابن الجوزي، والعُليمي.

يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (454/2)، ((تفسير ابن الجوزي)) (266/3)، ((تفسير العليمي)) (479/4).

قال ابن عطية: (وقالت فِرقةٌ: معناه: وهم مِن أجْلِها سابِقونَ، فالسَّابِقُ على هذا التَّأويلِ هو إلى رِضوانِ اللهِ تعالى).

((تفسير ابن عطية)) (148/4).

وقال ابنُ جرير: (وأَولى الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّــوابِ القَولُ الذي قاله ابنُ عبَّاسٍ من أنَّه ســبَقَت لهم مِنَ اللهِ السَّــعادةُ قبل مُسارعتِهم في الخيراتِ، ولَمَّا سبَق لهم مِن ذلك سارَعوا فيها).

((تفسير ابن جرير)) (72/17).

وقال ابنُ عطية: (وقال الطَّبري عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: المعنى: سَبَقت لهم السَّعادةُ في الأزَلِ، فهُم لها.

ورجَّحَه الطَّبريُّ بأنَّ اللامَ مُتمَكِّنةٌ في المعنى).

((تفسير ابن عطية)) (148/4).

وقال الســعدي: (وَهُمْ لَهَا أي: للخيراتِ ســابِقُونَ قد بلَغوا ذِروتَها، وتبارَوا هم والرَّعيلُ الأوَّلُ، ومع هذا قد ســبَقَت لهم مِنَ اللهِ سابقةُ السَّعادةِ؛ أنَّهم سابِقونَ).

((تفسير السعدي)) (ص: 554).

وقال الواحدي: (وقولُه: وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ قال أبو إسحاق [الزجَّاج]: فيه وجهان: أحدُهما: هم إليها سابقونَ.

وهذا قولُ الفرَّاءِ، ومعنى قولِ ابنِ عباسٍ: ينافِسون فيها أمثالَهم مِن أهلِ البِرِّ والتقوى.

وقال الكلبي: سبقوا الأممَ إلى الخيراتِ.

وعلى هذا المعنى: هم إلى الخيراتِ سابقون غيرَهم؛ لإسراعِهم فيها، ومبادرتِهم إليها.

والوجهُ الآخَرُ: هم مِن أجلِها، أي: مِن أجلِ اكتسابِها، كما تقولُ: أنا أُكرِمُ فلانًا لك، أي: مِن أجلِك.

والمعنى على هذا القولِ: وهم لأجلِ الخيراتِ سابقونَ غيرَهم، أي: إنما يسبِقون غيرَهم لأجلِ اكتسابِها.

وذكر صاحب النظم [أبو عليٍّ الجرجاني] على هذا الوجهِ معنًى آخَرَ لقولِه: سَابِقُونَ فقال: تأويلُ الآيةِ: وهم مِن أجلِها، أي: مِن أجلِ مسارعتِهم في الخيراتِ سابقونَ يومَ القيامةِ إلى الجنَّةِ، يسبقونَ غيرَهم ممَّن لا يسارعُ في الخيراتِ، وعلى هذا الكنايةُ في لَهَا تعودُ إلى المسارعةِ، ودَلَّ عليها قولُه: يُسَارِعُونَ، وعلى ما قال أبو إسحاقَ يعودُ إلى الخيراتِ).

((البسيط)) (12/16).

وقال الماوَرْدي: (وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ فيه وجهانِ: أحَدُهما: وهم بها سابِقونَ إلى الجنَّةِ.

الثَّاني: وهم إلى فِعْلِها سابقون.

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (62).

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.

أي: ولا نُكلِّفُ نفْسًا إلَّا ما تُطِيقُ حَمْلَه والقِيامَ به، مِن عِبادةِ اللهِ والعَمَلِ بشَرعِه.[240]

كما قال سُبحانَه: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا [البقرة: 286].

وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

أي: وعِندَنا كِتابٌ كتَبَتِ الملائِكةُ فيه جَميعَ أعْمالِ العِبادِ؛ فهو يُبَيِّنُ بالصِّدقِ الثَّابِتِ المُطابِقِ للواقِعِ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فنُجازِيهم بأعمالِهم، ولا نَظلِمُهم بعُقوبتِهم بما لم يَعمَلوا، أو بالزِّيادةِ في سَيِّئاتِهم، أو بالنَّقصِ مِن حَسَناتِهم.[241]

وفيه وجهٌ ثالثٌ: وهم لِمَن تقدَّمَهم مِن الأُمَمِ سابِقونَ.

قاله الكلبي).

((تفسير الماوردي)) (4/59).

(240) قال البقاعي: (وَلَا أي: والحالُ أنَّا لا نُكلِّفُهم، ولكنَّه عمَّ فقال: نُكَلِّفُ نَفْسًا أي: كافرةً ومؤمنةً إِلَّا وُسْعَهَا فلا يقدِرُ عاصٍ على أن يقولَ: كنتُ غيرَ قادرٍ على الطاعةِ، ولا يظنُّ بنا مؤمِنٌ أنَّا نؤاخِذُه بالزلَّةِ والهَفوةِ؛ فإنَّ أحدًا لا يستطيعُ أن يَقدُرَنا حقَّ قَدْرِنا؛ لأنَّ مبنى المخلوقِ على العَجزِ).

((نظم الدرر)) (13/161).

(241) قيل: المرادُ بالكتابِ هنا: كتابُ أعمالِ الخَلقِ.

وممن قال بذلك: ابنُ جَرير، وابنُ عطيَّة، وابنُ كثير، والشِّنقيطي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ بالكتابِ: اللَّوحُ المحفوظ.

وممَّن ذهَب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحديُّ، والسَّمعانيُّ، وابنُ الجوزي، والسعديُّ.

كما قال تعالى: وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الجاثية: 28– 29].

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (160/3)، ((الوسيط)) للواحدي (293/3)، ((تفسير السمعاني)) (481/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (266/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 554).

قال الشِّنقيطي: (الظاهِرُ: أنَّ معنى نُطقِ الكتابِ بالحَقِّ: أنَّ جميعَ المكتوبِ فيه حَقٌّ؛ فمَن قرأ المكتوبَ فيه كأنَّه لا يَنطِقُ في قراءتِه له إلا بالحَقِّ).

((أضواء البيان)) (336/5).

ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (579/3).

وقال ابنُ عاشور: (يجوز أن يكون نُطقُ الكتابِ حقيقةً، بأن تكونَ الحروفُ المكتوبةُ فيه ذاتَ أصواتٍ، وقُدرةُ الله لا تُحَدُّ).

((تفسير ابن عاشور)) (79/18).

سورةُ المُؤْمنونَ

الآيات (63-67)

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (63) حَتَّى إِذَا
أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (64) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (65)
قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا
تَهْجُرُونَ (67)

غريب الكلمات:

مُتْرَفِيهِمْ: المُتْرَفونَ: الأغنياءُ والرُّؤساءُ، أو المُنَعَّمُونَ في الدُّنْيا، والمُتقلِّبون فِي لِينِ العَيْشِ، الذين قد أبطَرَتْهم النِّعمةُ وسَعَةُ العَيشِ، والتُّرْفَةُ: التوسُّعُ في النِّعمةِ، وأصْلُ (ترف): التَّنعُّمُ.

يَجْأَرُونَ: أي: يَضِجُّون (يَصيحونَ)، ويَستَغيثونَ باللهِ، ويَرْفعونَ أصْواتَهم بالدُّعاءِ، وجأَر: إذا أفرَطَ في الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ، والجُؤَارُ هو الصَّوتُ.

تَنْكِصُونَ: أي: تَرْجِعون عنِ الإيمانِ، وتَرْجِعون القَهْقَرَى، أو تُعرِضون مُدْبرينَ، أو تَستأْخِرونَ، والنُّكوصُ: الإِحْجامُ عنِ الشَّيءِ، وعادةً ما يكونُ عن الخيرِ.

سَامِرًا: أي: سُمَّارًا، وهم الجماعةُ يتحدَّثونَ باللَّيلِ، والسَّمرُ: الحديثُ باللَّيْلِ، مأخوذٌ مِنَ السَّمَرِ، وهو ظِلُّ القمرِ، ومنه سُمْرَةُ اللَّونِ، وأصْلُ (سمر): يدُلُّ على خِلافِ البَياضِ في اللَّونِ.

تَهْجُرُونَ: أي: تُعرِضونَ؛ مِنَ الهَجْرِ، وهو التَّرْكُ والإعراضُ، وأصلُه: يدُلُّ على قَطيعةٍ وقَطْعٍ، أو تَهْذُونَ؛ مِنَ الهَجْرِ، وهو الهَذَيانُ.

تفسير الآيات:

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (63).

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا.

أي: بلْ[242] قُلوبُ المُشرِكِينَ في عَمايةٍ وغَفلةٍ عنِ القُرآنِ؛ فهُم لا يُؤمِنونَ به، ولا يَتدبَّرونَه.[243]

وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ.

أي: وللمُشرِكِينَ أعمالٌ سَيِّئةٌ رَديئةٌ دونَ أعمالِ المُؤمِنينَ الصَّالحةِ التي ذكرها الله، يُمهِلُهم اللهُ سبحانه حتَّى يَعمَلوها قبْلَ مَوتِهم؛ فيَحِقَّ عليهمُ العَذابُ.[244]

---

(242) قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ما الأمرُ كما يحسَبُ هؤلاء المُشرِكونَ مِن أنَّ إمدادَناهم بما نُمِدُّهم به مِن مالٍ وبنينَ، بخيرٍ نَسوقُه بذلك إليهم، ورضًا منَّا عنهم؛ لكنَّ قلوبَهم في عَمًى عن هذا القرآنِ).

((تفسير ابن جرير)) (74/17).

(243) وقيل: (هذه الآياتُ مِن صفاتِ المُشفقينَ، كأنَّه سبحانَه قال بعدَ وصفِهم: ولا نكلِّفُ نفْسًا إلَّا وُسْعَها، ونهايتُه ما أتَى به هؤلاء المشفقونَ، ولدينا كتابٌ يحفظُ أعمالَهم ينطقُ بالحقِّ، وهم لا يُظلمونَ، بل نوفرُ عليهم ثوابَ كلِّ أعمالِهم.

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا هو أيضًا وصفٌ لهم بالحيرة، كأنَّه قال: وهم مع ذلك الوجلِ والخوفِ كالمتحيِّرينَ في جعْلِ أعمالِهم مقبولةً أو مردودةً، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ أي: لهم أيضًا مِن النوافلِ ووجوهِ البرِّ سِوى ما هم عليه، إمَّا أعمالًا قد عمِلوها في الماضي، أو سيَعمَلونها في المستقبَلِ، ثمَّ إنَّه سبحانَه رجَع بقولِه: حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إلى وصفِ الكفَّارِ).

ونسَب الرَّازي هذا القولَ لأبي مسلمٍ، واختاره.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (285/23).

(244) ممَّن اختار أنَّ المعنى: أنَّ لهؤلاء الكُفَّارِ أعمالًا لا يرضاها اللهُ مِن المعاصي مِن دونِ أعمالِ المؤمنينَ التي ذكَرَها اللهُ سُبحانَه لا بُدَّ لهم مِن أن يعمَلوها فيَدخُلوا بها النَّارَ: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحدي، والبغوي –ونسبه لأكثرِ المفَسِّرينَ–، والنَّسَفيُّ، وجلال الدين المحلي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (74/17)، ((تفسير الثعلبي)) (51/7)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 749)، ((تفسير البغوي)) (369/3)، ((تفسير النسفي)) (473/2)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 451).

قال الواحدي: (هُمْ لَهَا عَامِلُونَ إجماعُ المفسِّرينَ وأصحابِ المعاني على أنَّ هذا إخبارٌ عمَّا سيعملونَه مِن أعمالِهم الخبيثةِ التي كُتِبَت عليهم، لا بدَّ لهم أن يَعمَلوها).

((الوسيط)) للواحدي (294/3).

وقال الشوكاني: (فالإشارةُ بقولِه: ذَلِكَ إمَّا إلى أعمالِ المؤمنينَ، أو إلى أعمالِ الكُفَّارِ، أي: لهم أعمالٌ مِن دُونِ أعمالِ المؤمنينَ التي ذَكَرَها اللهُ، أو مِنْ دونِ أعمالِ الكُفَّارِ التي تَقَدَّم ذِكرُها مِن كَونِ قُلوبِهم في غَفلةٍ عظيمةٍ ممَّا ذُكِر، وهي فُنونُ كُفرِهم ومَعاصِيهم التي مِن جُملتِها ما سيأتي مِن طَعنِهم في القُرآنِ).

((تفسير الشوكاني)) (579/3).

وقال السمعاني: (وقال قتادةُ: الآيةُ تَنصَرِفُ إلى أصحابِ الطَّاعاتِ، ومعناه: أنَّ المؤمنينَ لهم أعمالٌ سِوى ما عَمِلوا مِن الخيرِ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ).

((تفسير السمعاني)) (481/3).

وقال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فيه أربعةُ أقوالٍ: أحدُها: أعمالٌ سَيِّئةٌ دونَ الشِّركِ.

رواه عِكرِمةُ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثَّاني: خطايا مِن دونِ ذلك الحَقِّ.

قاله مجاهِدٌ.

وقال ابنُ جريرٍ: مِن دونِ أعمالِ المؤمنينَ وأهلِ التَّقوى والخَشيةِ.

والثَّالثُ: أعمالٌ غيرُ الأعمالِ التي ذُكِروا بها سيَعمَلونَها.

قاله الزَّجَّاجُ.

والرَّابعُ: أعمالٌ –مِن قَبْلِ الحِينِ الذي قدَّرَ اللهُ تعالى أنَّه يُعَذِّبهم عند مجيئِه– مِن المعاصي.

قاله أبو سليمان الدمشقي).

((تفسير ابن الجوزي)) (266/3).

ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (18/4).

وقال ابن جُزَي: (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ أي: لهم أعمالٌ سَيِّئةٌ دونَ الغَمرةِ التي هم فيها، فالمعنى: أنَّهم يجمَعونَ بينَ الكُفرِ وسُوءِ الأعمالِ، والإشارةُ بذلك على هذا إلى الغَمرةِ، وإنَّما أشار إليها بالتَّأكيدِ؛ لأنَّها في معنى الكُفرِ).

((تفسير ابن جزي)) (53/2).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقال آخرونَ: وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ أي: قد كُتِبَ عليهم أعمالٌ سَيِّئةٌ لا بُدَّ أن يَعمَلوها قبْلَ موتِهم لا مَحالةَ؛ لِتَحِقَّ عليهم كَلِمةُ العذابِ.

ورُوِيَ نَحْوُ هذا عن مُقاتِلِ بنِ حيَّان، والسُّدِّيِّ، وعبدِ الرَّحمنِ بنِ زيدِ بنِ أسلمَ.

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((فوالَّذي لا إلهَ غَيرُه، إنَّ أحَدَكم لَيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجَنَّةِ، حتَّى ما يكونُ بَيْنَه وبيْنَها إلَّا ذِراعٌ، فيَسبِقُ عليه الكِتابُ، فيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ النَّارِ، فيَدخُلُها. وإنَّ أحَدَكم لَيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ النَّارِ، حتَّى ما يكونُ بيْنَه وبيْنَها إلَّا ذِراعٌ، فيَسبِقُ عليه الكِتابُ، فيَعملُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ، فيَدخُلُها)).[245]

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ (64).

أي: فإذا عذَّبَ اللهُ عُظَماءَ المُشرِكينَ المُنعَّمينَ، أخَذوا يَصرُخونَ ويَستَغيثونَ مِن شِدَّةِ عَذابِهم، طالِبينَ الخَلاصَ ممَّا أصابَهم.[246]

وهو ظاهِرٌ قَويٌّ حَسَنٌ).

((تفسير ابن كثير)) (5/482).

وقال ابنُ جُزي: (هُمْ لَهَا عَامِلُونَ قيل: هي إخبارٌ عن أعمالِهم في الحالِ.

وقيل: عن الاستِقبالِ.

وقيل: المعنى أنَّهم يتمادَونَ على عَمَلِها حتى يأخُذَهم اللهُ).

((تفسير ابن جزي)) (2/53).

(245) رواه البخاري (3332)، ومسلم (2643) واللفظ له.

(246) قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ أي: أغنياءَهم ورؤساءَهم، والإشارةُ إلى قريشٍ.

وفي المرادِ بِالْعَذَابِ قولانِ: أحدُهما: ضربُ السيوفِ يومَ بدرٍ.

قاله ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ.

والثاني: الجوعُ الذي عُذِّبوا به سبعَ سنينَ.

قاله ابنُ السَّائبِ).

((تفسير ابن الجوزي)) (3/266).

ممن اختار أنَّ المرادَ بِالْعَذَابِ: القتلُ يومَ بدرٍ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن أبي زمنين، والسمعاني.

لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ (65).

أي: لا تَضِجُّوا وتَستَغيثوا -أيُّها الكافِرونَ-؛ فلا شَيءَ يُخَلِّصُكم مِن عذابي، ولا يَنفَعُكم صُراخُكم.

قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (66).

أي: قد كانت آياتُ القُرآنِ تُقرَأُ عليكم؛ لِتُؤمِنوا بها قَبْلَ أنْ يَحُلَّ بكمُ العَذابُ، فكنتُم تُكذِّبونَ بها، وتَرجِعونَ مُعرِضينَ عنها.(247)

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (160/3)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (408/1)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (205/3)، ((تفسير السمعاني)) (482/3).

(247) مِمن فَسَّر الرجوعَ بمعناه الحقيقي: ابنُ جرير، ومكّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (79/17)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (4982/7).

قال ابن جرير: (ترجِعونَ مولِّينَ عنها إذا سَمِعتُموها؛ كراهيةً منكم لسَماعِها).

((تفسير ابن جرير)) (79/17).

وقيل: هو رجوعٌ معنويٌّ، بمعنَى التأخُّرِ عن الإيمان، والإعراضِ عن الحقّ.

ومِمَّن اختار هذا المعنَى في الجملةِ: مقاتلُ بن سليمان، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابن عطية، والقرطبي، والخازن، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (161/3)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (205/3)، ((الوسيط)) للواحدي (294/3)، ((تفسير ابن عطية)) (149/4)، ((تفسير القرطبي)) (136/12)، ((تفسير الخازن)) (274/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 555).

قال السعدي: (فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ أي: راجعينَ القَهقرى إلى الخلفِ؛ وذلك لأنَّ باتِّباعِهم القرآنَ يتقدَّمونَ، وبالإعراضِ عنه يستأخِرونَ وينزِلونَ إلى أسفَلِ سافِلينَ).

((تفسير السعدي)) (ص: 555).

قال البقاعي: (فَكُنْتُمْ أي: كونًا هو كالجِبِلَّةِ عَلَى أَعْقَابِكُمْ عند تلاوتِها تَنْكِصُونَ أي: تَرجِعونَ القَهقَرى، إمَّا حِسًّا أو معنًى).

((نظم الدرر)) (163/13).

كما قال تعالى: وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ [الأعراف: 146].

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (67).

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ.

أي: والحالُ أنّكم مُستَكبِرونَ بسببِ البيتِ الحرامِ، تقولونَ: لا يَظهَرُ علينا أحدٌ؛ لأنَّا أهلُ الحرمِ.(248)

(248) قال الرسعني: (والضميرُ في بِهِ كنايةٌ عن البيتِ الحرامِ شرَّفه الله تعالى في قولِ عامَّةِ المفسِّرينَ، وكانوا يفتخِرون به، ويقولونَ: نحن أهلُ الحرمِ، وجوارُ الله تعالى وسَدَنَةُ بيتِه، فلا يظهرُ علينا أحدٌ؛ فيكون كنايةً عن غيرِ مذكورٍ).

((تفسير الرسعني)) (137/5).

وقال القرطبيُّ: (الضميرُ في بِهِ قال الجمهورُ: هو عائدٌ على الحَرَمِ، أو المسجِدِ، أو البلد الذي هو مكَّةُ، وإن لم يتقدَّم له ذِكرٌ؛ لشهرتِه في الأمرِ، أي: يقولون: نحن أهلُ الحَرَمِ فلا نخافُ).

((تفسير القرطبي)) (136/12).

وقال ابنُ عطية: (وقالت فرقةٌ: الضميرُ عائدٌ على القرآنِ مِن حيثُ ذُكِرت الآياتُ، والمعنَى يُحدِثُ لكم سماعُ آياتي كِبْرًا وطغيانًا).

((تفسير ابن عطية)) (149/4).

وقال ابنُ كثير: (قولُه: مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ في تفسيرِه قولانِ: أحدُهما: أنَّ مُسْتَكْبِرِينَ حالٌ منهم حين نكوصِهم عن الحقِّ وإبائهم إيَّاه؛ استكبارًا عليه، واحتقارًا له ولأهلِه، فعلى هذا الضميرُ في بِهِ فيه ثلاثة أقوال: أحدُها: أنَّه الحرمُ بمكَّةَ، ذُمُّوا لأنَّهم كانوا يَسمُرون بالهُجرِ من الكلامِ.

والثاني: أنه ضميرُ القرآنِ، كانوا يسمُرون ويذكُرون القرآنَ بالهُجرِ من الكلام: «إنَّه سِحر، إنه شِعر، إنه كِهانة» إلى غيرِ ذلك من الأقوالِ الباطلةِ.

والثالث: أنَّه محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، كانوا يذكرونَه في سَمَرِهم بالأقوال الفاسدةِ، ويضربون له الأمثالَ الباطلةَ؛ مِن أنَّه شاعر أو كاهِنٌ أو ساحرٌ، أو كذَّابٌ أو مجنونٌ.

وكلُّ ذلك باطِلٌ، بل هو عبدُ اللهِ ورسولُه، الذي أظهره اللهُ عليهم، وأخرجهم من الحرَمِ صاغرين أذِلَّاءَ.

وقيل: المرادُ بقوله: مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ أي: بالبيتِ، يفتخرون به ويعتقِدون أنَّهم أولياؤه، وليسوا بهم).

((تفسير ابن كثير)) (482/5).

سَامِرًا تَهْجُرُونَ.

أي: حالَ كونِكم متحدِّثينَ ليلًا، تَهْذونَ في شأنِ القرآنِ، وتَقولونَ فيه ما لا معنَى له مِن القولِ؛ مِن الباطلِ الذي لا يضرُّه.(249)

اختُلِف في مرجع الضمير في ﴿به﴾ مِن قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ على قولين: الأول: أنّ الضمير عائد على الحرم والمسجد، وإن لم يتقدم له ذِكْرٌ؛ لشهرته في الأمر.

الثاني: أنّ الضمير عائد على القرآن.

ووجَّه ابنُ عطية (٦/ ٣٠٨) المعنى على القول الأول، فقال: «والمعنى: إنكم تعتقدون في أنفسكم أنّ لكم بالمسجد والحَرَم أعظم الحقوق على الناس والمنازل عند الله؛ فأنتم تستكبرون لذلك، وليس الاستكبار من الحق».

ووجَّه المعنى على القول الثاني، فقال: «والمعنى: يُحدث لكم سماع الآيات كُفرًا وطغيانًا».

ثم علَّق عليه بقوله: «وهذا قولٌ جيد».

(249) قال الواحدي: (الأكثرونَ على أنَّ السامرَ هاهنا: اسمٌ للجماعةِ الذين يسمرونَ.

وهو معنَى قولِ ابنِ عبَّاسٍ، وأكثرِ المفسِّرينَ).

((البسيط)) (26/16).

قال القرطبيُّ: (مِنْ «هَجَرَ المريضُ»: إذا هذَى، معناه: يتكلَّمونَ بِهَوَسٍ وسَيِّءٍ مِنَ القَولِ في النبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفي القرآنِ).

((تفسير القرطبي)) (137/12).

والمعنى الثاني على قراءةِ تَهْجُرُونَ: أي تُعرِضون عن القرآنِ، أو البيتِ، أو رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (84/17)، ((تفسير السمعاني)) (482/3).

وقال ابنُ عاشور: (أي: في حالِ كَونِكم مُتحَدِّثينَ هجْرًا، وكان كبراءُ قُرَيشٍ يَسمُرون حَولَ الكعبةِ يتحَدَّثونَ بالطَّعنِ في الدِّينِ، وتكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم).

((تفسير ابن عاشور)) (86/18).

وقال البقاعي: (تَهْجُرُونَ أي: تُعرضون عنها [أي: الآياتِ]، وتقولونَ فيها القولَ الفاحشَ).

((نظم الدرر)) (164/13).

كما قال سُبحانَه: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الفرقان: 4- 5].

وقال تَبارَكَ وتَعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ [فصلت: 26].

وقال تعالى: وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ [الأنبياء: 36].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: تَهْجُرُونَ قِراءتانِ:

1- قِراءةُ تُهْجِرُونَ بضَمِّ التَّاءِ وكَسرِ الجيمِ، أي: تُفْحِشُونَ، فكان الكفَّارُ إذا سمعوا قِراءَة رسولِ اللهِ - ﷺ - تكلَّموا بالهُجْرِ وهو الفُحشُ، وسبُّوا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلمَّ![250]

2- قِراءةُ تَهْجُرُونَ بفَتحِ التَّاءِ وضَمِّ الجيمِ، مِن الهَجْرِ بالفتحِ، إمَّا بمعنَى القطيعةِ أو الهذيانِ، أي: تُعرِضونَ عن القرآنِ، أو تهذونَ في شأنِه، مِن قولِك: هجرَ المريضُ، إذا هذَى، أي: تقولون اللغوَ مِن القولِ.

---

(250) قرأ بها نافع.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (329/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (192/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 489).

وقيل: مِن الهُجْرِ بالضمِّ، أي: الفُحْشِ، فيرجعُ إلى معنى القراءةِ الأُولى.(251)

(251) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/329).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/192)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 258)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 489)، ((تفسير البيضاوي)) (4/91).

سورةُ المُؤْمِنونَ

الآيات (68-72)

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72)

غريب الكلمات:

جِنَّةٌ: أي: جُنونٌ، وأصلُ (جنن): السَّترُ والتَّسَتُّرُ، وسُمِّي الجُنونُ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ العقلَ ويُغطِّيه.

خَرْجًا فَخَرَاجُ: الخرْجُ والخراجُ واحدٌ، أي: الأجرُ والجُعلُ والرِّزْقُ، والخرْجُ والخراجُ: الإتاوةُ؛ لأنَّه مالٌ يُخرِجُه المُعطي، وقيل: بيْنَهما فرقٌ؛ فالخراجُ ما لَزِمك، والخرجُ ما تبَرَّعْتَ به، وقيل غيرُ ذلك. وأصلُ (خرج): النَّفاذُ عنِ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68).

أي: أفلمْ يَتدبَّرْ أولئك المُشرِكونَ القُرآنَ؛ فيَعقِلوا معانِيَه، ويَعلَموا ما فيه، ويَعمَلوا به ويتَّبِعوه، أمْ جاءَهم فيه ما لم يأْتِ آباءَهم الَّذين مِن قَبْلِهم، فأنكَروه وأعرَضوا عنه؟![252]

كما قال تعالى: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا [النساء: 82].

وقال سُبحانَه: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [محمد: 24].

وقال عزَّ وجلَّ: أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا

---

(252) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٣١٠ - ٣١١) في قوله تعالى: ﴿أَمْ جاءَهُمْ﴾ معنيين: الأول: «أَأَبْدَعَ لهم أمرًا لم يكن في الناس قبلهم؟! بل قد جاء الرسل قبل كنوح وإبراهيم وإسماعيل؟».

وعلَّق عليه بقوله: «وفي هذا التأويل مِن التَّجَوُّز أن جعل سالِف الأمم آباء، إذ الناس في الجملة آخرهم من أولهم».

والثاني: أن المراد بـ ﴿آباءهم الأولين﴾ «مَن فَرَط مِن سلفهم في العرب.

كأنه قال: أفلم يدَّبَّروا القول أم جاءهم أمر غريب من عند الله لم يأت آباءهم فبهر عقولهم، ونَبَتْ عنه أذهانهم».

وعلَّق عليه بقوله: «فكأن التوبيخ يتَّسِق بأن يُقدَّر الكلام: أفلم يدَّبَّروا أم بُهرت عقولهم ونَبَتْ أذهانهم عن أمر من أمور الله غريب في سلفهم».

ثم علَّق على القول الأول بقوله: «والمعنى الأول أبْيَن».

آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [الزخرف: 21 – 24].

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69).

أي: أمْ لم يَعرِفِ المُشرِكونَ رَسولَهم مُحمَّدًا، وأنَّه مِن أهلِ الصِّدقِ والأمانةِ، فيُنكِروا قَولَه؟!

أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70).

أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ.

أي: أمْ يَحتجُّونَ في تَركِ الإيمانِ بدَعوى أنَّ بمُحَمَّدٍ – ﷺ – جُنونًا؟!

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ [الأعراف: 184].

وقال سُبحانَه: وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ [التكوير: 22].

بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ.

أي: ليس سَبَبُ رَفْضِهِمُ الإيمانَ وتَوحيدَ الرَّحمنِ شيئًا مِمَّا تقَدَّمَ ذِكْرُه، بلِ السَّبَبُ الَّذي دعاهم للتَّمسُّكِ بشِرْكِهم وكُفرِهم هو أنَّ مُحمَّدًا قد جاءَهم بالحَقِّ، وأكثَرُهم يَكرَهونَ القَبولَ والإذعانَ لهذا الحَقِّ المُخالِفِ لأهوائِهم!(253)

كما قال تعالى: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ [الأنعام: 33].

(253) قال ابنُ عاشـــور: (الحقُّ: الثَّابتُ في الواقعِ ونفْسِ الأمرِ، يكونُ في الذواتِ وأوصــافِها، وفي الأجناسِ، وفي المعاني، وفي الأخبارِ؛ فهو ضـدُّ الكذبِ، وضـدُّ السِّـحرِ، وضـدُّ الشِّـعرِ؛ فما جاءهم به النبيُّ صـلَّى الله عليه وسـلَّم مِن الأخبارِ والأوامرِ والنَّواهي كلُّه مُلابِسٌ للحَقِّ؛ فبَطَل بهذا ما قالوه في القرآنِ وفي الرَّسـولِ عليه الصَّـلاةُ والسَّـلامُ مَقالةَ مَن لم يتدبَّروا القرآنَ، ومَن لم يُراعُوا إلَّا مُوافقةَ ما كان عليه آباؤُهم الأوَّلونَ، ومَن لم يعرِفوا حالَ رَسـولِهم الذي هو مِن أنفُسِــهم؛ ومَقالةَ مَن يَرمي بالبُهتانِ؛ فنَسَبوا الصَّادِقَ إلى التَّلبيسِ والتَّغليطِ! فالحقُّ الذي جاءهم به النبيُّ أوَّلُه إثباتُ الوَحدانيَّةِ لله تعالى، وإثباتُ البَعثِ، وما يَتْبَعُ ذلك مِن الشَّـرائعِ النَّازلةِ بمكَّةَ؛ كالأمرِ بالصَّـلاةِ والزَّكاةِ، وصِـلةِ الرَّحِمِ، والاعترافِ للفاضِـلِ بفضلِه، وزَجْرِ الخَبيثِ عن خُبثِه، وأُخوَّةِ المُسلِمينَ بَعضِهم لِبَعضٍ، والمساواةِ بينهم في الحَقِّ، ومَنْعِ الفواحِشِ؛ مِن الزِّنا، وقَتْلِ الأنفُسِ، ووأْدِ البناتِ، والاعتداءِ وأكْلِ الأموالِ بالباطِلِ، وإهانةِ اليتيمِ والمِســكينِ، ونحوِ ذلك مِن إبطالِ ما كان عليه أمرُ الجاهليَّةِ مِن العُدوانِ، والخِلافةِ التي نَشَـؤوا عليها من عَهدٍ قديمٍ؛ فكلُّ ما جاء به الرَّسـولُ يومَئذٍ هو الموافِقُ لِمُقتضَـى نِظامِ العُمرانِ الذي خَلَقَ اللهُ عليه العالَمَ؛ فهو الحقُّ، كما قال تعالى: مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [الدخان: 39].

ولَمَّا كان قَولُ الكاذبِ وقَولُ المجنونِ المُختَصُّ بهذا الذي لا يُشــارِكُهما فيه العُقلاءُ والصَّــادِقونَ غيرَ جارِيَينِ على هذا الحَقِّ، كان إثباتُ أنَّ ما جاء به الرَّسولُ حَقٌّ نَقضًا لإنكارِهم صِدْقَه.

ولِقَولِهم: هو مجنونٌ كان ما بعدَ «بل» نَقضًا لِقَولِهم).

((تفسير ابن عاشور)) (90/18).

وقال سُبحانَه: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ [يونس: 15– 17].

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71).

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ.

أي: ولو جاء الحَقُّ(254) بما يُوافِقُ أهواءَهم الفاسِدةَ المُختَلِفةَ، لفَسَدتِ السَّمواتُ والأرضُ ومَن فيهِنَّ مِنَ المَخلوقاتِ، واختَلَّ نِظامُ العالَمِ.

---

(254) قيل: المرادُ بالحَقِّ هنا: هو اللهُ تعالى.
وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والثعلبي، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وابن كثير، والعليمي.
يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (161/3)، ((تفسير ابن جرير)) (88/17)، ((تفسير السمرقندي)) (486/2)، ((تفسير الثعلبي)) (52/7)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: 252)، ((تفسير القرطبي)) (140/12)، ((تفسير النسفي)) (475/2)، ((تفسير ابن كثير)) (484/5)، ((تفسير العليمي)) (482/4).
قال القرطبي: (الحَقُّ هنا هو اللهُ سبحانَه وتعالَى، قالَه الأكثرونَ، منهم مُجاهِدٌ، وابنُ جُرَيجٍ، وأبو صالِحٍ، وغيرُهم). ((تفسير القرطبي)) (140/12).
ونسبه الماورديُّ والعِزُّ بن عبد السلام أيضًا للأكثرين، يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (62/4)، ((تفسير العز بن عبد السلام)) (379/2).

وقيل: المرادُ به: القرآنُ، وممَّن اختاره: الواحدي، والسمعاني، وجلال الدين المحلي، والشربيني.
يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 751)، ((تفسير السمعاني)) (3/483)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 452)، ((تفسير الشربيني)) (2/586).
وقيل: المرادُ بالحقّ هنا: ضدُّ الباطلِ، وهو المذكورُ في الآيةِ قبْلَه، ومِن جملته القُرآنُ وما جاء به النبيُّ صلى الله عليه وسلم مِنَ الإسلام والتوحيد والشَّرعِ.
وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: ابنُ عطية، وابن جزي، وأبو حيان، وابن القيم، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/151)، ((تفسير ابن جزي)) (2/54)، ((تفسير أبي حيان)) (7/574)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (2/11)، ((تفسير أبي السعود)) (6/144)، ((تفسير الشوكاني)) (3/583) ((تفسير ابن عاشور)) (18/92).
قال ابنُ جزي: (الحقُّ هنا يُرادُ به الصَّوابُ والأمرُ المستقيمُ، فالمعنى: لو كان الأمرُ على ما تقتضي أهواؤُهم مِن الشِّركِ باللهِ واتِّباعِ الباطِلِ لفَسَدَت السَّمواتُ والأرضُ، كقَولِه تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا [الأنبياء: 22] .
وقيل: إنَّ الحَقَّ في الآيةِ هو اللهُ تعالى، وهذا بَعيدٌ في المعنى، وإنَّما حمَلَه عليه أنْ جَعَلَ الاتِّباعَ حَقيقةً، ولم يَفهَمْ فيه الاستِعارةَ، وإنَّما الحقُّ هنا هو المذكورُ في قَولِه تعالى: بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ).
((تفسير ابن جزي)) (2/54).
وقال الشِّنقيطي: (اختلف العُلَماءُ في المرادِ بالحقِّ في هذه الآيةِ؛ فقال بعضُهم: الحقُّ: هو اللهُ تعالى.
ومعلومٌ أنَّ الحقَّ مِن أسمائِه الحُسنى...
وكونُ المرادِ بالحقّ في الآيةِ هو اللهَ: عزاه القرطبيُّ للأكثرينَ، وممَّن قال به: مجاهدٌ، وابنُ جُريجٍ، وأبو صالحٍ، والسُّدِّيُّ، ورُوِي عن قتادةَ، وغيرهم.
وعلى هذا القَولِ فالمعنى: لو أجابهم اللهُ إلى تشريعِ ما أحبُّوا تَشريعَه، وإرسالِ مَن اقترَحوا إرسالَه -بأنْ جَعَل أمرَ التَّشريعِ، وإرسالَ الرُّسلِ، ونَحوَ ذلك؛ تابِعًا لأهوائِهم الفاسدةِ- لفَسَدت السَّمواتُ والأرضُ ومَن فيهِنَّ؛ لأنَّ أهواءَهم الفاسِدةَ وشَهَواتِهم الباطِلةَ لا يُمكِنُ أن تقومَ عليها السَّماءُ والأرضُ...
القولُ الثاني: أنَّ المرادَ بالحقّ في الآيةِ: الحقُّ الذي هو ضِدُّ الباطِلِ، المذكورُ في قَولِه قَبلَه: وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ، وهذا القولُ الأخيرُ اختاره ابنُ عطيَّة، وأنكر الأوَّلَ.
وعلى هذا القَولِ فالمعنى: أنَّه لو فُرِضَ كونُ الحَقِّ مُتَّبِعًا لأهوائِهم التي هي الشِّركُ باللهِ، وادِّعاءُ الأولادِ والأندادِ له، ونحوُ ذلك؛ لفَسَدَ كلُّ شَيءٍ؛ لأنَّ هذا الفَرضَ يَصيرُ به الحقُّ هو أبطلَ الباطِلِ، ولا يمكِنُ أن يقومَ نِظامُ السَّماءِ والأرضِ على شَيءٍ هو أبطلُ الباطِلِ؛ لأنَّ استِقامةَ نِظامِ هذا العالَمِ لا تُمكِنُ إلَّا بقُدرةِ وإرادةِ إلهٍ هو الحَقُّ، مُنفَرِدٌ بالتَّشريعِ والأمرِ والنَّهيِ، كما لا يخفَى على عاقِلٍ.
والعِلمُ عند اللهِ تعالى).
((أضواء البيان)) (5/342، 343).

بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ.

أي: بلْ أتينا أولئك المُشرِكينَ بالقُرآنِ المُبَيِّنِ للحَقِّ، وفيه شَرَفُهم وعِزُّهم في دُنياهم وأُخراهم؛ فهُمْ عن القُرآنِ -الَّذي فيه شَرَفُهم وعِزُّهم- مُعرِضونَ لا يَتَّبِعونَه!

كما قال الله تعالى: لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [الأنبياء: 10].

وقال سُبحانَه: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ [الزخرف: 44].

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72).

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ.

أي: أمْ تَسأَلُ -يا مُحَمَّدُ- مُشرِكي قَومِك أجْرًا على ما جِئتَهم به مِنَ الحَقِّ، فيَمنَعُهم ذلك مِن اتِّباعِه؟!

كَلَّا! ليس الأمرُ كذلك؛ فثَوابُ اللهِ الَّذي يُعْطيك على تَبليغِ رِسالتِه خَيرٌ لك مِن ذلك؛ فما الَّذي يَمنَعُهم -إذَنْ- مِن اتِّباعِ الحَقِّ؟!

وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.

أي: واللهُ خيرُ مَن يُعطي عِبادَه ويَرزُقُهم مِن فَضلِه.

سورةُ المُؤْمنونَ

الآيات (73-77)

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ
لَنَاكِبُونَ (74) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَلَقَدْ
أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا
عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77)

غريب الكلمات:

لَنَاكِبُونَ: أي: لجائِرونَ، مُنحرِفون، مُعْرِضونَ؛ يقال: نَكَبَ عن كذا، أي: عدَل عنه ومالَ، وأصلُ (نكب): يدُلُّ على مَيْلٍ.

لَلَجُّوا: أي: لَثَبَتُوا، ولتَمادَوْا، ولاستَمرُّوا، واللَّجاجُ: التَّمادي والعِنادُ في تعاطي الفِعلِ المزجورِ عنه، وأصل (لجج): يدُلُّ على تردُّدِ الشيءِ بَعضِه على بعضٍ، وترديدِ الشيءِ.

طُغْيَانِهِمْ: أي: عُتُوِّهِم وتَكبُّرِهم، وأصلُ الطُّغيان: مجاوزةُ الحَدِّ.

يَعْمَهُونَ: أي: يتَحيَّرون ويَجورونَ عَن الطَّرِيق، وأصلُ العَمَهِ: التردُّدُ في الأمْرِ مِن التحيُّرِ.

اسْتَكَانُوا: أي: خشَعوا وذَلُّوا، وخَضَعوا، وأصلُ الاستِكانةِ: إظهارُ الضَّعْفِ.

يَتَضَرَّعُونَ: أي: يَتذلَّلُون، ويَدْعُون في خشوعٍ، وأصلُ (ضرع): يَدُلُّ على لِينٍ في الشَّيءِ.

مُبْلِسُونَ: أي: مُتحيِّرون، ويائِسون مُلقون بأيديهم، والإبلاسُ: الحُزنُ المعترِضُ مِن شِدَّةِ اليأسِ، وأصلُ (بلس): يدلُّ على اليأسِ.

تفسير الآيات:

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73).

أي: وإنَّك -يا محمَّدُ- لَتَدْعُو مُشركي قَومِك إلى طَريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، وهو دِينُ الإسلامِ.

كما قال تعالى: وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ [الحج: 67].

وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (74).

أي: وإنَّ المُكذِّبينَ بالبَعثِ بَعدَ الموتِ لَمُنحرِفونَ عن طَريقِ الحَقِّ المُستقيمِ، المُوصِلِ إلى اللهِ وإلى جنَّتِه، فصائِرونَ إلى النَّارِ.

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75).

أي: ولو رَحِمْنا هؤلاء الَّذين لا يُؤمنونَ بالآخِرةِ، ورفَعْنا ما أصابَهم مِن عذابِ الدُّنيا مِن قَحْطٍ وجَدْبٍ وفَقرٍ؛ لَتمادَوْا واستَمرُّوا في كُفرِهم وضَلالِهم الَّذي تجاوَزوا فيه الحَدَّ، وهم يَتردَّدون حيَارى لا يُميِّزون الحقَّ مِنَ الباطِلِ.(255)

---

(255) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (92/17)، ((تفسير السعدي)) (ص: 556)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (345/5).

وقال ابنُ جزي (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ ...

الآيةَ: قال الأكثرونَ: نزلَتْ هذه الآيةُ حينَ دعا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على قريشٍ بالقحطِ فنالهم الجوعُ حتَّى أكلوا الجلودَ وغيرَها، فالمعنى رحِمناهم بالخِصبِ، وكشَفنا ما بهم مِن ضرِّ الجوعِ والقحطِ: لتَمادَوا على طغيانِهم.

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76).

أي: ولقدْ أصَبْناهم بعَذابِ الدُّنيا -كإصابتِهم بالجُوعِ وغَيرِه- فما خَضعوا لربِّهم بالانقيادِ لأوامِرِه، واجتِنابِ نواهِيه، وما دَعَوْه بخُشوعٍ وتذَلُّلٍ وافتِقارٍ؛ لِيَرفَعَ عنهم البلاءَ الذي أصابَهم!

كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ [الأنعام: 42 – 44].

وقال سُبحانَه: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [الأعراف: 94– 95].

وفي هذا عندي نظرٌ؛ فإنَّ الآيةَ مكِّيَّةٌ باتِّفاقٍ، وإنَّما دعا النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على قريشٍ بعدَ الهجرةِ حسَبما ورَد في الحديثِ.

وقيل: المعنى: لو رحِمْناهم بالردِّ إلى الدُّنيا لعادُوا لِمَا نُهُوا عنه، وهذا القولُ لا يلزمُ عليه ما لزِم على الآخَرِ، ولكنَّه خرَج عن معنَى الآيةِ).

((تفسير ابن جزي)) (55/2).

حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77).

أي: حتَّى إذا فتَحْنا عليهم عَذابًا شديدًا، إذا هم في ذلك العَذابِ الشَّديدِ نادِمونَ على ما صدَرَ منهم مِن كُفْرٍ وتَكذيبٍ بالحَقِّ، آيِسونَ مِن حُصولِ الخَيرِ والفَرَجِ والنَّجاةِ![256]

(256) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (95/17)، ((تفسير البغوي)) (372/3)، ((تفسير ابن عطية)) (152/4)، ((تفسير القرطبي)) (143/12)، ((تفسير البيضاوي)) (93/4)، ((تفسير ابن كثير)) (487/5)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (172/13)، ((تفسير السعدي)) (ص: 556)، ((تفسير ابن عاشور)) (103/18).

واختلَفَ المفسِّرون في المُرادِ بالعذابِ الشَّديدِ هنا؛ فقيل: هو الجوعُ.

وممَّن قال بذلك: مقاتلُ ابن سليمان، وابن جرير، والبيضاوي، والنسفي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (163/3)، ((تفسير ابن جرير)) (95/17)، ((تفسير البيضاوي)) (93/4)، ((تفسير النسفي)) (476/2).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ.

يُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: 487)، ((تفسير ابن جرير)) (95/17)، ((تفسير ابن الجوزي)) (268/3).

قال ابنُ عطية: (العذابُ الشديدُ، إمَّا يوم بدرٍ بالسيوفِ كما قال بعضُهم، وإمَّا توعُّدٌ بعذابٍ غيرِ معيَّنٍ، وهو الصوابُ؛ لما ذكرناه مِن تقدُّم بدرٍ للمجاعةِ، ورُوِيَ عن مجاهدٍ أنَّ العذابَ والبابَ الشديدَ هو كلُّه مجاعةُ قريشٍ.

وهذا حسَنٌ، كأنَّ الأخذَ كان في صدرِ الأمرِ ثم فُتح البابُ عندَ تناهيهِ حيثُ أُبلِسوا وجاء أبو سفيانَ).

((تفسير ابن عطية)) (152/4).

ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (93/4).

وقيل: المرادُ: عذابُ الآخرة، كما ينبئُ عنه التَّهويلُ بفتحِ البابِ، والوصفِ بالشِّدَّةِ.

وممَّن قال بذلك: أبو السعودِ.

يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (146/6).

قال ابن كثير: (أي: حتَّى إذا جاءهم أمرُ اللهِ وجاءتْهم السَّاعةُ بَغتةً، وأخَذَهم مِن عقابِ اللهِ ما لم يكونوا يحتَسِبونَ).

((تفسير ابن كثير)) (487/5).

وقيل: المُرادُ بالعذابِ الشَّديدِ: عذابُ السَّيفِ يومَ بدْرٍ.

وممَّن قال بذلك: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (412/1)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (207/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (103/18).

ومِمن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وابنُ جُرَيجٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/94)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/268).

قال السعدي: (لكنْ وراءَهم العذابُ الذي لا يُردُّ، وهو قولُه: حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ؛ كالقتلِ يومَ بدرٍ وغيرِه، إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ آيِسونَ مِن كلِّ خيرٍ، قد حضرهم الشرُّ وأسبابُه، فلْيَحْذَروا قبْلَ نزولِ عذابِ الله الشديدِ، الذي لا يُرَدُّ، بخلافِ مجرَّدِ العذابِ؛ فإنَّه ربَّما أقلع عنهم، كالعقوباتِ الدنيويَّةِ التي يؤدِّبُ الله بها عبادَه، قال تعالى فيها: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

((تفسير السعدي)) (ص: 556).

سورةُ المُؤْمنونَ

الآيات (78-83)

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي
ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا
أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83)

غريب الكلمات:

ذَرَأَكُمْ: أي: أنشَأَكُم، وبثَّكُم، وخلَقَكُم، وأصْلُ (ذرأ): كالشَّيءِ يُبذَرُ ويُزرَعُ.

أَسَاطِيرُ: الأساطيرُ: الأباطيلُ والتُّرَّهاتُ، جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلين وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (78).

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الَّذي أوجَدَ لكم[257] السَّمعَ الَّذي تَسمَعونَ به، والأبصارَ الَّتي تُبصِرونَ بها، والقُلوبَ الَّتي تَعقِلونَ بها، فتَنتَفِعونَ بها في مَصالِحِ دِينِكم ودُنياكم.[258]

قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ.

---

(257) قيل: الخطابُ للمُكذِّبينَ بالبعثِ.

وممن قال به: ابنُ جرير، ومكِّي، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (96/17)، ((الهداية)) لمكِّي (4992/7)، ((تفسير القاسمي)) (299/7).

وقيل: الخطابُ للمؤمنينَ.

وممن قال به: الرازيُّ.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (289/23).

وقيلَ: الخطابُ لِعُمومِ العِبادِ.

اختاره أبو حيان، وهو ظاهرُ عبارةِ ابن كثير، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (579/7)، ((تفسير ابن كثير)) (487/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 556).

(258) قال ابنُ جرير: (يقول تعالى ذِكرُه: واللهُ الذي أحدَث لكم -أيُّها المكذِّبون بالبعثِ بعدَ المماتِ- السمعَ الذي تسمعونَ به، والأبصارَ التي تُبصرونَ بها، والأفئدةَ التي تفقهونَ بها؛ فكيفَ يتعذَّرُ على مَن أنشأَ ذلك ابتِداءً إعادتُه بعدَ عدمِه وفقْدِه، وهو الذي يُوجِدُ ذلك كلَّه إذا شاء، ويُفنيه إذا أراد؟!) ((تفسير ابن جرير)) (96/17).

وقال ابنُ كثير: (ذكر تعالى نعمتَه على عبادِه في أن جعَل لهم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ، وهي العقولُ والفهومُ التي يُدركونَ بها الأشياءَ، ويَعتبرونَ بما في الكونِ مِن الآياتِ الدالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وأنَّه الفاعلُ المختارُ لِما يشاءُ). ((تفسير ابن كثير)) (487/5).

أي: لا تَشْكُرونَ اللهَ إلَّا شُكرًا قَليلًا على ما أنْعَمَ به عليكم.(259)

(259) قال ابنُ عاشور: (إنْ كان الخِطابُ للمُشرِكينَ فالشُّكرُ مُرادٌ به التَّوحيدُ، أي: فالشُّكرُ الصَّادِرُ منكم قَليلٌ بالنِّسبةِ إلى تَشريكِكم غيرَه معه في العِبادةِ.

وإنْ كان الخِطابُ لجميعِ النَّاسِ فالشُّكرُ عامٌّ في كلِّ شُكرِ نِعْمةٍ، وهو قليلٌ بالنِّسبةِ لِقلَّةِ عَددِ الشَّاكرينَ؛ لأنَّ أكثَرَ النَّاسِ مُشرِكونَ، كما قال تعالى: وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ [الأعراف: 17].

وإنْ كان الخِطابُ للمُسلمينَ والمقصودُ التَّعريضُ بالمشركينَ، فالشُّكرُ عامٌّ، وتَقليلُه تَحريضٌ على الاستِزادةِ منه ونبْذِ الشِّركِ).

((تفسير ابن عاشور)) (104/18).

ممن اختار أن المراد أنهم يشكرون شكرًا قليلًا: ابنُ جرير، والرسعني، والقرطبي، وابن جزي، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (601/18)، ((تفسير الرسعني)) (148/5)، ((تفسير القرطبي)) (144/12)، ((تفسير ابن جزي)) (55/2)، ((تفسير ابن كثير)) (488/5)، ((تفسير الشوكاني)) (585/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 557)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (100/3).

قال الشِّنقيطي: (قَولُه: قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ نعتٌ لمَصدرٍ، أي: تَشكُرونَ شُكرًا قليلًا.

و «ما» تأكيدٌ للقِلَّةِ، ولفظةُ «ما» تأتي لتأكيدِ النَّكرةِ في قِلَّتِها وحقارتِها.

قال بعضُ العُلَماءِ: لا يخلو أحدٌ مِنْ شُكرٍ في الجُملةِ إلَّا أنَّه شُكرٌ قَليلٌ، والشُّكرُ القَليلُ لا يفيدُ؛ لأنَّ مَن عَمِلَ ببَعضِ الكِتابِ وتَرَك أكثَرَه كمَن لم يعمَلْ به، كما قال تعالى: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ [البقرة: 85] ، وبَعضُ عُلَماءِ التَّفسيرِ يقولون: إنَّ القرآنَ تُطلَقُ فيه القِلَّةُ ويُرادُ العَدَمُ، والمرادُ: لا تَشكُرونَ النِّعمةَ أصلًا؛ لأنَّ المفرِطَ المُستَعمِلَ أغلَبَ نِعَمِ اللهِ فيما يُسخِطُ اللهَ لا يُعَدُّ مِن الشَّاكِرينَ.

وهذا التَّفسيرُ مُخالِفٌ لظاهِرِ القُرآنِ؛ لأنَّ القُرآنَ دَلَّ على أنَّ هناك شُكرًا قليلًا، ولا تجوزُ مُخالفةُ ظاهِرِ القُرآنِ إلَّا لدَليلٍ يجِبُ الرُّجوعُ إليه مِن كتابٍ أو سُنَّةٍ، أمَّا استِعمالُ القِلَّةِ في العَدَمِ فهو استِعمالٌ صَحيحٌ في لُغةِ العَرَبِ معروفٌ لا شَكَّ فيه بيْنَ العُلَماءِ....

ولكِنَّ هذا الإطلاقَ وإن كان صَحيحًا في لُغةِ العَرَبِ فظاهِرُ القُرآنِ يُخالِفُه ويدُلُّ على أنَّه لا يخلو إنسانٌ مِن شُكرٍ في الجُملةِ، إلَّا أنَّ الشُّكرَ القَليلَ مع الكُفرِ الكثيرِ لا ينفَعُ).

((العذب النمير)) (100/3) بتصرُّفٍ يسيرٍ.

وقال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرونَ: يريدُ أنَّهم لا يشكرونَ أصلًا).

((تفسير ابن الجوزي)) (269/3).

وممَّن اختار هذا القولَ: السمعانيُّ، والبغوي، والخازن، والعليمي، والقاسمي.

وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79).

وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ.

أي: واللهُ هو الَّذي خلقَكم وبثَّكُم -أيُّها النَّاسُ- بالتَّناسُلِ في سائرِ جِهاتِ الأرضِ، على اختِلافِ أجناسِكم وصِفاتِكم ولُغاتِكم.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً [النساء: 1].

وقال سُبحانَه: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [الروم: 20].

وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تُجمَعونَ يومَ القِيامةِ، فيُحْييكم بَعْدَ موتِكم لِيُحاسِبَكم ويُجازِيَكم بما عَمِلتُم مِن خَيرٍ وشَرٍّ.

وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80).

وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (486/3)، ((تفسير البغوي)) (372/3)، ((تفسير الخازن)) (275/3)، ((تفسير العليمي)) (485/4)، ((تفسير القاسمي)) (299/7).

أي: واللهُ وَحْدَه الَّذي يُحْيي خَلْقَه بنَفخِ الرُّوحِ فيهم، وهو يُمِيتُهم بَعدَ أنْ أحْياهم.

وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

أي: وللهِ وَحْدَه اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ، فهو الذي جعَلَهما يَتناوبانِ ويتعاقبان بقُدرتِه سُبحانَه، فيَذهبُ باللَّيلِ، ويأْتي بالنَّهارِ، ثُمَّ يَذهبُ بالنَّهارِ، ويأْتي باللَّيلِ.(260)

---

(260) ممَّن اختار أنَّ الاختلافَ هنا بمعنَى التَّعاقبِ: ابنُ عطية، وأبو حيان، وابنُ كثير، والعُليمي، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/153)، ((تفسير أبي حيان)) (7/580)، ((تفسير ابن كثير)) (5/488)، ((تفسير العليمي)) (4/485)، ((تفسير السعدي)) (ص: 557)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (5/347).

وممَّن اختار أنَّ الاختِلافَ هنا في الزِّيادةِ والنُّقصانِ: السمعانيُّ، والبغوي، والخازن.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (3/486)، ((تفسير البغوي)) (3/372)، ((تفسير الخازن)) (3/275).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه: وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فيه قولانِ: أحَدُهما: بالزِّيادةِ والنُّقصانِ.

الثاني: تكَرُّرُهما يومًا بعدَ ليلةٍ، وليلةً بعدَ يومٍ.

ويحتَمِلُ ثالثًا: اختِلافُ ما مضى فيهما مِن سَعادةٍ وشَقاءٍ، وضَلالٍ وهُدًى).

((تفسير الماوردي)) (4/64).

وذكر الواحدي أنَّ قولَه: اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَار فُسِّرَ بتفسيرين يَرجِعانِ إلى أصلٍ واحِدٍ: الأوَّلُ: هو تَعاقُبُهما في الذَّهابِ والمجيءِ.

والثَّاني: اختِلافُهما في الطُّولِ والقِصَرِ، والنُّورِ والظُّلمةِ، والزِّيادةِ والنُّقصانِ.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (3/453).

وقال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أي: هو الذي جعَلَهما مُختلفَينِ، يتعاقَبانِ، ويختَلِفانِ في السَّوادِ والبَياضِ).

((تفسير ابن الجوزي)) (3/269).

وقال النَّسفي: (وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أى: مجيءُ أحَدِهما عَقِيبَ الآخَرِ، واختِلافُهما في الظُّلمةِ والنُّورِ، أو في الزِّيادةِ والنُّقصانِ).

((تفسير النسفي)) (2/477).

قال القرطبي: (...

وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أي: جعْلُهما مُختلفينِ، كقولك: لك الأجرُ والصِّلةُ، أي: إنَّك تُؤجَرُ وتُوصَلُ، قاله الفرَّاء.

كما قال تعالى: إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ [يونس: 6].

وقال سبحانه: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا [الفرقان: 62].

أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

أي: أفليسَتْ لكم عُقولٌ تُدرِكونَ بها أنَّ الَّذي خلَقَ لكم السَّمعَ والأبصارَ والأفئدةَ، وذرَأكم في الأرضِ، ويُحْيي ويُميتُ، وله اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ -هو المُستحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له، وأنَّه القادِرُ على بَعْثِكم بَعدَ موتِكم؟!

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81).

وقيلَ: اختلافُهما: نُقْصانُ أحدِهما وزيادةُ الآخَرِ.
وقِيلَ: اختلافُهما في النُّورِ والظُّلمةِ.
وقِيلَ: تكرُّرُهما يومًا بَعدَ ليلةٍ، وليلةً بَعدَ يومٍ.
ويَحتمِلُ خامسًا: اختلافُ ما مَضى فيهما مِن سَعادةٍ وشَقاءٍ، وضلالٍ وهُدًى).
((تفسير القرطبي)) (144/12).
ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (240/2).
وقال البقاعي: (وَلَهُ أي: وَحْدَه لا لِغَيرِه اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أي: التصَــرُّفُ فيهما على هذا الوَجهِ، يُوجِدُ كلًّا منهما بعدَ أن أعدَمَه، كما كانا سواءً؛ فدلَّ تعاقبُهما على تغيُّرِهما، وتغيُّرُهما بذلك وبالزِّيادةِ والنَّقصِ على أنَّ لهما مُغيِّرًا لا يتغيَّرُ، وأنَّه لا فِعلَ لهما، وإنَّما الفِعلُ له وَحْدَه، وأنَّه قادِرٌ على إعادةِ المعدومِ كما قَدَر على ابتدائِه بما دلَّ على قُدرتِه، وبهذا الدَّليلِ الشُّـــهوديِّ للحامِدينَ؛ ولذلك ختَمَه بقولِه مُنكِرًا تَســبيبَ ذلك لعَدَمِ عَقلِهم: أَفَلَا تَعْقِلُونَ أي: يكونُ لكم عُقولٌ؛ لتَعرِفوا ذلك فتَعمَلوا بما تَقتَضيه مِن اعتقادِ البَعثِ الذي يُوجِبُ سُلوكَ الصِّراطِ).
((نظم الدرر)) (174/13).

أي: هم لا يَعقِلونَ تلك الأدِلَّةَ والحُجَجَ، ولا يَعتَبِرونَ بها، ولكنَّهم يقولونَ بإنكارِ البَعثِ بَعدَ الموتِ، كما قال أسلافُهم المُكذِّبون به!

قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82).

أي: قالوا: أإذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا وعِظامًا في قُبورِنا، أإنَّا لَمُعادونَ بَعدَ ذلك أحياءً؟! ذلك أمْرٌ لا يُعقَلُ، ولا يكونُ أبدًا!

كما قال تعالى: وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ [الواقعة: 47-48].

لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83).

لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ.

أي: لقد سبَقَ أنْ وُعِدَ آباؤُنا[261] مِن قَبْلِنا بالبَعثِ، كما وُعِدْنا نحنُ به، ولم نَرَ له حَقيقةً.

إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

---

(261) قال ابن عطية: (وقولهم وَآبَاؤُنَا إن حكَى المقالةَ عن العربِ فمرادُهم مَن سلَف مِن العالِم، جعلوهم آباءً مِن حيثُ النوعُ واحدٌ، وإن حكَى ذلك عن الأوَّلينَ فالأمرُ مستقيمٌ فيهم).

((تفسير ابن عطية)) (4/153).

وقال الشنقيطي: (والظَّاهِرُ أنَّهم يَعْنُونَ أجدادَهم، الَّذينَ جاءَتْهم الرُّسلُ، وأخبَرَتْهم بأنَّهم يُبْعَثونَ بعدَ الموتِ للحسابِ والجزاءِ).

((أضواء البيان)) (5/348).

أي: ما هذا البَعثُ الَّذي وُعِدْنا به إلَّا أخبارٌ باطِلةٌ، وقَصَصٌ وأحاديثُ خُرافيَّةٌ، ورِواياتٌ مُخْتَلَقةٌ لا صِحَّةَ لها، سطَّرَها الأوَّلونَ في كُتُبِهم؛ بقَصدِ المُسامَرةِ والتَّلهِّي بها.

سورةُ المُؤْمنونَ

الآيات (84-92)

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ
مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87)
قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ
لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ
وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ (91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (92)

غريب الكلمات:

مَلَكُوتُ: الملكوتُ: المُلْكُ، زِيدَتْ فيه الواوُ والتَّاءُ للمبالغةِ، وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ.

يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ:أي: يمنعُ ويغيثُ مَن يشاءُ ممن يشاءُ، ولا يمنعُ منه أحدٌ؛ يُقالُ: أجرْتُ فلانًا: إذا حمَيْته، وأجرتُ على فلانٍ: إذا حميتَ عنه، أو: يؤمِّنُ مَن أخافَه غيرُه، ومَن أخافه هو لم يؤمِّنْه أحدٌ، مِن الجوارِ بمعنَى التأمينِ.

تُسْحَرُونَ: أي: تُخْدَعونَ وتُصْرَفون، وأصلُ (سحر): يدلُّ على الخِداعِ وشِبْهِه.

تفسير الآيات:

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84).

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِقَومِك المُشرِكينَ المكذِّبينَ بالبَعثِ: لِمَن مُلْكُ الأرضِ ومَن فيها مِن الخَلْقِ، إنْ كنتُم تَعلَمونَ مَن هو مالِكُ ذلك وخالِقُه؟

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85).

أي: سيقولُ المُشرِكونَ: الأرضُ ومَن فيها للهِ، فقُلْ لهم حينَ يُجيبونك بذلك: أفلَا تتأمَّلونَ وتتفَكَّرون، فتتَذَكَّرونَ ما هو مَعلومٌ عندكم، ومُستقِرٌّ في فِطَرِكم؛ مِن أنَّ الَّذي قدَرَ على خلْقِ ذلك كُلِّه هو المُستحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه، فتُخلِصونَ له، وتَعلَمونَ قُدْرتَه على بَعثِ خَلقِه أحياءً يومَ القيامةِ؟!

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86).

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لقَومِك: مَن خالِقُ السَّمواتِ السَّبْعِ ومالِكُها ومدَبِّرُها، ومَن خالِقُ العرشِ الكبيرِ الواسِعِ المُحيطِ بجَميعِ المخلوقاتِ ومالِكُه ومدَبِّرُه؟

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87).

أي: سيَقولُ المُشرِكونَ: ذلك كلُّه للهِ؛ فالسَّمواتُ السَّبْعُ والعَرشُ العظيمُ مِلكٌ للهِ وَحْدَه، فقُلْ لهم حينَ يُجِيبونك بذلك: أفلَا تتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وغضَبَه وعذابَه، والحالُ أنَّه كامِلُ القُدرةِ، عظيمُ السُّلطانِ، فتَتوبونَ مِن شِرْكِكم به، ووَصْفِكم له بما لا يَليقُ به سُبحانَه، وتَكذيبِكم رسولَه؟!

قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88).

قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المُشرِكينَ: مَنِ الَّذي بيَدِه مُلكُ كلِّ شَيءٍ في السَّمواتِ والأرضِ، المُتصرِّفُ فيه بقُدرتِه ومَشيئتِه؟

كما قال تعالى: مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا [هود: 56].

وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: وهو الَّذي يَمنَعُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِه ممَّن يُرِيدُ به السُّوءَ والضُرَّ، ولا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يَمنَعَ السُّوءَ والضُّرَّ عن أحدٍ إذا شاء اللهُ به ذلك، إنْ كنتُم تَعلمونَ عظَمةَ اللهِ، وأنَّه قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ، وبِيَدِه مَلكوتُ كُلِّ شَيءٍ؟[262]

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89).

أي: سيقولُ المُشرِكون: ذلك كُلُّه للهِ؛ فالمالِكُ لكُلِّ شَيءٍ الَّذي يُجِيرُ ولا يُجارُ عليه هو اللهُ، وهو المُختَصُّ بذلك وَحْدَه، فقُلْ لهم حين يُجيبونَك بذلك: فكيف يُخَيَّلُ إليكم الباطِلُ حقًّا، فتُخْدَعونَ وتُصرَفونَ عن اتِّباعِ الحَقِّ، وتَذهَبُ عُقولُكم مع ظُهورِه؛ فلا تُوحِّدونَه سُبحانَه في عِبادتِه، ولا تُؤمِنونَ بقُدرتِه على بَعثِكم أحياءً بَعدَ موتِكم؟!

كما قال تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ [يونس: 31، 32].

---

(262) قال القُرطبيُّ: (قيلَ: هذا في الدُّنيا، أي: مَن أراد اللهُ إهْلاكَه وخَوْفَه لم يَمْنَعْه منه مانعٌ، ومَن أراد نَصْرَه وأمْنَه لم يَدْفَعْه مِن نَصْرِه وأمْنِه دافِعٌ.
وقيلَ: هذا في الآخرةِ، أي: لا يَمْنَعُه مِن مُستحَقِّ الثَّوابِ مانعٌ، ولا يَدفَعُه عن مُستوجبِ العذابِ دافِعٌ).
((تفسير القرطبي)) (145/12).

بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90).

أي: بلْ[263] أتَيْناهم بالحقِّ،[264] وإنَّ المُشرِكِينَ لَكاذِبونَ في دَعْواهم الشَّريكَ والولَدَ للهِ سُبحانَه، ونَفْيِهم البَعثَ.

---

(263) قال ابنُ جرير: (يقولُ: ما الأمرُ كما يزعمُ هؤلاء المشركونَ باللهِ مِن أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، وأنَّ الآلهةَ والأصنامَ آلهةٌ دونَ اللهِ).

((تفسير ابن جرير)) (101/17).

وقال البقاعي: (ولمَّا كان الإنكارُ بمعنَى النفيِ، حسُن قولُه: بَلْ، أي: ليس الأمرُ كما يقولونَ، لم نأتِهم بسِحرٍ بَلْ.

أو يكونُ المعنى: ليس هو أساطيرَ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ).

((نظم الدرر)) (179/13).

وقال ابنُ عاشورٍ: (إضرابٌ لإبطالِ أن يكونوا مَسْحورينَ، أي: بل ليس الأمرُ كما خُيِّلَ إليهم).

((تفسير ابن عاشور)) (112/18).

(264) ممن اختار أنَّ المرادَ بالحَقِّ: التوحيدُ: مقاتلُ بن سليمان، والرسعني، وابن كثير.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (164/3)، ((تفسير الرسعني)) (152/5)، ((تفسير ابن كثير)) (491/5).

وممن اختار أنَّ المرادَ به القرآنُ: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين، والواحدي.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (414/1)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (209/3)، ((البسيط)) للواحدي (48/16).

وقيل: المرادُ: بالتوحيدِ والقرآنِ.

وممَّن اختاره: ابنُ الجوزي.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (270/3).

وقال ابن جرير: (بِالْحَقِّ اليقينِ، وهو الدِّينُ الَّذي ابْتَعَثَ اللَّهُ به نَبِيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك الإسلامُ، ولا يُعبَدُ شيءٌ سِوَى اللهِ؛ لأنَّه لا إلهَ غيرُه).

((تفسير ابن جرير)) (101/17).

ومِن المفسِّرينَ مَن قال: المرادُ: بالتوحيدِ والوعدِ بالبعثِ.

وممن ذهب إليه: البيضاويُّ، وأبو السعود.

يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (94/4)، ((تفسير أبي السعود)) (148/6).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ به: الصدقُ: السمعانيُّ، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُليمي.

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91).

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ.

أي: ما اتَّخَذ اللهُ لنَفْسِه -تعالى- ولدًا كما يَزْعُمُ النَّصارى ومُشرِكو العَرَبِ وغَيرُهم.

وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ.

أي: ولم يكُنْ مع اللهِ شَريكٌ يَستَحِقُّ أنْ يُعبَدَ معه.

إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ.

أي: لو كان مع اللهِ آلهةٌ أُخرى، لَاعتزَلَ كلُّ إلهٍ بما يَخْلُقُ وانفرَدَ بتَدبيرِه؛ فلا تَنتَظِمُ شُؤونُ الكونِ.[265]

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (3/488)، ((تفسير البغوي)) (3/373)، ((تفسير القرطبي)) (12/146)، ((تفسير الخازن)) (3/276)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 454)، ((تفسير العليمي)) (4/489).

قال الشوكاني: (بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ أي: الأمْرِ الواضِحِ الَّذي يَحِقُّ اتِّباعُه).

((تفسير الشوكاني)) (3/587).

(265) قال السّعدي: (اعتبِرْ ذلك بالشَّمسِ والقمرِ، والكواكبِ الثابتة، والسيَّارة؛ فإنَّها منذ خُلِقَت وهي تَجْري على نِظامٍ واحدٍ، وترتيبٍ واحدٍ، كُلُّها مُسخَّرةٌ بالقُدرة، مُدَبَّرةٌ بالحكمةِ لمصالحِ الخَلقِ كُلِّهم، ليست مَقْصورةً على مَصلحةِ أحدٍ دونَ أحدٍ، ولنْ ترَى فيها خللًا ولا تناقُضًا، ولا مُعارضةً في أدنى تصرُّفٍ، فهل يُتصَوَّرُ أنْ يكونَ ذلك تَقديرَ إلهينِ ربَّينِ؟!) ((تفسير السعدي)) (ص: 558).

كما قال تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ [الأنبياء: 22].

وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.

أي: ولَطلَبَ كلُّ إلهٍ أنْ يعلُوَ على غَيرِه مِن الآلهةِ ويَقهَرَه، فيَغلِبُ القويُّ منهم الضَّعيفَ، ومع هذا التَّمانُعِ والتَّصارُعِ بيْنَ الآلهةِ لا يُمكِنُ وُجودُ العالَمِ، ولا يُمكِنُ أنْ ينتَظِمَ هذا الانتِظامَ العَجيبَ المُتَّسِقَ.

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ.

أي: تنزَّهَ اللهُ عمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ مِن اتِّخاذِ الولَدِ، ووُجودِ الشَّريكِ.

عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (92).

عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

أي: عالِمِ ما غابَ عن خَلقِه مِمَّا لم يُشاهِدوه، وعالِمِ ما يَرَونَه ويُشاهِدونَه؛ فلا يَخْفى عليه السِّرُّ ولا العَلانيةُ.[266]

---

(266) قال ابنُ جرير: (إنَّما هذا مِن الله خبرٌ عن هؤلاء الذين قالوا مِن المشركين: اتَّخذ الله ولدًا، وعبَدوا مِن دونِه آلهةً، أنَّهم فيما يقولونَ ويفعلونَ مبطلونَ مخطئونَ؛ فإنَّهم يقولونَ ما يقولونَ مِن قولٍ في ذلك عن غيرِ علمٍ، بل عن جهلٍ منهم به؛ وإنَّ العالِمَ بقديمِ الأمورِ، وبحديثِها، وشاهدِها وغائبِها عنهم، اللهُ الذي لا يخفَى عليه شيءٌ، فخبرُه هو الحقُّ دونَ خبرِهم).
((تفسير ابن جرير)) (102/17).

فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.

أي: فارتفَعَ اللهُ وتَنزَّهَ عن شِركِ المُشرِكينَ، وما يَصِفونَه به مِن العُيوبِ والنَّقائِصِ.

وقال السعدي: (عَالِمَ الْغَيْبِ أي: الذي غاب عن أبصارِنا وعِلمِنا؛ مِن الواجباتِ والمستحيلاتِ والممكناتِ، وَالشَّهَادَةِ وهو ما نشاهدُ مِن ذلك).

((تفسير السعدي)) (ص: 558).

سورةُ المُؤْمِنونَ

الآيات (93–100)

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلَى أَنْ
نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96)
وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98) حَتَّى
إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا
كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100)

غريب الكلمات:

هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ: أي: نَخساتِهم، وغَمزاتِهم، وطَعَناتِهم، ووساوسِهم، والهمْزُ: الدَّفْعُ؛ فهَمَزاتُهم: دَفْعُهم بالإغواءِ إلى المعاصي، أو هو دفعٌ بنَخْزٍ وغَمْزٍ يُشبهُ الطَّعنَ، وأصْلُ (همز): يدُلُّ على ضَغطٍ وعصْرٍ.

وَمِنْ وَرَائِهِمْ: أي: مِن أمامِهم فيما يَستقبلونَ مِن الزَّمانِ، و(وراء) مِن الأضْدادِ، يُقالُ للرَّجل: وراءَك، أي: خلْفَك، ووَراءَك، أي: أمامَك.

بَرْزَخٌ: البَرزخُ: القَبْرُ، أو ما بيْن الدُّنيا والآخرةِ، وكلُّ حاجزٍ بَيْن شَيْئَيْنِ فهو بَرزخٌ.

تفسير الآيات:

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93)﴾.

أي: قُلْ –يا محمَّدُ–: يا ربِّ، إنْ أَرَيتَني ما وعَدْتَ هؤلاء المُشرِكينَ المُكذِّبينَ مِن نُزولِ العذابِ بهم.[267]

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94)﴾.

أي: ربِّ، فنَجِّني حِينذاكَ، ولا تجْعَلْني فيهم.

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما، عنِ النبيِّ – ﷺ – فيما يَرويه عن رَبِّه عزَّ وجَلَّ، أنَّه قال: ((يا محمَّدُ، إذا صلَّيتَ فقُلِ: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ فِعلَ الخَيراتِ، وتَرْكَ المُنْكَراتِ، وحُبَّ المَساكينِ، وإذا أردْتَ بعبادِك فِتنةً[268] فاقبِضْني إليك غيرَ مَفْتونٍ)).[269]

---

(267) قال الشنقيطي: (قد بيَّنَ تعالى في مواضِعَ أُخَرَ: أنَّه لا يُنزِلُ بهم العذابَ وهو فيهم، وذلك في قولِه تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ [الأنفال: 33] ، وبيَّنَ هنا أنَّه قادِرٌ على أنْ يُريَه العذابَ الَّذي وعَدَهُم به في قولِه: وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ [المؤمنون: 95] ، وبيَّنَ في سُورةِ «الزُّخرفِ»: أنَّه إنْ ذهَبَ به قَبلَ تعذيبِهم، فإنَّه مُعذِّبٌ لهم ومُنتقِمٌ منهم لا مَحالةَ، وأنَّه إنْ عذَّبَهم وهو حاضِرٌ فهو مُقتدِرٌ عليهم، وذلك في قولِه تعالى: فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ [الزخرف: 41، 42]).

((أضواء البيان)) (352/5).

(268) فِتنةً: أي: ضلالةً أو عقوبةً دنيويةً.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا القاري (611/2).

(269) أخرجه الترمذي (3233) واللفظ له، وأحمد (3484).

حسَّن إسنادَه ابنُ الجوزي في ((العلل المتناهية)) (35/1)، وحسَّن الحديثَ ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (317/2)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3233)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (162/5).

وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95).

أي: وإنَّا -يا محمَّدُ- على أنْ نُرِيَك ما نَعِدُ المُشرِكينَ المُكذِّبينَ مِن العذابِ لَقادِرونَ، وإنَّما نُؤخِّرُه لِحِكمةٍ؛ فلا يَحزُنْك تَكذيبُهم.(270)

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96).

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ.

أي: ادفَعْ -يا محمَّدُ- أذَى أولئك القومِ بالخَصلةِ الَّتي هي أحسَنُ الخِصالِ؛ بأنْ تُحسِنَ إليهم، وتَصفَحَ عنهم، وتَصبِرَ على أذاهُم.(271)

كما قال تعالى: وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [فصلت: 34-35].

---

(270) قال القرطبيُّ: (قد أراه اللهُ تعالى ذلك فيهم بالجوعِ والسَّيفِ، ونجَّاه اللهُ ومَن آمن به مِن ذلك).
((تفسير القرطبي)) (147/12).
وقال ابنُ عاشور: (قد تحقَّقَ ذلك فيما حلَّ بالمشركين يومَ بدْرٍ ويومَ حُنَينٍ، فالوعيدُ المذكور هنا وَعيدٌ بعقابٍ في الدُّنيا كما يَقْتضيه قولُه تعالى: فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).
((تفسير ابن عاشور)) (118/18).
(271) قال ابن جزي: (والأظهرُ أنَّه أمرٌ بالصَّفحِ والاحتمالِ وحُسنِ الخُلقِ، وهو مُحكَمٌ غيرُ منسوخٍ، وإنَّما نُسِخ ما يقتضيه مِن مسالمةِ الكفَّارِ).
((تفسير ابن جزي)) (57/2).

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ.

أي: نحنُ أعلَمُ بما يَصِفُ أولئك المُشرِكونَ به ربَّهم مِنَ الأكاذيبِ والأباطيلِ المُختَلَقةِ؛ كادِّعاءِ الشَّريكِ والولَدِ له سُبحانَه، وبما يقولونَ فيك مِن السُّوءِ.

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97).

أي: وقُلْ –يا محمَّدُ–: يا ربِّ، أعتصِمُ بك مِن وَساوسِ الشَّياطينِ، ونزَغاتِهم.(272)

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا [مريم: 83].

وقال سبُحانه: وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ [الزخرف: 36 – 38].

---

(272) قال الشوكاني: (هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ: نَزَغاتُهم ووَساوِسُهم كما قالَه المفسِّرونَ).
((تفسير الشوكاني)) (3/588).

وعن سُلَيمانَ بنِ صُرَدٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((كنتُ جالِسًا مع النَّبيِّ - ﷺ - ورجُلانِ يَستبَّانِ، فأحدُهما احمَرَّ وجْهُه، وانتفخَتْ أوداجُه،[273] فقال النَّبيُّ - ﷺ -: إنِّي لَأعلَمُ كَلِمةً لو قالها ذهَبَ عنه ما يجِدُ؛ لو قال: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ، ذهَبَ عنه ما يجِدُ)).[274]

وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98).

أي: وأعتصِمُ بك -يا ربِّ- أنْ يَحضُرَ الشَّياطينُ شيئًا مِن أُموري، فيُصِيبوني بشَرٍّ وأذًى.[275]

عن أبي اليَسَرِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ - ﷺ - كان يَدْعو: ((اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك أنْ يَتخبَّطني[276] الشَّيطانُ عندَ الموتِ)).[277]

---

(273) الأوداج: هي ما أحاط بالعنُقِ من العروقِ، واحدُها: ودَجٌ.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (5/165).

(274) رواه البخاري (3282) واللفظ له، ومسلم (2610).

(275) قال الشَّوكانيُّ: (المعنى: وأعوذُ بك أنْ يكونوا معي في حالٍ مِنَ الأحوالِ؛ فإنَّهم إذا حضَروا الإنسانَ لم يكُنْ لهم عمَلٌ إلَّا الوَسوسةُ والإغراءُ على الشرِّ والصَّرفِ عن الخيرِ).

((تفسير الشوكاني)) (3/588).

ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (5/353).

وقال ابنُ كثير: (ولهذا أُمِرَ بذِكْرِ اللهِ في ابتداءِ الأُمورِ -وذلك مَطرَدةٌ للشَّياطينِ-: عندَ الأكلِ والجِماعِ والذَّبحِ، وغيرِ ذلك من الأُمورِ).

((تفسير ابن كثير)) (5/492).

(276) يتخَبَّطَني: أي: يصرَعَني، ويلعبَ بي، ويُفسِدَ ديني وعقلي.

يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (8/233).

(277) أخرجه أبو داود (1552)، والنسائي (5531)، وأحمد (15523).

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99).

أي: حتَّى[278] إذا حضَرَتِ الوَفاةُ أحدَ المُفرِّطينَ الظَّالِمينَ، فانكشَفَ له الغِطاءُ، وظهَرَ له الحَقُّ، ولاحَتْ له أماراتُ العذابِ؛ قال نادمًا: يا ربِّ، ارجِعُوني إلى الدُّنيا.

كما قال تعالى: وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ [المنافقون: 10].

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100).

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ.

أي: لِأعمَلَ[279] عمَلًا صالِحًا أستَدْرِكُ به ما ضيَّعتُه وفرَّطْتُ فيه مِنَ الإيمانِ وما يتبعُه مِن الطَّاعاتِ.[280]

صحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (713/1)، وذكر ابن حجر في ((بذل الماعون)) (199) أنه حديثٌ ثابتٌ، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (1552).

(278) قال ابن عطيَّة: (حَتَّى في هذا الموضِع: حَرْفُ ابتداءٍ، ويَحتمِل أنْ تكونَ غايةً مُجرَّدةً بتقديرِ كلامٍ محذوفٍ، والأوَّلُ أبيَنُ؛ لأنَّ ما بعدَها هو المَعْنِيُّ به المقصودُ ذِكرُه).

((تفسير ابن عطية)) (155/4).

ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (353/5).

(279) قال القرطبيُّ: («لعلَّ» تتضمَّن تردُّدًا، وهذا الَّذي يَسألُ الرَّجعةَ قدِ استيقنَ العذابَ، وهو يُوطِّنُ نفْسَه على العملِ الصَّالِحِ قطعًا مِن غيرِ تردُّدٍ؛ فالتَّردُّدُ يرجِعُ إمَّا إلى ردِّه إلى الدُّنيا، وإمَّا إلى التَّوفيقِ، أي: أعمَلُ صالحًا إنْ وفَّقتَني؛ إذ ليس على قطعٍ مِن وُجودِ القُدرةِ والتَّوفيقِ لو رُدَّ إلى الدُّنيا).

((تفسير القرطبي)) (150/12).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (293/23).

(280) قيل: المعنى: فيما تركتُ وضيعتُ مِن العمل بالطاعاتِ.

كَلَّا.

أي: ليس الأمرُ كما قال هذا الظَّالمُ لنَفْسِه؛ فلنْ يَستجيبَ اللهُ طلَبَ إمهالِه وإرجاعِه إلى الدُّنيا لِيعمَلَ صالِحًا.

كما قال تعالى: وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا [المنافقون: 11].

وممَّن اختاره: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، والسعدي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (106/17)، ((تفسير القرطبي)) (150/12)، ((تفسير السعدي)) (ص: 559).
قال الشنقيطي: (والعملُ الصَّالحُ يشملُ جميعَ الأعمالِ؛ مِن الشَّهادتينِ، والحجِّ الَّذي كانَ قد فرَّط فيه، والصَّلواتِ، والزَّكاةِ، ونحوِ ذلك).
((أضواء البيان)) (355/5).
وقيل: فِيمَا تَرَكْتُ أي: ضيَّعتُ أن أقولَ: لا إلهَ إلا اللهُ.
وممَّن اختاره: السمعانيُّ، والبغوي.
يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (490/3)، ((تفسير البغوي)) (374/3).
وقيل: المرادُ: في الإيمانِ الذي تركتُه.
وممَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، والبيضاوي، وأبو السعود.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (165/3)، ((تفسير البيضاوي)) (95/4)، ((تفسير أبي السعود)) (150/6).
وقيل: المراد: الإيمانُ وما يتبعُه.
وممَّن اختاره: البِقاعيُّ، والشربيني.
يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (185/13)، ((تفسير الشربيني)) (591/2).
وقيل: فيما تركتُه من المالِ فأتصدق، أو مِن الدُّنيا، أو فيما مضى مِن عُمُري.
يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (271/3)، ((تفسير القرطبي)) (150/12)، ((تفسير أبي السعود)) (150/6).
قال ابنُ القيِّم: (ذكَر سببَ سؤالِ الرَّجعةِ، وهو أن يَستقبلَ العملَ الصالحَ فيما ترَك خلفَه مِن مالِه وجاهِه وسلطانِه وقوَّتِه وأسبابِه).
((عدة الصابرين)) (ص: 184).

إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا.

أي: إنَّ طلَبَه الرُّجوعَ إلى الدُّنيا مُجرَّدُ كلامٍ يقولُه الظَّالِمُ حين تحضُرُه الوَفاةُ.(281)

وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ.

أي: ومِن أمامِ هؤلاء المَوتى حاجِزٌ بيْنَ الدُّنيا والآخرةِ يَحجُزُهم عنِ الرُّجوعِ إلى الدُّنيا، مِن وقْتِ مَوتِهم إلى يومِ القِيامةِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه النَّاسَ أحياءً مِن قُبورِهم.(282)

---

(281) قال ابنُ كثير: (قوله: كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا: قال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلمَ: أي لا بدَّ أن يقولَها لا مَحالةَ كلُّ محتضَرٍ ظالمٍ.

ويحتمِلُ أن يكونَ ذلك علةً لقولِه: كَلَّا، أي: لأنَّها كلمةٌ، أي: سؤالُه الرجوعَ ليعملَ صالحًا هو كلامٌ منه، وقولٌ لا عملَ معه، ولو رُدَّ لَما عمِل صالحًا، ولكان يكذبُ في مقالتِه هذه، كما قال تعالى: وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).

((تفسير ابن كثير)) (5/494).

ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (13/185، 186).

وقال السعدي: (إِنَّهَا أي: مقالتَه التي تمنَّى فيها الرجوعَ إلى الدنيا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا أي: مجرَّدُ قولٍ باللسانِ، لا يفيدُ صاحبَه إلَّا الحسرةَ والندمَ، وهو أيضًا غيرُ صادقٍ في ذلك؛ فإنَّه لو رُدَّ لعاد لِما نُهي عنه).

((تفسير السعدي)) (ص: 559).

(282) نقَل ابنُ عطيةَ إجماعَ المفسِّرينَ على أنَّ البرزخَ هنا هو المُدَّةُ الَّتي بينَ موتِ الإنسانِ وبيْنَ بَعثِه.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/156).

وقال ابنُ كثير: (في قولِه: وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ: تهديدٌ لهؤلاء المحتضَرينَ من الظَّلَمةِ بعذابِ البرزخِ، كما قال: مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ [الجاثية: 10]، وقال وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ [إبراهيم: 17].

وقولُه: إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ أي: يستمرُّ به العذابُ إلى يومِ البعثِ، كما جاء في الحديثِ: «فلا يزالُ معذَّبًا فيها» أي: في الأرضِ).

((تفسير ابن كثير)) (5/495).

سورةُ المُؤْمِنونَ

الآيات (101–104)

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي
جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104)

غريب الكلمات:

الصُّورِ: أي: القَرْنِ الَّذي يَنفُخُ فيه إسرافيلُ، وقيل: الصورُ جمعُ صُورَةٍ يَنْفُخُ فيها رُوحَها فتَحْيا.

تَلْفَحُ: أي: تُحرِقُ، ويُقال: لَفَحتْه النَّارُ بحَرِّها: إذا أصابَه حَرُّها، فتغيَّرَ وَجْهُه.

كَالِحُونَ: أي: عابِسونَ، والكُلوحُ: بدوُّ الأسنانِ عندَ العبوسِ، أو: مُتَقَلِّصو الشِّفَاهِ عن الأسنانِ؛ مِن إحْراقِ النَّارِ وُجوهَهم، وأصْلُ (كلح): يدُلُّ على عُبوسٍ وقُبحٍ في الوَجهِ.

تفسير الآيات:

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101).

أي: فإذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخةُ البَعثِ،[283] وقام النَّاسُ مِن قُبورِهم، فلا تَنفَعُهم حينَئذٍ أنسابُهم،[284] ولا يَفتَخِرونَ بها، ولا يَسألُ أحدٌ منهم أحدًا.[285]

---

(283) ممَّن قال بأنَّ المُرادَ بالنَّفخةِ هنا: النفخةُ الثانيةُ؛ نَفخةُ البَعثِ والنشورِ: مقاتلُ بن سليمان، والقرطبيُّ، وابن كثير، والشوكاني، والسّعدي، واستظْهَرَهُ الشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/166)، ((تفسير القرطبي)) (12/151)، ((تفسير ابن كثير)) (5/495)، ((تفسير الشوكاني)) (3/590)، ((تفسير السعدي)) (ص: 559)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (5/356).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وابنُ مسعود.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (3/374)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/271).

وقيلَ: المُرادُ بها: النَّفخةُ الأُولى.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، والسُّدّيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/111)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/271).

(284) اختُلِف في صِفة ارتفاع الأنساب المذكورة في الآية، ومتى يكون ذلك، على قولين: أحدهما: أنّ هذا في النفخة الأولى، وذلك أنّ الناس بأجمعهم يموتون فلا يكون بينهم نسب في ذلك الوقت وهم أموات.

والآخر: أنّ هذا عند النفخة الثانية، وقيام الناس من القبور فهم حينئذ لِهَول المطلع واشتغال كل امرئٍ بنفسه، قد انقطعت بينهم الوسائل، وزال انتفاع الأنساب؛ فلذلك نفاها، فالمعنى: فلا أنساب نافعة.

وعلَّقَ ابنُ عطية (٦/ ٣٢١ – ٣٢٢) على القول الأول بقوله: «هذا التأويل يُزيل ما في الآية مِن ذِكْر هول الحشر».

ثم قال: «وكذلك ارتفاع التساؤل لهذه الوجوه التي ذكرناها، ثم يأتي في القيامة مواطن يكون فيها السؤال والتعارف.

وهذا التأويل حسن، وهو مرويُّ المعنى عن ابن عباس».

(285) اختلَفَ المُفسِّرون في معنى التَّساؤُلِ المَنفيّ هنا؛ فقيلَ: المرادُ: لا يَسألُ أحدٌ أحدًا: مِن أيِّ قَبيلةٍ أنت؟ ولا مِن أيِّ نسَبٍ؟ وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والقرطبي، والخازن.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (3/298)، ((تفسير القرطبي)) (12/151)، ((تفسير الخازن)) (3/277).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (17/112).

كما قال تعالى: وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ [المعارج: 11 – 14].

وقال سُبحانَه: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ [عبس: 34 – 37].

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102).

أي: فمَن ثقُلَت مَوازينُ حَسَناتِه، ورجَحَت على سَيِّئاتِه؛ فأولئك هم الفائِزونَ بالنَّجاةِ مِنَ النَّارِ، والخُلودِ في الجنَّةِ.(286)

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103).

وقِيلَ: السُّؤالُ المَنفيُّ أنْ يسأَلَ بعضُهم بعضًا النُّصرةَ والمعونةَ والنَّجدةَ.

وممَّن قال بذلك: البقاعيُّ، وابن عاشور.

يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (187/13)، ((تفسير ابن عاشور)) (126/18).

وقِيلَ: السُّؤالُ المَنفيُّ هو: سُؤالُ بعضِهم العفْوَ مِن بعضٍ فيما بيْنهم مِن الحقوقِ؛ لقُنوطِهم مِن الإعطاءِ.

وممَّن حكَى هذا القولَ: الشنقيطيُّ.

يُنظر: ((أضواء البيان)) (356/5، 357).

(286) قال السَّفَّارينِي: (دلَّت الآثارُ على أنَّه مِيزانٌ حَقيقيٌّ ذو كِفَّتينِ ولِسانٍ، كما قال ابنُ عبَّاسٍ والحَسَنُ البَصريُّ، وصَرَّح بذلك عُلَماؤنا والأشعريَّةُ وغيرُهم، وقد بلَغت أحاديثُه مَبلَغَ التَّواتُرِ، وانعقد إجماعُ أهلِ الحَقّ مِن المُسلِمين عليه).

((لوامع الأنوار)) (2/ 185).

ويُنظر: ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: 715)، ((فتح الباري)) لابن حجر (538/13).

وقال الشنقيطي: (التحقيقُ أنَّه وزنٌ حقيقيٌّ بميزانٍ ذي لِسانٍ وكِفَّتينِ).

((العذب النمير)) (75/3).

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ.

أي: ومَن خفَّت موازينُ حسناتِه، ورجَحَتْ موازينُ سيئاتِه؛ فأولئك الَّذين غَبَنوا أنفسَهم حُظوظَها مِن رَحمةِ اللهِ، وفاتَهم النعيمُ المقيمُ، فخابُوا وهَلَكوا!

فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ.

أي: هم في جهنَّمَ ماكِثونَ لا يَخرُجونَ منها.

تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104).

تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ.

أي: تُصيبُ نارُ جهنَّمَ وُجوهَهم فتُحرِقُها إحراقًا شديدًا.

كما قال تعالى: وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ [إبراهيم: 50].

وقال سُبحانَه: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ [الأنبياء: 39].

وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ.

أي: وهم في جَهنَّمَ عابِسونَ قد تقلَّصتْ شِفاهُهم، وظهَرَتْ أسنانُهم؛ مِن أثرِ العذابِ.[287]

(287) قال البقاعي: (وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ أي مُتقَلِّصو الشِّفاهِ عن الأسنانِ مع عبوسةِ الوجوهِ وتجعدِها وتقطبِها؛ شغلُ مَن هو ممتلئُ الباطنِ كراهيةً؛ لِما دَهِمَه مِن شدةِ المعاناةِ وعظيمِ المقاساةِ في دارِ التجهُّمِ، كما ترَى الرؤوسَ المشويةَ)، ((نظم الدرر)) (188/13).

وقال ابنُ عاشور: (الكالحُ: الذي به الكلوحُ، وهو تقلُّصُ الشفتينِ، وظهورُ الأسنانِ مِن أثرِ تقطُّبِ أعصابِ الوجهِ عندَ شدةِ الألمِ).

((تفسير ابن عاشور)) (127/18).

وقال ابنُ جرير: (وهم فيها متقلِّصو الشِّفاهِ عن الأسنانِ مِن إحراقِ النارِ وجوهَهم).

((تفسير ابن جرير)) (115/17).

سورةُ المُؤْمنونَ

الآيات (105-114)

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا
قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ
خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ
(110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ
عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114)

غريب الكلمات:

شِقْوَتُنَا: الشِّقْوةُ مصدرُ شَقِيَ، كالشَّقاوةِ والشَّقاءِ: خلافُ السَّعادةِ، وأصْلُ (شقو): يدُلُّ على المُعاناةِ وخِلافِ السُّهولةِ والسَّعادةِ.

اخْسَئُوا: أَيِ: اقْعُدوا وامْكُثوا فيها صاغِرينَ، مُهانينَ، أذلَّاءَ، وابْعُدُوا، وأصْلُ (خسأ): يدُلُّ على الإبعادِ.

سِخْرِيًّا: أي: استِهزاءً، يُقالُ: سَخِرْتُ منه، واسْتَسْخَرْتُه لِلْهُزْءِ، والسِّخْرِيُّ -بكسْرِ السِّينِ- مِنَ: الهُزْءِ، وأصْلُ (سخر): يدُلُّ على احتِقارٍ واستِذلالٍ.

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105).

أي: يقولُ اللهُ تعالَى لأهْلِ النَّارِ يومَ القِيامةِ: ألَمْ تكُنْ آياتُ كِتابي تَتتابَعُ عليكم قِراءتُها في الدُّنيا شيئًا فشيئًا، فكنتُمْ تُكذِّبون بها؟

قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106).

قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا.

أي: قال أهْلُ النَّارِ: ربَّنا غلَبَ علينا ما سبَقَ لنا في سابِقِ عِلْمِك، وكَتبْتَه في اللَّوحِ المَحفوظِ، وما قدَّرْتَه علينا مِن شَقاوةٍ، فكذَّبْنا الرُّسلَ، ولم نَهْتدِ بعدَ قِيامِ الحُجَّةِ علينا؛ لنصيرَ إلى ما سَبَق في عِلمِك.[288]

وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ.

أي: وكُنَّا في الدُّنيا قَومًا ضالِّينَ عن طَريقِ الحقِّ، تائهينَ عن سَبيلِ الرَّشادِ.

رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107).

---

(288) قال البقاعيُّ: (غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا أي: أهواؤنا الَّتي قادتْنا إلى سُوءِ الأعمالِ الَّتي كانت سببًا ظاهرًا للشَّقاوة).
((نظم الدرر)) (189/13).
وقال ابنُ عاشورٍ: (الغَلبُ حَقيقتُه: الاستيلاءُ والقَهْرُ.
وأُطْلِقَ هنا على التَّلبُّسِ بالشِّقوةِ دونَ التَّلبُّسِ بالسَّعادة).
((تفسير ابن عاشور)) (127/18، 128).

أي: قالوا: ربَّنا أخرِجْنا مِنَ النَّارِ إلى الدُّنيا، فإنْ عُدْنا إلى ما كنَّا عليه مِنَ الكُفْرِ والعِصيانِ، فنَحنُ ظالِمونَ لأنفُسِنا، ومُستحِقُّونَ للعِقابِ.[289]

قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108).

أي: قال اللهُ لأهْلِ النَّارِ: اقْعُدوا في النَّارِ ذَليلينَ مُبعَدينَ حَقيرينَ، ولا تُكلِّموني في إخراجِكم منها.[290]

إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109).

(289) قال القرطبيُّ: (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ: طَلَبوا الرَّجعةَ إلى الدُّنيا كما طَلَبوها عندَ الموتِ).

((تفسير القرطبي)) (153/12).

(290) قال السعديُّ: (وهذا القولُ- نسألُه تعالى العافيةَ- أعظَمُ قولٍ على الإطلاقِ يَسمَعُه المُجرِمون في التَّخييبِ، والتَّوبيخِ، والذُّلِّ، والخَسارِ، والتَّأييسِ مِن كلِّ خيرٍ، والبُشرى بكلِّ شَرٍّ، وهذا الكلامُ والغضبُ مِن الرَّبِّ الرَّحيمِ أشَدُّ عليهم وأبلَغُ في نِكايَتِهم مِن عذابِ الجحيمِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 560).

وقال ابنُ عاشورٍ: (نُهُوا عن خِطابِ اللهِ، والمقصودُ تأْييسُهم مِنَ النَّجاةِ ممَّا هم فيه).

((تفسير ابن عاشور)) (129/18).

أي: إنَّه[291] كان في الدُّنيا جَماعةٌ مِن عِبادي المُؤمنينَ المُستضعَفينَ يَقولون في دُعائِهم: ربَّنا آمَنَّا بك وبجَميعِ ما جاءتْ به رُسُلُك؛ فاسْتُرْ ذُنوبَنا، وتَجاوَزْ عن مُؤاخَذَتِنا بها، وارحَمْنا وأنتَ أَفضَلُ مَن رحِمَ.[292]

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110)﴾.

أي: فاسْتهزأْتُم بهؤلاءِ المؤمنينَ إلى أنْ أَنساكُمْ اشتِغالُكم بالسُّخريةِ منهم ذِكْري، وكنتُمْ تَضْحَكون منهم في الدُّنيا.[293]

---

(291) قال الشنقيطي: (قد تَقرَّر في الأصولِ في مسلكِ الإيماءِ وَالتَّنبيهِ، أَنَّ «إنَّ» المكسورةَ المشدَّدَةَ مِنْ حروفِ التَّعليلِ، كقولِك: عاقِبْه إنَّه مُسيءٌ؛ أي: لأجلِ إساءَتِه، وقولُه في هذه الآيةِ: إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَدُلُّ فيه لفظُ «إنَّ» المكسورةِ المشدَّدةِ على أنَّ الأسبابَ الَّتي أدخلَتْهم النَّارَ هو استهزاؤُهم، وسخريتُهم مِنَ الفريقِ المؤمنِ الَّذي يقولُ: ربَّنا آمنَّا فاغفِرْ لنا وارحَمْنا وأنتَ خيرُ الرَّاحمين، فالكفَّارُ يَسخرونَ مِنْ ضعفاءِ المؤمنينَ في الدُّنيا حتَّى يُنسيَهم ذلك ذِكْرَ اللهِ والإيمانَ به؛ فيَدخُلونَ بذلك النَّارَ).

((أضواء البيان)) (5/360).

(292) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي: المؤمنون: ابنُ جرير، والواحدي، والبغوي، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/126) ((البسيط)) للواحدي (16/76)، ((تفسير البغوي)) (3/376)، ((تفسير ابن كثير)) (5/499)، ((تفسير الشوكاني)) (3/591)، ((تفسير القاسمي)) (7/304).

وقيل المرادُ: الصحابةُ، وقيل: المرادُ: المهاجرون.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (16/76)، ((تفسير الشوكاني)) (3/591).

قال ابنُ عطيَّةَ: (هذه الآيةُ كلُّها ممَّا يُقالُ للكُفَّارِ على جِهةِ التَّوبيخِ، والفريقُ المُشارُ إليه: كلُّ مُستضعَفٍ مِن المؤمنينَ يَتَّفِقُ أنْ تكونَ حالُه مع كُفَّارٍ في مِثْلِ هذه الحالِ، ونزَلَتِ الآيةُ في كفَّارِ قُريشٍ مع صُهيبٍ وبلالٍ وعمَّارٍ ونظرائِهم، ثمَّ هي عامَّةٌ فيمَن جرى مَجْراهم قديمًا وبقيَّةَ الدَّهرِ).

((تفسير ابن عطية)) (4/157).

(293) قال السعديُّ: (وهذا الَّذي أوجَبَ لهم نِسيانَ الذِّكرِ اشتِغالُهم بالاستِهزاءِ بهم، كما أنَّ نِسيانَهم للذِّكرِ يَحُثُّهم على الاستهزاءِ؛ فكلٌّ مِنَ الأمرينِ يمُدُّ الآخَرَ).

((تفسير السعدي)) (ص: 560).

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ [المطففين: 29 – 32].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: سِخْرِيًّا قِراءتانِ:

1- قِراءةُ سُخْرِيًّا بضَمِّ السِّينِ. قيل: مِنَ السُّخرةِ والاستِخدامِ. وقيل: هي بمعنى الاستِهزاءِ كالقِراءةِ الأُخرى.(294)

2- قراءةُ: سِخْرِيًّا بكَسرِ السِّينِ، بمعنى: الاستِهزاءِ.(295)

(294) قرأ بها نافع، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/329).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (17/126، 127)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/196، 197)، ((تفسير ابن عطية)) (4/157، 158)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (8/371، 372).
قال الشنقيطي: (ومعنى القراءتينِ واحِدٌ، وهو سُخريَّةُ الكُفَّارِ واستِهزاؤُهم بضُعَفاءِ المؤمنينَ...، وممَّن قال بأنَّ معناهما واحِدٌ: الخليلُ وسيبويه، وهو الحَقُّ إن شاء اللهُ تعالى.
وعن الكِسائيِّ والفَرَّاءِ: أنَّ السِّخريَّ -بكَسرِ السِّينِ- مِن قَبيلِ ما ذكَرْنا مِن الاستِهزاءِ، وأنَّ السُّخريَّ -بضَمِّ السِّينِ- مِن التَّسخيرِ الذي هو التَّذليلُ والعُبوديَّةُ، والمعنى: أنَّ الكُفَّارَ يُسَخِّرونَ ضُعَفاءَ المؤمِنينَ ويَستَعبِدونَهم، كما كان يَفعَلُه أميَّةُ بنُ خَلَفٍ ببَلالٍ.
ولا يخفى أنَّ الصَّوابَ هو ما ذكَرْنا إن شاء اللهُ تعالى).
((أضواء البيان)) (5/360).
(295) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/329).

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111).

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا.

أي: إنِّي جَزَيتُ هؤلاء المُؤمنينَ الَّذين اتَّخذْتُموهم سِخْرِيًّا وكنتُمْ تَضْحَكون منهم؛ بسبَبِ صَبْرِهم على ما نالَهُم في الدُّنيا منكم مِن أذًى واستِهزاءٍ، وصبرِهم على الطَّاعةِ، وعن المعصيةِ.[296]

كما قال تعالى: وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا [الإنسان: 12].

أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ.

أي: أنَّهم الفائِزونَ بالنَّعيمِ المُقيمِ في الجنَّةِ، النَّاجونَ مِن عَذابِ النَّارِ.

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (17/126، 127)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/196، 197)، ((تفسير ابن عطية)) (4/157، 158)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (8/371، 372).

(296) قال الشنقيطيُّ: (قولُه: بِمَا صَبَرُوا أي: بسببِ صبرِهم في دارِ الدُّنيا على أذى الكفَّارِ الَّذينَ اتَّخَذوهم سِخْرِيًّا، وعلى غيرِ ذلك مِن امتثالِ أمْرِ اللهِ واجتنابِ نَهْيِه).
((أضواء البيان)) (5/361).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: أَنَّهُمْ قِراءتانِ:

1- قِراءةُ إِنَّهُمْ على معنى الاستِئنافِ، وهو استِئنافٌ مُعَلِّلٌ للجَزاءِ. وقيل: مُبَيِّنٌ لِكَيفيَّتِه. ويكونُ الكلامُ تامًّا عندَ قولِه تعالى: بِمَا صَبَرُوا.[297]

2- قِراءةُ أَنَّهُمْ قِيلَ: على معنى التَّعليلِ لِمَا سبَقَ، فتكونُ مُوافِقةً للقِراءةِ الأُولى؛ فإنَّ الاستئنافَ يُعَلِّلُ به أيضًا. أي: جَزَيتُهم اليومَ بما صَبَروا؛ لأنَّهم همُ الفائِزونَ. وقيلَ: على معنى المفعوليَّةِ، أي: جَزَيتُهم اليومَ بصَبْرِهم الفَوْزَ.[298]

---

(297) قرَأَ بها حمزةُ، والكِسائيُّ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/329، 330).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن خالويه (ص: 259)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/197)، ((تفسير الألوسي)) (9/268).

(298) قرَأَ بها الباقونَ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/329، 330).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن خالويه (ص: 259)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/197)، ((الدر المصون)) للسمين (8/ 372).

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112).

أي: قال اللهُ في الآخِرةِ لأُولئكَ الأشقياءِ: كمْ كانتْ مُدَّةُ مُكْثِكم في الأرضِ مِنَ السِّنينَ؟[299]

---

(299) قيلَ: المُرادُ: كمْ لبِثْتُم في الدُّنيا.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والثعلبي، وابنُ كثيرٍ، والنسفي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (17/130، 131)، ((تفسير الثعلبي)) (7/59)، ((تفسير ابن كثير)) (5/500)، ((تفسير النسفي)) (2/484).

وقِيلَ: المُرادُ: كم لَبِثْتُم في القُبورِ.

وممَّن ذهَبَ إلى هذا المعنى: مُقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقندي، ومكّي، ونسَبَه ابنُ عطيَّة لجُمهورِ المفسِّرينَ ورجَّحَه، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ عاشورٍ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/167)، ((تفسير السمرقندي)) (2/492)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكّي (7/5010)، ((تفسير ابن عطية)) (4/158)، ((تفسير ابن عاشور)) (18/131).

وممَّن جمَعَ بيْن القَولينِ: الواحديُّ، والبغويُّ، والخازنُ.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (3/300)، ((تفسير البغوي)) (3/377)، ((تفسير الخازن)) (3/278).

قال الرازيُّ: (الغرَضُ مِن هذا السُّؤالِ التبكيتُ والتوبيخُ؛ فقد كانوا يُنكرون اللُّبثَ في الآخِرَة أصلًا، ولا يَعدُّون اللُّبثَ إلَّا في دارِ الدنيا، ويظنُّون أنَّ بعدَ الموتِ يدومُ الفناءُ ولا إعادةَ؛ فلمَّا حُصِّلوا في النارِ، وأيقنوا أنَّها دائمةٌ، وهم فيها مخلَّدون سألهم: كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ؟ تنبيهًا لهم على أنَّ ما ظنُّوه دائمًا طويلًا فهو يسيرٌ بالإضافةِ إلى ما أنكروه، فحينَئذٍ تحصُلُ لهم الحسرةُ على ما كانوا يَعتقدونَه في الدنيا مِن حيثُ أيقنوا خِلافَه؛ فليس الغرضُ السؤالَ، بل الغرضُ ما ذكَرْنا).

((تفسير الرازي)) (23/298).

وقال القرطبيُّ: (هذا السُّؤالُ للمُشركينَ في عَرصاتِ القيامةِ أو في النَّارِ).

((تفسير القرطبي)) (12/155).

وقال ابنُ كثيرٍ: (يقولُ تعالى مُنبِّهًا لهم على ما أضاعوهُ في عُمرِهم القصيرِ في الدُّنيا؛ مِن طاعةِ اللهِ تعالى وعِبادته وحْدَه، ولو صَبَروا في مُدَّةِ الدُّنيا القصيرةِ لَفازوا كما فازَ أولياؤُه المتَّقونَ).

((تفسير ابن كثير)) (5/500).

ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 560).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ (قُلْ) على الأمْرِ بغَيرِ ألِفٍ، قِيلَ: هو أمْرٌ للمَلَكِ أنْ يسألَهم يومَ البَعثِ عن قَدْرِ مُكْثِهم في الدُّنيا، أو عن قَدْرِ لُبْثِهم في قُبورِهم. وقِيلَ: المعنى: قُولوا: كم لَبِثْتُم؟ فأُخرِجَ الكلامُ مُخرَجَ الأمْرِ للواحدِ، والمُرادُ: الجماعةُ. وقِيلَ: المعنى: قُلْ: أيُّها الكُفَّارُ، كم لَبِثْتُم في الدُّنيا أو في قُبورِكم؟[300]

2- قِراءةُ قَالَ بالألِفِ على الخبَرِ، أي: قالَ اللهُ تعالى لهم، أو قالتِ الملائكةُ لهم: كَمْ لَبِثْتُم في الدُّنيا أو في قُبورِكم؟[301]

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113).

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ.

أي: قالوا: مَكَثْنا في الأرضِ يومًا أو بعضَ يومٍ.

وقال البقاعيُّ: (كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ على تلك الحالِ الَّتِي كُنْتُم تعُدُّونَها فوزًا، عَدَدَ سِنِينَ أنتم فيها ظافِرونَ، ولأعدائِكم قاهِرونَ، ولعلَّه عبَّرَ بما منه الإسناتُ الَّذي معناهُ القحطُ؛ إشارةً إلى أنَّ أيَّامَ الدُّنيا ضيِّقةٌ حرجةٌ وإنْ كان فيها سَعةٌ، ولا سيَّما للكفَرةِ بكُفْرِهم وخُبْثِهم ومَكْرِهم الَّذي جرَّهم إلى أضيقِ الضِّيقِ وأسوأِ العَيشِ).

((نظم الدرر)) (193/13).

(300) قرَأَ بها ابنُ كثيرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (330/2).

ويُنظَر لمعنى هذه القِراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (198/2)، ((تفسير القرطبي)) (155/12، 156).

(301) قرَأَ بها الباقونَ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (330/2).

ويُنظَر لمعنى هذه القِراءةِ: ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 493)، ((تفسير القرطبي)) (155/12، 156).

فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ.

أي: فاسألِ الحاسِبينَ الضَّابطينَ لِمقدارِ ذلك.(302)

قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114).

قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا.

---

(302) قال ابنُ جريرٍ: (أَولَى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ: أنْ يُقالَ كما قال اللهُ جَلَّ ثناؤُه: فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ [المؤمنون: 113]، وهمُ الَّذينَ يعُدُّون عدَدَ الشُّهورِ والسِّنينَ وغيرِ ذلك.

وجائزٌ أنْ يكونوا الملائكةَ، وجائزٌ أنْ يكونوا بني آدَمَ وغيرَهم، ولا حُجَّةَ بأيِّ ذلك مِن أيٍّ ثَبَتَتْ صِحَّتُها؛ فغيرُ جائزٍ تَوجيهُ معنى ذلك إلى بَعضِ العادِّينَ دونَ بَعضٍ).

((تفسير ابن جرير)) (132/17).

وقال البقاعيُّ: (ولَمَّا كان المَكرَةُ في الدُّنيا إذا أرادُوا تَمشيةَ كَذِبِهم، قالوا لمَن أخبَروهُ فتوقَّفَ في خبَرِهم: سَلْ فُلانًا؛ إيثاقًا بإخبارِهم، وسَتْرًا لعَوارِهم، جَرَوا على ذلك تَمادِيًا منهم في الجَهلِ بالعليمِ القديرِ في قولِهم: فَاسْأَلِ أي: لِتعلَمَ صِدْقَ خبَرِنا، أو بسبَبِ تردُّدِنا في العِلْمِ بحقيقةِ الحالِ لتَحريرِ حَقيقةِ المُدَّةِ، الْعَادِّينَ.

ويحتملُ أيضًا قصْد التَّرقيقِ عليهم؛ بالإشارةِ إلى أنَّ ما هم فيه مِنَ العذابِ شاغِلٌ لهم عن أنْ يَتصوَّرُوا شيئًا حاضِرًا محسوسًا، فضلًا عن أنْ يكونَ ماضيًا، فضلًا عن أنْ يكون فِكْريًّا، فكيف إنْ كان حسابًا؟!).

((نظم الدرر)) (13/193، 194).

اختُلِف في المراد بـ ﴿العادّين﴾ في الآية على قولين: أحدهما: أنهم الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم، ويُحْصُون عليهم ساعاتهم.

والآخر: أنهم الحُسّاب.

وذَهَب ابنُ جرير (١٧/ ١٣٢)، وكذا ابنُ عطية (٦/ ٣٢٦) إلى عدم التعيين؛ لصوابهما، وعدم الدليل على أحدهما دون الآخر، فقال ابنُ جرير: «أولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال كما قال الله –جلّ ثناؤه–: ﴿فاسْأَلِ العادِّينَ﴾.

وهم الذين يَعُدّون عدد الشهور والسنين وغير ذلك، وجائز أن يكونوا الملائكة، وجائز أن يكونوا بني آدم وغيرهم، ولا حجة بأيّ ذلك مِن أيّ ثبتتْ صحتها، فغير جائز توجيه معنى ذلك إلى بعض العادّين دون بعض».

وقال ابنُ عطية ٦/ ٣٢٦): «ظاهر اللفظة أنهم أرادوا مَن يتصف بهذه الصفة، ولم يعينوا ملائكة ولا غيرها؛ لأن النائم والميت لا يعدّ الحركة فيقدَّر له الزمان».

أي: قال اللهُ لهم: ما لَبِثْتُم في الأرضِ إلَّا وقْتًا يَسيرًا.[303]

لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: لو أنَّكم كنتُمْ تَعلَمون قِلَّةَ لُبْثِكم في الدُّنيا لَمَا آثرْتُم الدُّنيا الفانيةَ على الآخِرَةِ الباقيةِ، فتركْتُم طاعةَ اللهِ في تلك المُدَّةِ القَصيرةِ، واستَحْقَقْتُم سَخَطَهُ، وخَسِرْتُم النَّعيمَ الأبديَّ.

(303) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (132/17)، ((تفسير القرطبي)) (156/12)، ((تفسير ابن كثير)) (500/5)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (362/5).

قال البقاعيُّ: (إلَّا قَليلًا أي: هو مِنَ القِلَّةِ بحيث لا يُسمَّى، بلْ هو عدَمٌ).

((نظم الدرر)) (195/13).

وقال الشِّنقيطيُّ: (لأنَّ مُدَّةِ مُكْثِهم في الدُّنيا قليلةٌ جِدًّا بالنِّسبةِ إلى طُولِ مُدَّتِهم خالدينَ في النَّارِ).

((أضواء البيان)) (362/5).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (156/12).

سورةُ المُؤْمنونَ

الآيات (115–118)

أَفَحسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(118))

غريب الكلمات:

عَبَثًا: العَبَثُ: اللَّعِبُ، وما لا فائدةَ فيه، وكلُّ ما ليس له غَرَضٌ صحيحٌ، يُقالُ: عَبَثَ يَعْبَثُ عَبَثًا: إذا خلَط عَمَلَه بلَعِبٍ، وأصلُ (عبث): يَدُلُّ على الخَلْطِ.

بُرْهَانَ: البرهانُ: الحُجَّةُ والدَّليلُ، وأصْلُه: وُضوحُ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115).

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا.

أي: أفظَنَنْتُم[304] أنِّي خلَقْتُكم لَعِبًا وباطلًا، بلا قصْدٍ ولا فائدةٍ ولا حِكْمةٍ، مُهمَلينَ؛ لا تُؤْمَرون ولا تُنهَون، ولا تُثابُون ولا تُعاقَبون؟![305]

---

(304) قِيلَ: الضَّميرُ يعودُ على الأشقياءِ المنكرينَ للبعثِ.

وممَّن قال بهذا المعنى: يحيى بنُ سلام، وابنُ جريرٍ، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (1/420)، ((تفسير ابن جرير)) (17/132)، ((تفسير أبي السعود)) (6/153)، ((تفسير الألوسي)) (9/269)، ((تفسير القاسمي)) (7/305)، ((تفسير ابن عاشور)) (18/133).

قال البِقاعيُّ: (ولمَّا كان حالُهم في ظنِّهم أنْ لا بعثَ، حتَّى اشْتغلوا بالفرَحِ والبطَرِ والمرَحِ، والاستِهزاءِ بأهْلِ اللهِ، حالَ مَن يظُنُّ العَبَثَ على اللهِ الملِكِ الحقِّ المُبينِ؛ سبَّبَ عن ذلك عطفًا على قولِه: فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا [المؤمنون: 110] إنكارَهُ عليهم في قولِه: أَفَحَسِبْتُمْ.

ويجوزُ أنْ يكونَ معطوفًا على مُقدَّرٍ، نَحْوُ: أحسِبْتُم أنَّا نُهمِلُكم، فلا نُنصِفُ مَظلومَكم مِن ظالِمِكم، فحَسِبْتم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا؟!). ((نظم الدرر)) (13/195).

وقِيلَ: الخِطابُ لعُمومِ الخلْقِ.

وممَّن ذهَبَ إلى هذا: السعديُّ.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 560).

(305) قال ابنُ القيِّم: (اتَّفقَ المُفسِّرونَ على أنَّ الحقَّ الَّذي خُلِقَت به السَّمواتُ والأرضُ هو الأمْرُ والنَّهيُ، وما يترتَّبُ عليهما مِنَ الثَّوابِ والعِقابِ، فمَن جحَدَ ذلك، وجحَدَ رِسالةَ الرُّسلِ، وكفَرَ بالمَعادِ، وأحالَ حَوادِثَ العالَمِ على حركاتِ الكواكِبِ: فقد زعَمَ أنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ أبطَلُ الباطِلِ، وأنَّ العالَمَ خُلِق عبَثًا، وتُرِك سُدًى، وخُلِّي هملًا، وغايةُ ما خُلِق له أنْ يكونَ مُتمتِّعًا باللَّذَّاتِ الحِسيَّةِ كالبهائمِ في هذه المُدَّةِ القصيرةِ جِدًّا، ثمَّ يُفارِقُ الوُجودَ، وتُحْدِثُ حَركاتُ الكواكِبِ أشخاصًا مِثْلَه، هكذا أبدًا! فأيُّ باطِلٍ أبطَلُ مِن هذا؟! وأيُّ عبَثٍ فوقَ هذا؟!).

((مفتاح دار السعادة)) (2/201).

كما قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ [الأنبياء: 16].

وقال سُبحانَه: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ [ص: 27].

وقال تَبارك وتَعالى: أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى [القيامة: 36].

وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ.

أي: وتَحْسَبون أنّكم بَعدَ مَوتِكم لا تُبعَثون يومَ القِيامةِ أحياءً للحِسابِ والجَزاءِ على أعْمالِكم خَيرِها وشَرِّها؟!

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116).

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ.

أي: فتَعاظَمَ وتقدَّسَ اللهُ عن كُلِّ ما لا يَلِيقُ به سُبحانَه، ومِن ذلك إيجادُه المخلوقاتِ عَبَثًا؛ فإنَّه التَّامُّ المُلْكِ الَّذي قهَرَ كُلَّ شَيءٍ، الَّذي لا يَتطرَّقُ الباطِلُ إليه في شَيءٍ مِن ذاتِه ولا صِفاتِه؛ فلا زوالَ له ولا لِمُلْكِه، فأنَّى يأْتيهِ العَبثُ؟!(306)

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ.

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، وكلُّ ما سِواهُ عَبيدُه؛ فهو المُستحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له.

رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ.

أي: رَبُّ العَرْشِ الشَّريفِ الحسَنِ البَهِيِّ المَنْظَرِ، الَّذي هو سَقْفُ المَخلوقاتِ وأعظَمُها.

---

(306) قال السعديُّ: (فكونُه مَلِكًا للخَلقِ كلِّهم حقًّا؛ في صِدْقِه، ووَعْدِه ووَعيدِه، مألوهًا مَعبودًا؛ لِمَا له مِنَ الكَمالِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ، فما دُونَه مِن بابِ أَولى: يَمنَعُ أنْ يَخلُقَكم عبثًا).

((تفسير السعدي)) (ص: 560).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الحقُّ: ما قابَلَ الباطِلَ، ومَفهومُ الصِّفةِ يَقْتَضي أنَّ مُلْكَ غَيرِه باطِلٌ، أي: فيه شائبةُ الباطِلِ، لا مِن جهةِ الجَورِ والظُّلمِ؛ لأنَّه قد يُوجَدُ مُلْكٌ لا جَورَ فيه ولا ظُلْمَ؛ كمُلْكِ الأنبياءِ والخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ، وأصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الخُلَفاءِ والأُمراءِ، بلْ مِن جِهةِ أنَّه مُلْكٌ غيرُ مُستكمِلٍ حَقيقةَ المالكيَّةِ؛ فإنَّ كلَّ مَن يُنْسَبُ إليه المُلْكُ -عدا اللهَ تعالى- هو مالِكٌ مِن جِهةٍ، ومملوكٌ مِن جِهةٍ؛ لِمَا فيه مِن نقصٍ واحتياجٍ، فهو مملوكٌ؛ لِمَا يَتطلَّبُه مِن تَسديدِ نقصِه بقَدْرِ الحاجةِ، ومِن استعانةٍ بالغَيرِ لجَبْرِ احتياجِه، فذلك مُلْكٌ باطِلٌ؛ لأنَّه ادِّعاءُ مُلْكٍ غيرِ تامٍّ).

((تفسير ابن عاشور)) (18/135).

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ

(117).

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ.

أي: ومَن يَعبُدْ مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ لا حُجَّةَ له على عِبادتِه؛ فرَبُّه وَحْدَه سيُحاسِبُه يومَ القيامةِ، ويُعذِّبُه على شِرْكِه به.(307)

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ.

أي: إنَّه لا يَنجَحُ الكافِرونَ، ولا يَسْعدون، ولا يَفوزونَ، ولا يَنالونَ الخُلودَ في نَعيمِ الجنَّةِ، بلْ هم أهْلُ النَّارِ الهالِكونَ.

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [يونس: 69، 70].

---

(307) قال الشنقيطيُّ: (لا خِلافَ بيْن أهْلِ العِلْمِ أنَّ قولَه هنا: لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ لا مَفهومَ مُخالَفةٍ له؛ لاستحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عِبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، بلِ البراهينُ القَطعيَّةُ المُتواتِرةُ دالَّةٌ على أنَّه هو المعبودُ وَحْدَه، ولا يُمكِنُ أنْ يُوجَدَ دَليلٌ على عِبادةِ غَيرِه). ((أضواء البيان)) (5/364).

وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118).

وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: يا ربِّ، استُرْ ذُنوبَنا، وتجاوَزْ عن مُؤاخَذَتِنا بها، وارْحَمْنا في دُنيانا وآخِرَتِنا.

وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ.

أي: وأنتَ أفضَلُ مَن رحِمَ.[308]

(308) قال السعدي: (فكلُّ راحمٍ للعبدِ، فاللهُ خيرٌ له منه؛ أرحَمُ بعبدِه مِن الوالدةِ بولدِها، وأرحمُ به مِن نفْسِه).
((تفسير السعدي)) (ص: 561) وقال النَّسفيُّ: (رَحْمَتُه إذا أدركَتْ أحدًا أغنَتْه عن رَحمةِ غيرِه، ورَحمةُ غيرِه لا تُغْنيه عن رَحْمتِه).
((تفسير النسفي)) (485/2).

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الثامنَ عَشَرَ

ويَليه المجلَّدُ التاسعَ عَشَرَ وأوَّله: تفسيرُ سورةِ النُّورِ

الفهرس

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة
إلكترونية

المغني في التَّفْسِيرِ

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا